

بول مارتي

دراسات حول الإسلام في موريتانيا

الشيخ سيديا - الفاضلية - إداو علي

ترجمه وقدّم له

د. البكاي ولد عبد المالك

إلى أبوي :

أبي الذي كان سببا في وجودي و الذي لولاه ما كنت لأخطو خطواتي الصغيرة الأولى في هذه الحياة، والذي تعهدني ولا يزال بالعطف والحنان ،،

وأبي الأبوة الفكرية الذي شملني برعايته وشجعني على التفرغ للبحث العلمي الأستاذ الدكتور محمد أحمد الشريف أطال الله في عمرهما وأيدهما بنصر منه

أرفع هذا العمل مع مودتي — أبو عطاء

دراسات حول الإسلام في موريتانيا

بــــــول مارتــــي

دراسات حول الإسلام في موريتانيا

الشيخ سيديا - الفاضلية - إداو علي

ترجمه و قدم له

د. البكاي ولد عبد المالك

مقدمة الترجمة العربية:

أولا- كتاب "دراسات حول الإسلام" : السياق المعرفي:

نقدم للقارئ العربي الترجمة العربية الأولى لكتاب المستشرق الفرنسي بول مارتي "دراسات حول الإسلام في موريتانيا".

والكتاب الذي بين أيدينا هو عبارة عن جزء من موسوعة شاملة أعدها المؤلف عن الإسلام في غرب إفريقيا وشمالها بعنوان "دراسات حول الإسلام" (Etudes sur l'Islam) وهي في الأصل عبارة عن مقالات نشرت ضمن سلسلة "مجلة العالم الإسلامي" (Revue du Monde Musulman) منذ نهاية القرن التاسع عشر. ويتضمن هذا المؤلَّف الضخم جزأين أساسين الأول بعنوان : "دراسات حول الإسلام وقبائل السودان" والثاني بعنوان "دراسات حول الإسلام وقبائل البيظان".

يحتوى الجزء الأول وهو "دراسات حول الإسلام وقبائل السودان" على ستة مجلدات تناولت واقع الإسلام في غرب إفريقيا وبخاصة الحياة الروحية والاجتماعية للمجتمعات الإفريقية في السنغال ومالي وبركنا فاسو وساحل العاج وبعض الأجزاء من موريتانيا الحالية. ويتضمن هذا الجزء الأول المجلدات التالية :

المجلد الأول : بعنوان "**دراسات حول الإسلام وقبائل السودان** :**كنتة الشرقيون- البرابيش – إگلاد** "، وهو الجزء الذي ترجمه الأستاذ محمد محمود ولد ودادي ونشر في دمشق سنة (1985) ويقع هذا المجلد (النسخة

الأصلية) في 252 صفحة مقسمة إلى ثلاثة أقسام وعدد من الملاحق على النحو التالي :

القسم الأول :كنتة الشرقيون : وهو أكبر الأجزاء من حيث الحجم ويصل إلى (171 صفحة) موزعة على سبعة فصول هي:

الفصل الأول : أصول كنتة

الفصل الثاني : الشيخ سيدي المختار الكبير

الفصل الثالث : الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيد المختار وإخوته

الفصل الرابع : أبناء الشيخ سيدي محمد (الشخصيات الحالية)

الفصل الخامس : طريقة كنتة البكائية

الفصل السادس : كنتة تحت الاحتلال الفرنسي

الفصل السابع : عشائر قبيلة كنتة

أما القسم الثاني من هذا الكتاب ويقع في (68 صفحة) فقد خصصه المؤلف لقبيلة البرابيش، وينقسم إلى ثلاثة فصول :

الفصل الأول : تاريخهم

الفصل الثاني : الشخصيات الحالية

الفصل الثالث : عشائر قبيلة البرابيش

أما القسم الثالث والأخير وهو أصغر أجزاء الكتاب من حيث الحجم ويقع في (64 صفحة) فقد خصصه المؤلف لقبيلة إگلاد، وقسمه إلى أربعة فصول على النحو الآتي:

الفصل الأول : كلنتصر

الفصل الثاني : كلهوسا

الفصل الثالث : شرفيگ

الفصل الرابع : الإسلام في حياة إگلاد

ويتضمن هذا الكتاب أربعة ملاحق هي:

الملحق [1]: منطقة تمبكتو، أراض يرتادها البدو

الملحق [2]: مقتطفات من كتاب لعروة زعيم أروان

الملحق [3]: الميثاق السياسي والديني لقبيلة كنتة

الملحق [4]: علامات الإبل لدى كنتة الشرقيين

أما المجلد الثاني من الجزء الأول ("دراسات حول الإسلام وقبائل السودان") فهو بعنوان "**منطقة تمبكتو- إسلام السونغاي : جني- ماسنة وأتباعها (الإسلام الفلاني)** " ويقع هذا المجلد في (صفحة 335) وهو رابع المجلدات في هذا الجزء من حيث الحجم يأتي بعد الثالث وينقسم إلى قسمين :

القسم الأول : منطقة تمبكتو:إسلام السونغاي وهو القسم الأصغر من حيث الحجم ويبلغ عدد صفحاته (صفحة 113) ويحتوى على ثلاثة فصول:

الفصل الأول : تمبكتو والمناطق المجاورة

الفصل الثاني :منطقة ضفاف النهر (النيجر الأوسط) (دائرة گوندام)

الفصل الثالث : الإسلام في التقاليد والمؤسسات

القسم الثاني : و هو الأكبر من حيث الحجم ويبلغ عدد صفحاته (صفحة 200) ويقع في خمسة فصول على النحو الآتي:

الفصل الأول : جني

الفصل الثاني : چا

الفصل الثالث : ماسنة وأتباعها

الفصل الرابع : الإسلام في چنى — العقائد الوثوقية — الواجبات الشرعية — المساجد ودور العبادة — الأعياد الإسلامية — التعليم الإسلامي— مدرسة چنى

الفصل الخامس : الإسلام في المؤسسات القضائية والاجتماعية

الملاحق وعددها اثنا عشر (12) وتقع في سبع عشرة (17 صفحة) بالإضافة إلى ملحق للصور الفوتغرافية.

أما المجلد الثالث من "دراسات حول الإسلام وقبائل السودان" وهو بعنوان "**القبائل البيظانية في الساحل والحوض**" فقد ترجمه منذ سنوات قليلة الأستاذ محمد محمود ولد ودادي ونشرته جمعية الدعوة الإسلامية العالمية في إطار مجهودها الدعوي في كامل المعمورة، كما صدرت له طبعة أخرى في بيروت سنة 2005. ويقع هذا المجلد في (475 صفحة) وهو أضخم المجلدات على الإطلاق وينقسم إلى سبعة عشر فصلا على النحو الآتي:

الفصل الأول : قبائل أصلها من أولاد داود ويقع في (80 صفحة) مقسم إلى المباحث التالية :

- أولاد علوش
- أهل بورَدّة
- ترمز
- أولاد زيد
- الجعافرة

ويتضمن هذا الفصل الملاحق التالية :

الملحق [1] : شجرة نسب شيوخ أولاد علوش

الملحق [2] : شجرة نسب شيوخ أهل بورَدّة

الملحق [3] : شجرة نسب شيوخ ترمز

الملحق [4] : شجرة نسب شيوخ أولاد زيد

الفصل الثاني: قبائل أصلها من تجكانت ويتضمن هذا الفصل المباحث التالية:

- إيديلبه
- الوسرة
- تجكانت
- تفُلالت

الفصل الثالث : أولاد مُحمُّد

الفصل الرابع : مشظوف . ويتضمن هذا الفصل بعض الملاحق

الفصل الخامس : لحمنّات

الفصل السادس :كنتة الحوض

الفصل السابع : القلاقمة

الفصل الثامن : أهل الطالب مختار

الفصل التاسع : إجمّان

الفصل العاشر : بعض العشائر الزاوية

الفصل الحادي عشر : مدينة ولاتة

الفصل الثاني عشر : مدينة النعمة

الفصل الثالث عشر : الأقلال

الفصل الرابع عشر : أولاد امبارك

الفصل الخامس عشر : تنواجيو

الفصل السادس عشر : أولاد الناصر

الفصل السابع عشر : لادم

أما رابع مجلدات "دراسات حول الإسلام وقبائل السودان" فهو بعنوان "**منطقة خاي- بلاد البامبارا- ساحل نيورو**" فهو قريب من المجلد الأول من حيث الحجم ويبلغ عدد صفحاته (296 صفحة) ويتكون من ثلاثة أقسام وسبعة ملاحق على النحو الآتي:

القسم الأول : بعنوان "منطقة خاي" وهو أصغر الأقسام الثلاثة ويبلغ عدد صفحاته إحدى وأربعين (41) مقسمة على تسعة فصول صغيرة على النحو الآتي:

الفصل الأول : خاي

الثاني : مدينة

الثالث : كاميرا

الرابع : سيرو

الخامس : چومبوخو

السادس : لوگو

السابع : گيدي ماغا

الثامن : المساجد والمدارس القرآنية

التاسع : التشريعات الإسلامية

القسم الثاني : الإسلام في بلاد البامبارا وهو الأكبر من حيث الحجم ويبلغ عدد صفحاته (صفحة 148) موزعة على أربعة فصول على النحو الآتي:

الفصل الأول : الإسلام عند السمونو

الثاني : الإسلام عند الماركا

الثالث: الإسلام عند الفلان

الرابع: البمبارة المأسلمون ، والأجانب المتحمسون للدين الإسلامي

القسم الثالث :ساحل نيورو، وهو ثاني أجزاء الكتاب من حيث الحجم إذ يبلغ عدد صفحاته (73 صفحة) مقسمة إلى أحد عشر فصلا على النحو الآتي:

الفصل الأول : عموميات

الثاني : نيورو

الثالث : التكرور

الرابع : الفلان

الخامس : السننكي

السادس : الخاسونكي

السابع : چاوارا

الثامن : البامبارا

التاسع : المساجد، ودور العبادة والصلاة

الحادي عشر : بقايا الماضي

ويتضمن هذا القسم سبعة ملاحق وفهرس للصور.

****

أما الجزء الثاني من المؤلف الضخم لبول مارتي "دراسات حول الإسلام" فيتضمن كتابين الأول هو الكتاب الذي بين أيدينا (**"دراسات**

حول الإسلام في موريتانيا– الشيخ سيديا–الفاضلية–إيدو علي") وستتعرض له في حينه.

وكتاب آخر بعنوان "دراسات حول الإسلام وقبائل البيظان– البراكنة" يقع في (300 صفحة) موزعة بين أربعة أقسام على النحو التالي:

القسم الأول : بعنوان "تاريخ عام" وهو عبارة عن بحث في أصول القبائل الموريتانية من خلال القسمة الثنائية المشهورة : قبائل عربية الأصل هم بنو حسان وقبائل زاوية صنهاجية هم السكان الأصليون للبلد . ويقع هذا القسم في (93 صفحة) ويتضمن ثمانية فصول على النحو التالي :

الفصل الأول : الأصول : فتوحات البربر الصنهاجيين والعرب الحسانيين

الثاني : سيطرة بني حسان أولاد رزق في القرن الخامس عشر الميلادي

الثالث : سيطرة أولاد أمبارك في القرن السادس عشر

الرابع : أصول البراكنة

الخامس : حرب شربّه وزعماء الزوايا

السادس : الفرع الأكبر من أمراء البراكنة : أولاد نغماش

السابع : الفرع الأصغر من أمراء البراكنة : أولاد السيد

الثامن : الاحتلال الفرنسي

القسم الثاني : بعنوان "تاريخ القبائل" البيظانية فهو أكبر أجزاء الكتاب ويقع في (178 صفحة) مقسمة إلى 21 فصلا على النحو التالي:

الفصل الأول : أولاد نغماش

الثاني : أولاد السيد

الثالث : أولاد أحمد

الرابع : إجيجبة

الخامس : الزماريق

السادس : كنتة

السابع : تركز

الثامن : الحجاج

التاسع : إيديلك

العاشر : إيدكشمّة

الحادي عشر : تاگاط

الثاني عشر : طلبة تناك

الثالث عشر : أهل القصري

الرابع عشر : الدراوات

الخامس عشر : تشمشة

السادس عشر : اهيهات

السابع عشر : سوباك

الثامن عشر : اتمدّك

التاسع عشر : تبيت

العشرون : التوابير

الواحد والعشرون : دباي ألاگ

القسم الثالث : بعنوان "شمامة" وهو أقل الأقسام حجما ويصل عدد صفحاته إلى (17 صفحة) ويقع في ثلاثة فصول صغيرة على النحو التالي:

الفصل الأول : معلومات جغرافية

الثاني : الإسلام لدى الزنوج

الثالث : عشائر البيظان في منطقة شمامة

القسم الرابع : بعنوان "العادات الاجتماعية والسياسية" وهو قسم صغير الحجم لا يتعدى عدد صفحاته (72 صفحة) مقسمة إلى خمسة فصول على النحو الآتي:

الفصل الأول : العادات

الثاني : الجبايات

الثالث : الأتاوات

الرابع : الحراطين

الخامس : الصمغ العربي

وعدد من الملاحق يصل عددها إلى 21 ملحقا بالإضافة إلى فهرس للصور.

ثانيا – هذا الكتاب :

1- بعض عوائق الكتابة التاريخية في موريتانيا:

يمكن اعتبار الكتابة التاريخية في هذا البلد، بصفة عامة، ضحية لصنفين من الذاتية : الذاتية المتعالية (Subjectivisme transcendantale) فوق التاريخية ؛ والذاتية الضيقة (الخصوصانية والقبلية – المناطقية).

يقود الشكل الأول من الذاتية والذي يأخذ شكل دراسات إسلامية ذات طابع استشراقي في كثير من الأحيان إلى نوع من المركزية الإتنية (Ethnocentrisme) تجعل من تاريخ "الآخر" وثقافته مرحلة موغلة في القدم من حضارة واحدة بعينها وفقا للتصور الخطي لمسار الحضارة الإنسانية وبالتالي كان الهاجس الأول لدى معظم أصحاب هذا الصنف من الكتابة هو نقل ما يسمى بـــ "المجتمعات البدائية" من الطبيعة إلى الثقافة، ومن المجتمع إلى التاريخ. وهذا هو ما يطلق عليه في بعض الأدبيات "المشروع

الثقافي الاستعماري" الذي اصطدم في موريتانيا بجدار من الرفض لم يختلف كثيرا عن مصيره في مجتمعات المغرب العربي الأخرى وإن اختلفت أساليب الرفض ومبرراته. في حين يقود الشكل الثاني من الذاتية وهو الذاتية الضيقة إلى نوع من الخصوصانية المشحونة بهاجس الغيرية الثقافية الجذرية والتوجس من الأصل على الرغم مما ينطوي عليه من تنوع وثراء في بنيته.

بيد أن الناظر في أي موضوع مهما كان وبخاصة في مجال العلوم الإنسانية لا بد أن يكون على مسافة معينة من الشيء المرئي: لا شديدة القرب ولا شديدة البعد حتى يكون قادرا على تبينه بوضوح وتجرد. ويعد هذا الانزياح الضروري بين الذات وموضوعها شرطا أساسيا من شروط إمكان الكتابة التاريخية الموضوعية.

ذلك هو العوائق الإبستيمولوجي الأهم الذي منع ويمنع الذاتية الضيقة الخصوصانية من تبين موضوعها لشدة التداخل بينها وبينه وصعوبة تحقيق الانزياح الضروري، ومنع الذاتية المتعالية من سبر أغواره بما فيه الكفاية.

2- أهمية الكتاب:

وتنبع أهمية هذا المصدر الأساسي من مصادر التاريخ الثقافي والاجتماعي لموريتانيا من أنه يمثل رواية معاصرة للأحداث أعدت لحظة تشكلها ونجمت عن معاينة صاحبها للظاهرة الاجتماعية لحظة ولادتها فهو ملاحظ من الداخل عرف لغة مجتمع الدراسة وعاداته وتقاليده معرفة تامة، فتجاوز بذلك عائق الذاتية المتعالية وكسر حاجز المغايرة، وهو ما يشهد عليه ثراء المصطلح الحساني وتنوعه في هذا الكتاب.

كما تعود أهميته أيضا إلى طبيعة المادة العلمية التي استطاع مؤلفه الحصول عليها مباشرة من أفواه الأمراء والشيوخ الزمنيين والروحيين والإداريين الفرنسيين فقد وضع المؤلف يده على الوثائق الإدارية الفرنسية

ومكتبات الشيوخ ومراسلاتهم ومعاهدات الأمراء وعلاقاتهم الفوقية مع القبائل الغارمة..

هكذا وظف ذلك المخزون الهائل من المعلومات المتنوعة التي كانت في حوزة الإدارة الاستعمارية عن البلد والجماعات المحلية، والمقابلات الحميمة التي أجراها مع أعلام البلد وزعاماته الزمنية والروحية - والتي لم يكن في الإمكان لأي من أبناء جلدتهم الحصول عليها لاعتبارات تتعلق بالقدر والمكانة - لتكوين رؤية شاملة للتاريخ الاجتماعي والسياسي والثقافي للدولة الناشئة .

وتعود أهمية هذا الكتاب كذلك إلى أنه قدم رؤية كلية للأحداث لا بعين المؤرخ الذي يكتفي بسرد الأحداث بل بعين فيلسوف التاريخ الذي يسعى إلى اكتشاف القوانين العامة التي تحكم سيرها . فلم يكن الواقع الثقافي والسياسي الموريتاني معزولا عن السياق العربي والإفريقي في شمال إفريقيا وغربها . فهو عندما يحلل حدثا معينا من الأحداث فإنه لا يكتفي بسرد الوقائع الجزئية وإنما يربطها بسياقها العام الذي يتجاوز منطقة الدراسة، وهو هنا يستجيب لمقولة أساسية من مقولات فلسفة التاريخ ألا وهي مقولة الكلية، فنراه على سبيل المثال يربط المقاومة المستميتة التي خاضها ماء العينين في الشمال بمجريات الأحداث في الجزائر والمغرب الأقصى وليبيا.

كما تنبع أهمية هذا الكتاب أيضا من خضوع صاحبه لمقولة أخرى من مقولات فلسفة التاريخ وهي مقولة العلية أو التعليل الباطني الجواني للأحداث. فيجد قارئ هذا الكتاب نوعا من الربط النسقي بين القوى الروحية والقوى المادية. فلم يكن الخطاب الديني في الثقافة الشنقيطية أبدا منفصلا عن حوامله المادية المتعلقة بالطبيعة والمجتمع والتاريخ، وهو ما يتجسد على سبيل المثال في العلاقة بعيدة المدى التي تظل قائمة بين الشيخ وتلاميذه في مختلف الدول الإفريقية حتى وإن تباعدت المسافات وتطاولت الأزمنة، بل ومع الأمراء المحليين. كما يتجسد ذلك الربط بين القوى

الروحية والقوى المادية أيضا في نوع من التواصل بين المستويات الاجتماعية وإذابة الحدود التي عمقتها حرب شرببّه التاريخية بين العرب ومجتمع الزوايا . ويؤسس هذا التفاعل بين القوى المادية والقوى الروحية لعلاقة مرنة بين قطبي الزعامة في المجتمع البيظاني، فنرى السلطة الروحية تتحول في بعض الأحيان إلى سلطة زمنية فتستعير كافة رموزها : السلاح - الطبل - السماع والعكس أيضا صحيح.

وفي الأخير لا بد من الإشارة إلى أن هذا الكتاب يكتسب المزيد من الأهمية بالنظر إلى حرص صاحبه على التحلي بدرجة كبيرة من الموضوعية إلا في حالات نادرة أشرنا إلى البعض منها في الهامش. ويلاحظ القارئ المتمعن لهذا الكتاب أن ما أسميناه بـــ "الذاتية المتعالية" لم تكن لتمنع صاحبه من إظهار الكثير من الجوانب المهمة من ثقافة البلد وأعلامه ودورهم في نشر الإسلام في إفريقيا رغم ما اكتنف ذلك في بعض الأحيان من سلبيات لا تخص مضمون الدعوة بل منهجها فحسب، سلبيات وقع فيها أولئك الدعاة المتحمسون بـــ "نية طيبة " كما يقول مارتي.

وتتجلى موضوعية هذا الكتاب في الموازنة بين الطرق الصوفية الثلاث الكبرى في موريتانيا وهي القادرية والفاضلية والتجانية، وبين الجهات ومقدار مساهمتها في الثقافة الشنقيطية، وهي مسألة نفتقدها إلى حد بعيد - وأحيانا بطريقة لا واعية - في الدراسات التي كتبها موريتانيون عن موريتانيا والتي لم يسلم بعضها من مزلّة القدم والحَيْد عن جادة الصدق تحت تأثير "الذاتية الضيقة" والغيرية الثقافية الجذرية .

إلا أن هذا الكتاب على الرغم من فوائده الجمة لا يخلو من بعض الهنات التي يمكن في تقديرنا أن تعزى لا إلى جهل المؤلف بمجتمع الدراسة - وهي عادة الكثير من المستشرقين - وإنما إلى رواسب "الذاتية المتعالية".

فمن السهل أن نلاحظ وخاصة في الجزء المتعلق بالتاريخ الاجتماعي والسياسي للأعلام، وجود فقرة ثابتة يُنظر إليهم فيها في ضوء علاقاتهم مع

السلطة الاستعمارية الفرنسية، وربما انعكس ذلك في درجة الاهتمام الذي يوليه المؤلف لأولئك الأعلام .

ويلاحظ أيضا أن لفظ "التعصب" هو من الألفاظ التي اقترنت في لغة المؤلف بروح المقاومة ورفض الوجود الفرنسي . فنجده على سبيل المثال يصف الشيخ المجاهد ماء العينين وابنه الهيبة بالتعصب، وكذلك القظف أصحاب الطريقة الشاذلية، وبطل المقاومة المختار ولد الحامد وغيرهم، ولا يتوانى عن وصف جيوشهم بـــ "العصابات"، وتكتيكاتهم العسكرية بـــ "الخيانة" و "المغامرة" وما إلى ذلك .

وإذا كان البعض يرى بأن الاستشراق ولد من أبوين غير شرعيين هما التنصير والاستعمار، إلا أن هذا الاتهام لا ينطبق على المستشرق بول مارتي إلا بصفة جزئية. فلا يجد القارئ لهذا الكتاب أية إشارات دالة على الالتزام الديني للمؤلف، في حين أنه من الصعب إنكار صلته الوثيقة بالإدارة الاستعمارية وعمله فيها وهو ما يظهر أولا من إهدائه الذي صدّر به الجزء المتعلق بإمارة البراكنة (دراسات حول الإسلام وقبائل البيظان – البراكنة) الذي يقـــول فيه : (إلى السيد العقيد غادان حاكم المستعمرات – مفوض الحكومة العامة لموريتانيا مع كامل التقدير) ؛ كما يظهر ثانيا في الاستعمال المتكرر لضمير الجماعة عندما يتحدث المؤلف عن "الجيش الفرنسي" و "الاحتلال الفرنسي"...

لكن على الرغم من تلك السلبيات والتي لا يخلو منها عمل بشري إلا أن القيمة العلمية الكبيرة لهذا الكتاب تبدو واضحة وعلى أكثر من صعيد فقد كان وما يزال مصدرا أساسيا للدراسات الإسلامية والتاريخية حول المنطقة.

3- بنية الكتاب:

وقد حاول المؤلف من خلال الكتاب الذي بين أيدينا تقديم دراسة شاملة ومتكاملة للبناء الاجتماعي والروحي للطرق الصوفية الثلاث الأكثر انتشارا في موريتانيا وهي القادرية والفاضلية والتجانية ودورها في تشكيل الوعي الديني و الخريطة السياسية والاجتماعية والدينية للبلد الذي تحول إلى متروبولية روحية تبث في كل الاتجاهات وخاصة في اتجاه الدول الإفريقية المجاورة والبعيدة عن موريتانيا .

فتناول في الفصل الأول الفرع الأساسي للطريقة القادرية في موريتانيا والمتمثل في العلامة الكبير الشيخ سيديا بابا ومدرسته. وقد تعرض المؤلف على وجه الخصوص لدوره الروحي والسياسي الكبير في تشكيل نواة الدولة الناشئة. وقد قسم هذا الفصل الأول الأكبر من حيث الحجم إلى أربعة مباحث رئيسة : تناول في الأول منها نسب الشيخ سيديا وعائلته، وفي الثاني شخصيته، وفي الثالث قبيلته من جهة الولاء والحلف، وفي المبحث الأخير نفوذه داخل البلد وخارجه.

وتضمن هذا الفصل علاوة على ذلك عددا من الملاحق المهمة وعددها (8).

أما في الفصل الثاني فقد تناول فيه المؤلف طريقة منبثقة عن الطريقة القادرية – رغم طابعها الجامع لخصال كل الطرق – وهي الطريقة الفاضلية وممثلها هو الشيخ محـــمد فاضل. وقد قسم هذا الفصل إلى ثلاثة مباحث رئيسة وعدد كبير من اللواحق :

تناول في المبحث الأول نسب محمد فاضل وعائلته، وفي الثاني أبناءه وتلاميذه . وقد ركز المؤلف في هذا المبحث على التأثير الروحي والسياسي الكبير لاثنين من أبناء الشيخ محمد فاضل المائة وهما : الشيخ سعد بوه في منطقة القبلة والسنغال أساسا، والعلامة الكبير المجاهد ماء العينين في منطقة آدرار وتيرس والصحراء الغربية والمغرب . وفي حين جسد الأول الزعامة الدينية في أقوى مظاهرها، استطاع الثاني أن يثبت أن الحدود بين الزمني والروحي ليست نهائية من خلال الدور السياسي

الكبير الذي لعبه في مقاومة الوجود الفرنسي في آدرار والمغرب ، بل إن المؤلف يعزو إليه سبب احتلال المغرب . ويتضمن هذا الفصل أيضا عددا من الملاحق المهمة وعددها (6).

أما الفصل الأخير فقد خصصه المؤلف لإحدى الطرق الأساسية في موريتانيا وهي الطريقة التجانية من خلال أبرز ممثليها الذين تقمصتهم الطريقة وتقمصوها وهم قبيلة إيداو علي. وتنبع أهمية ممثلي هذه الطريقة من ارتباطهم تاريخيا بمدينة شنقيط الحاضرة الإسلامية الأبرز في نهاية العصر الوسيط .

وقد قسم هذا الفصل إلى ثلاثة مباحث : الأول تعرض فيه المؤلف إلى تاريخ إيداو علي وأصولهم العلوية وتأسيس مدينة شنقيط، وفي الثاني تناول "وضعهم الراهن" وكيفية توزعهم في المجال الجغرافي الموريتاني في ثلاث من أهم المناطق الموريتانية : آدرار و الترارزة و تگانت. كما تناول فيه أيضا الدور الذي لعبوه في نـــشر الإسلام و الثقافة الشنقيطية في ربوع القارة. أما المبحث الأخير من هذا الفصل فقد خصصه المؤلف لتجانية إيداو علي، تعرض فيه على وجه الخصوص إلى أصولها وشيوخها وعلاقتها التاريخية بالمغرب والسنغال. وقد تضمن هذا الفصل علاوة على ذلك عددا من الملاحق وعددها (3).

4- ملاحظات حول الترجمة :

أما بخصوص هذه الترجمة فقد انطلقنا فيها من مبدأ الوفاء الكامل للنص في شكله ومضمونه كلما كان ذلك ممكنا . أما في حالة التعارض بين الشكل والمضمون في اللغتين فإننا نرجح المضمون في أغلب الأحيان مع الاحتفاظ بالشكل في الهامش توخيا للدقة والأمانة العلمية . وقد دفعنا السعي إلى وضوح الفكرة إلى إكمال النص في حالات نادرة جدا ببعض الكلمات التي نرى أنها ضرورية مع وضعها بين مجالين [ ]. وقد نعمد في بعض الأحيان إلى ذكر مفعول الأفعال المتعدية في اللغة العربية والتي هي في الأصل لازمة في اللغة الفرنسية.

أما الهوامش فهي قسمان هامش أصلي لا توجد معه إشارة توضيحية وهامش أضفناه نحن من عندنا للتوضيح ونشفعه دائما بعبارة (المترجم).

أما بخصوص أسماء الأماكن والأعلام والآبار فكنا دائما نضع التسمية الصحيحة كما تنطق محليا خاصة وأن اللغة الفرنسية غير قادرة في بعض الأحيان على رسمها بدقة.

وقد قمنا كذلك بتكملة بعض أسماء الأعلام والكتب التي يشير إليها المؤلف اختصارا وهي عادة الموريتانيين .

و لا نربأ بأنفسنا عن الوقوع في التقصير في هذا الجانب أو ذاك فلا يوجد مجال يأمن فيه المرء من الوقوع فيما قل من أخطاء .

****

وفي الأخير نشكر كل من ساهم من قريب أو بعيد في هذا العمل وأخص بالذكر الأستاذ محمد محمود ولد ودادي الذي جعل مكتبته عامة وموسوعة بول مارتي خاصة تحت تصرفنا.

والأستاذ الفقيه الدكتور محمد يحي بن حبيب الله الذي تفضل مشكورا بمراجعة أسماء الأعلام والكتب الفقهية.

والدكتور حماه الله ولد السالم على مراجعته للمادة التاريخية وأسماء القبائل والأماكن.

طرابلس 1-1-9009

الفصل الأول

الشيخ سيديا و طريقته

مقدمة:

تبدو منطقة الترارزة الموريتانية، بمثابة المركز الديني للمستعمرة، كما تبدو أيضا باعتبارها قلبها النابض من الناحية السياسية . ويجب أن نشير أيضا، بالإضافة إلى الشيخ سعد بوه زعيم الطريقة الفاضلية المحلية وفرع إداو علي، الذي يعد بؤرة الطريقة التجانية الموريتانية اللذين قمنا بدراستهما سابقا[1] ؛ إلى أحد الفروع المهمة للطريقة القادرية، الفرع الذي يعد الشيخ سيديا زعيمه المبجل والمعترف به. ويعيش الشيخ سيديا حاليا[2] في أبي تلميت (وهو مركز دائرة الترارزة) وسط قبيلة أولاد ابييري وهي إحدى قبائل الزوايا[3]، التي ازداد حجمها بفضل تلاميذها. وقد ترك الشيخ سيديا – الذي كرس نفسه للزعامة الدينية وحدها– السلطة الإدارية لأخيه سيدي المختار.

---

[1] لا ندري إن كانت هذه الإشارة دالة على قلب نظام الفصول كما وردت في هذا الكتاب، الـذي هـو في الأصل مجموعة مقالات كتبها المؤلف في فترات متفاوتة في "مجلة العالم الإسلامي"، وهو ما يعني تأخر الجـزء المتعلق بالشيخ سيديا – الأول في هذا الكتاب– من الناحية الزمنية عن الجزئين الآخرين وهو ما نرجحه ؛ أم أن للمؤلف دراسات أخرى عن الفاضلية وإيداو علي في مكان آخر (المترجم).

[2] في الربع الأول من القرن العشرين (المترجم).

[3] الزوايا تسمية أطلقها المؤرخون على القبائل الموريتانية التي اشتغلت بالعلم والمعرفة في مقابل القبائل الحسانية المحاربة التي اشتغلت بالسلاح والحرب. وقد أصبحت هذه القسمة الثنائية للمجتمع الموريتاني إلى حسان وزوايا أحد الثوابت في التاريخ الموريتاني وهي كما يقول المؤرخون إحدى نتائج الحرب التي دارت رحاها في القـرن السابع عشر بين المغافرة وهم من بني معقل وتكتل تشمشة وهو تكتل يتكون من خمس قبائل صنهاجية مخلسة آلت فيها الغلبة للقبائل العربية الوافدة رغم قلة العدد. (المترجم).

أولا- أصوله:

على النقيض من معظم مشايخ البلد، الذين يقدمون أنسابا كاملة لا تشوبها شائبة وترتقى بشكل صحيح تقريبا إلى النبي (ص) أو إلى أحد أفراد آل بيته أو قبيلته، نجد أن الشيخ سيديا يتسم بالتواضع الكامل في هذه المسألة.

وهذه هي شجرة نسبه:

محم

↓

محمد

↓

انتشايت

↓

أبو بكر

↓

أحمد دولة

↓

الهيبة

↓

المختار

↓

الشيخ سيديا الكبير (المتوفى سنة 1869م)

↓

سيدي محمد الخليفة (المتوفى سنة 1870م)

↓

الشيخ سيديا

ولا نعرف شيئا فيما وراء ذلك، بل إن محم ولد محنض يعترف بتواضع بأنه ينحدر من قبيلة تندغة (إحدى قبائل الزوايا بمنطقة الترارزة). ويعد ابنه انتشايت الجد الحقيقي الذي نشأت منه العشيرة التي تحمل اسمه الآن. والحال أن قبيلة انتشايت قد ارتبطت منذ قرون بعشائر أولاد ابييري واكتسبت طريقة عيشها وأصبحت منذ ذلك الحين جزءا لا يتجزأ منها.

وقد هاجر محمد ولد محم حوالي نهاية القرن السابع عشر إثر خصومات داخلية مع أبناء عمومته أهل أبجة من قبيلته الأصلية تندغة واستقر به المقام لدى جيرانها أولاد ابييرى وتوفي فيهم بعد ذلك بوقت قصير مخلفا ابنه انتشايت الذي استقر هناك وأخذ الثأر لأبيه من المعاملة السيئة التي كان عرضة لها على أيدي تندغة.

تزوج من ابنة مرابط مكة وأنجب ذرية منها. ولم تكن لذرية انتشايت وصولا إلى الشيخ سيديا الكبير أهمية تذكر على حد تعبير الشيخ نفسه.ثم تنوعت التحالفات بين انتشايت وأولاد ابييري على مر الأجيال وبذلك اكتسبت انتشايت حق المواطنة في قبيلة أولاد ابييري. لكن ذلك لم يخل في الوقت الراهن من وجود شعور بالغيرة لدى أولاد ابييري من الثراء السريع لقبيلة انتشايت الذي يعود في الآن نفسه إلى تواجد الشيخ بين ظهرانيهم، وإلى كثرة القوافل التي جعلهم الفرنسيون يسيرونها.

ويحدث في بعض الأحيان أن يوجه أولاد ابييري بعض السباب إلى خصومهم انتشايت ومنها العبارة غير الأخلاقية التي تصفهم بأنهم "القطاء" إلا أن تلك الغيرة لا تظهر علنا.

وقد أصبح الشيخ سيديا الكبير بعبقريته وعلمه وورعه المؤسس الحقيقي للطريقة وباني مجد القبيلة وسؤددها،ومهندس نجاح أسرته.

و استطاع بدوره أن يقول مع الشاعر العربي:

أنا لا أدين بشهرتي لقومي بل هم مدينون لي بمجدهم

لقد هذبت نفسي بنفسي، ولا أسلاف لي.

ولد الشيخ سيديا الكبير حوالي 1780م، تعلم في أسرته وتلقى دروسه الابتدائية على يدها.وكما كانت تقضي بذلك تقاليد مجتمع البيظان فقد ذهب لمواصلة دراسته خارج القبيلة أولا لدى إيداو علي الترارزة ،حيث درس التوحيد وتفسير القرآن طيلة سبع سنوات لدى أهل حرمة ولد عبد الجليل في أحيائهم المتنقلة بين الجرارية وتين بوي علي.ثم انتقل بعد ذلك إلى قبيلة اجيجبة في منطقة البراكنة حيث درس الشريعة والنحو طيلة أربع سنوات على يد حبيب الله ولد القاضي عند ساقيتي بوطلحاية وإغجكل.ثم واصل دراساته العليا في تگانت وتشيت حيث كان يعلم ويتعلم في الآن نفسه لمدة سنة خلال عام 1809م.وفي سنة 1810م وصل إلى ولاته وسرعان ما اجتذبته الشهرة العالمية للعلامة الكبير الشيخ سيدي المختار الكنتي فانتقل إليه لإتمام دراساته وللحصول على شيء من بركته.

إلا أن العلامة الشيخ سيدي المختار توفي بعد ذلك بخمسة أشهر في عام 1811م مخلفا خمسة أبناء، فتولى أصغرهم سنا وهو سيدي محمد خلافته من بعده. وقد واصل الشيخ سيديا طيلة خمسة عشر عاما دروس أساتذته الكنتيين، وأخذ طريق العودة إلى موطنه ابتداءا من سنة 1826م بعد أن أكمل تعليمه وانخرط في طريقة أساتذته وهي القادرية البكائية. وحصل على الإجازة وهي مقدم الطريقة في المناطق الصحروابة الغربية. لكنه ما كاد يغادر المكان حتى سمع بوفاة الشيخ سيدي محمد في الثاني عشر من مايو سنة 1826م فعاد أدراجه مسرعا وشارك مخيمات الفقيد العزاء والصلاة عليه،وكان يوجد بها يومئذ النقيب الإنجليزي [جوردن لينغ (J.Laing)]. ثم عاد إلى قبيلته أولاد ابييري بشكل نهائي في مطلع سنة 1827م.

وكان الشيخ سيديا كثير الأسفار،ولم يعد إلى قومه إلا بعد أن بلغ السابعة والأربعين من عمره. لكنه عاد متوجا بالعلم والبركة من طرف شيخين كبيرين من مشايخ كنتة، وأصبح هو نفسه رجلا صالحا وشيخا عالما. وعاش بعد ذلك أربعين عاما قضاها، باستثناء المدة التي استغرقها

أسفاره، في تعليم عدد لا حصر له من التلاميذ، وفي تأسيس طريقته ونشرها. توفي سنة 1869 م عن عمر بلغ 90 عاما (وهو ما يساوي 93 سنة قمرية)، في نفس السنة التي توفي فيها الشيخ محمد فاضل في الحوض.دفن في تندوجه،وهي ساقية تقع على بعد مسيرة يومين شمال أبي تلميت، وبنى عليه أتباعه ضريحا سرعان ما تحول إلى مزار يؤمه الناس.

****

وقد أظهر الشيخ سيديا الكبير شأنه شأن كل المشايخ الموريتانيين الذين أصبحت القدرة على إظهار الكرامات دليلا ضروريا على صلاحهم، الكثير من الكرامات. ونذكر فيما يلي بعضا منها على سبيل المثال:

فقد ذهب المشرف على أمواله علي الزوازيل، زعيم قبيلة أولاد أحمد سابقا، يوما إلى دمغة (Damga) في السنغال لشراء الحبوب على رأس عير مكونة من 300 بعير منها 100 بعير لأولاد ابييري، و200 لغيرهم. فوجد نفسه وقد حاصرته سيول الفيضانات في السنغال. وكانت منطقة الفيضانات ممتدة على طول منطقة شمامه على مدى يزيد عرضه على 20 كيلومترا. ولم يقبل الزنج بمساعدة علي إلا بشرط أن يتخلى لهم عن نصف العير. فرفض علي بطبيعة الحال،وقرر مع ذلك المضي قدما في طريقه معتمدا على بركة الشيخ.

وفي الصباح حضّر العير التي لم تعد تتكون إلا من أولاد ابييري وحدهم للانطلاق، وكان هو على مقدمتها يقود الجمل (بوخشم)، وهو الجمل المفضل عند الشيخ، ووضع عصاه على كتفيه واندفع بإقدام إلى الأمام مستغيثا بشيخه قائلا "يا الشيخ سيديا،هذه عيرك وذا بعيرك قادمان إليك ! ". وهكذا اقتحمت القافلة المياه حتى وصلت إلى أقصى حدود منطقة الفيضان دون أن تتعرض لأي ضرر. وعندما وصلت العير حي

الشيخ،الذي كان يعرف عن بعد ما حدث لها،المشرف على أمواله بهذه العبارات: "لا تقصص لأحد ما شاهدته في الطريق " !.

وذات يوم بعثوا برجل إلى الماء يدعى شويخ القَرَبْ فأدلى دوله ليسحب الماء لضيوفه من بئر الملحس التي يصل عمقها خمسين مترا تقريبا بمساعدة أمة سوداء صغيرة فانقطع الحبل وسقط الدلو في قاع البئر . فقرر الشويخ النـــزول إلى قاع البئر لاستخراجه، فربط طرف الحبل في عنق البكرة ولف الطرف الآخر حول جسمه وأمر الأمة الصغيرة بالإمساك بالحبل وتسريحه بالتدريج .

لكنه ما كاد يلج البئر بمقدار ذراعين حتى تملص الحبل من يد الأمة الصغيرة التي لم تستطع تحمل ذلك الثقل المتزايد فسقط الرجل في قاع البئر مطلقا صرخة استغاثة عظيمة قائلا : "الشيخ سيديا ! " فوجد نفسه في بركة الماء و لم يصبه أي أذى فالتقط دلوه و لم يتكلف عناء الصعود عن طريق الحمير التي تسيرها الأمة الصغيرة. وهكذا أنقذته بركة الشيخ.

وقد امتدت بركة الشيخ سيديا الكبير لتعم جميع الناس. ويحكى أن امرأة هلكت وخلفت وراءها طفلا رضيعا لم يقبل بالرضاعة من أي من المرضعات اللاتي تقدمن له . فحملوه إلى الشيخ فوضع إصبعه في فمه فرضع الطفل حتى ارتوى،وتكررت العملية مرات عدة .

وقد شفى الشيخ الكثير من عبيده عن بعدما استغاثوا به إثر بعض الحوادث التي ألمت بهم كالكسور في بعض الأعضاء الناجمة عن ركل الإبل،والسقوط الشديد وغيرها.

كان ابنه الذي سماه الشيخ سيدي محمد تيمناً بأستاذه الكنتي القديم الشيخ سيدي محمد ولد الشيخ سيدي المختار الكبير،ينوب عنه في السنوات الأخيرة من حياته. ثم خلفه بصفته شيخا للطريقة وتوفي في السنة التي تلت وفاته سنة 1870م ولما يبلغ الأربعين عاما من عمره فدفن في تندوجه، مقبرة العائلة التي يوجد بها الآن، إضافة إلى الشيخين المذكورين،

ضريحا أخوين غير شقيقين للشيخ سيديا الكبير، كما يوجد بها ضريحا خالي سيد محمد وهما المصطفى ولد علي ومحمد ولد علي،كما يوجد بها ضريح فاطمة بنت الشيخ سيدي محمد الخليفة،أي أخت الشيخ سيديا الحالي .

أما من الناحية الروحية فإن طريقة الشيخ سيديا تشكل مجرد رافد من روافد الطريقة القادرية البكائية، فلا شيء يميزها سواءا في الأوراد أو في السلسلة الروحية عن الطريقة التي نشرتها كنتة في غرب إفريقيا. وقد عرضنا تلك السلسة و الأوراد في الملاحق [4].

وقد أُخذت تلك السلسلة والأوراد عن الفقيه أحمد ولد المختار فال الذي دونها بعد أن أملاها عليه الشيخ سيديا نفسه.

وتقدم السلسلة الروحية خاصة، انطلاقا من الشيخ سيدي محمد المتوفى سنة 1826م بعض المعلومات الجديدة حول الخلافة الروحية والصوفية بين مشايخ الطريقة البكائية التي توجد في الوقت الراهن بعض الخلافات بشأنها. وتتفق هذه السلسلة في كل المسائل مع السلسلة التي بسطها الشيخ سيدي محمد ولد الشيخ سيدي المختار في كتابه "الطرائف والتلائد" والتي يبدو أنها نهائية.

ثانيا– الشيخ سيديا:

1– شخصيته:

ولد الشيخ سيديا باباحوالي سنة 1862 م. توفي والده ولما يصل إلى الثامنة من عمره. وكان قد بدأ تعلم القرآن على والده، وأكمل حفظه على أحد الشرفاء المغاربة (من آل البيت) هو مولاي امحمد الذي استقر في قبيلة أولاد ابيري إلا أن هذا الشريف توفي في أحد أسفاره إلى منطقة

[4] انظر الملاحق:الملحق [1] والملحق[2].

آدرار لدى قبيلة أولاد يحيى بن عثمان إثر تعرضه لرصاصة طائشة أطلقها أحد عبيد الأمير سيد أحمد بن أحمد عيدّه. وقد شرع سيديا بابا بعد حفظ القرآن في دراسة العلوم الإسلامية بصحبة كبار تلاميذ أبيه الذين لا يزال أحدهم فقط الآن [5] على قيد الحياة وهو محمد بن داداه قاضي أولاد ابييري. ويروى الناس أنه عندما وصل ذلك الحد من العلم "كان يضاهي بل ويفوق أساتذته" فكان عليه أن يواصل تعليمه بنفسه. وفي الواقع فإن الشيخ سيديا، الذي هو مثقف حقيقي، لم يتوقف أبدا عن العمل. فمنذ أن حصل على جملة المعارف المتوسطة التي استطاع أساتذته تزويده بها،بدأ في استكمال معارفه عن طريق شراء الكتب المطبوعة والمخطوطة ونسخه للبعض منها بنفسه،وقراءة الصحف والمجلات العربية، والحوارات مع العلماء الأجانب، والمشاهير والشيوخ، لا في مجتمع البيظان فحسب بل وفي مجتمع الزنوج أيضا. لكنه استكمل تكوينه على وجه الخصوص عن طريق الكثير من التأمل الشخصي. وقد أصبح في الوقت الراهن مفكرا في غاية الذكاء والعمق، وشدة الانفتاح وغزارة العلم، وهو بالتأكيد أحد أبرز شيوخ قبائل الزوايا.

ألف العديد من الكتب المتعلقة بالعلوم الإسلامية منها على وجه الخصوص كتاب: "مقال في العقيدة"وهو كتاب في التوحيد، و"نظم لأسماء الله الحسنى"، وكتيب صغير في الفقه في هيئة فتاوى يسمى "الأجوبة الفقهية"، وكتاب "المقلد" وهو كتاب يقع في أربعين صفحة وهو عبارة عن دراسة مقارنة للواجبات الشرعية بين مختلف المذاهب السنية، ودراسة في قواعد اللغة في طريقة النطق بحرفي الضاد والظاء والعلاقة بينهما[6]، وثلاث رسائل حول الجهاد، والهجرة من البلاد التي يحتلها النصارى، ورسالة في الأنس، وكانت هذه الرسائل —يقول الشيخ

[5] في الربع الأول من القرن العشرين (المترجم).
[6] معروضة في مجلة العالم الإسلامي،عدد يونيو،1913.

— "عرضة للتشكيك في بادئ الأمر، وجلبت لي الكثير من النقد والتجريح".

***

ومن المجازفة أن نحاول القيام حتى ببحث، نفسي حول الزعامة الروحية للشيخ سيديا.لكن مما لا شك فيه أنه لن يكون من نافل القول الإشارة إلى سمتين أساسيتين في طبعه، وإلى بعض الاتجاهات في سياسته الدينية : فقد كان الشيخ سيديا إنسانيا ومصلحا أيضا.

ففي الجانب الأول يمكن مقارنته عن طيب خاطر بأحد الأساقفة الأذكياء والمنفتحين في محكمة ليون العاشر (Leon x)، فهو مفكر فضولي، يهتم بكل شيء لا بالعلوم الإسلامية وحدها، التي أصبح معلما لها،بل بشتى مظاهر الحضارة الحديثة. فكان الفضول يحمله إلى الاهتمام البالغ بالتنظيم الداخلي لفرنسا،وبطريقة عمل السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية،وبالحياة الاجتماعية والاقتصادية وبخاصة الدينية للفرنسيين، وبعلاقاتهم بالأمم الأخرى التي كان يعرفها تمام المعرفة. كما حمله الفضول أيضا إلى الاهتمام بنشاط فرنسا في شمال إفريقيا،وبما يحدث في المغرب وليبيا ومصر وفي الشرق من أحداث، وبمنطقة إفريقيا الغربية، وبإدارة الشعوب الزنجية. وكانت هذه الموضوعات محببة إلى قلبه، وكان لا يفوت أية فرصة لتناولها في نقاشاته.

ولم يكن اهتمامه بالماضي أقل حدة . فقد كانت له اتصالات ببعض الشخصيات البيظانية أو الزنجية المهتمة بأخبار "السلف" وأعمالهم. فاهتم بالأصول التاريخية وبالبناء الاجتماعي لمجتمع البيظان. و أنجز حول هذا الموضوع بعض اللمحات الأصيلة والمعلومات المتنوعة.

وعلى الرغم من أن تلك الأفكار كلها كانت فضفاضة شيئاما، مركومة، وغير منظمة، وتفتقر إلى الدقة والوضوح في ذهنه في الكثير من المسائل، إلا أن أفكاره كانت إما صحيحة أو مهمة.

ونحن نعرف من جهة أخرى أنه يعمل ببطء في الواقع منذ عدة سنوات على تأليف كتاب حول تاريخ الجماعات في موريتانيا على الرغم من الضغط الذي مورس عليه من كل جانب. وربما كان الشيخ سيديا الوحيد في مجتمع البيظان الذي أقر بأن قبائل الزوايا كلها، والتي تفاخر بأنها قبائل عربية ذات أصول خالصة تعود إلى آل البيت أو سواهم، لم تكن في حقيقة الأمر سوى قبائل أصلية اضطرت إلى الانحناء، الذي لم يخل من مقاومة، أمام الهجمة الحسانية وبحثت، من خلال التخلي الطوعي عن سلاحها والتفرغ للعلم، عن السلم الذي لم تعد قادرة على الحفاظ عليه بحمل السلاح.

إنه في الأخير رجل محبب إلى النفس، بشوش، بعيد كل البعد عن التعصب — وهو ما يشعر به غيره ولا يخفيه هو نفسه — يؤمن بأن الخير يوجد في كل مكان، وأنه إذا كان الإسلام يحتكر الحقيقة الدينية، فإن الديانات الأخرى السماوية بطبيعة الحال : وهي المسيحية واليهودية، شديدة القرب منه، وفي مقدورها أن ترشد الناس إلى الفضائل العظيمة والورع الشديد. وفي الأخير وبما أن الحضارة المسيحية تجاوزت في الكثير من المسائل الحضارة الإسلامية، فإن من مصلحة هذه الأخيرة أن تتعلم منها[7].

فهل من الشطط عندئذ أن نقرن اسم الشيخ سيديا بصفة الإنساني ؟ خاصة وأننا غالبا ما نجد لدى هؤلاء العلماء المسلمين نوعا من الشك في أن ملكوت الله على الأرض يجب أن يظهر في نوع من السيطرة المادية، وبالتالي فهم يبذلون جهدهم، بحسن نية بطبيعة الحال،للتوفيق بين "مقتضيات الدين وضرورات العصر" ؟

[7] هنا تبدو بعض الومضات ذات الطابع الاستشراقي والتي لا تخلو من نظرة استعلائية مبطنة لدى المؤلف بول مارتي. وكان يتعين هنا الإشارة إلى الجوانب التي يظهر فيها تفوق ما أسماه بـ "الحضارة المسيحية" على الحضارة العربية الإسلامية. و من جهة أخرى لا يستقيم هذا الخلط المتعمد بين المسيحية وبين التقدم التقني، المادي الذي أحرزته الحضارة الغربية الصناعية الحديثة (المترجم).

لقد ولّد السمو الخلقي لطبعه، والمفاسد التي رآها تحدث من حوله ميولا إلى نوع من الإصلاح الديني. لكن يجب علينا أن نوضح هذه المسألة إذ لا يتعلق الأمر هنا بالبدعة (coupable innovation) في العقيدة، أو في الثقافة التي يرفضها العلماء المسلمون بشدة. فالشيخ لا يتعرض للثوابت في مجال التوحيد. فمآخذه وطموحاته لا تتجاوز إصلاح المنهج فهو ينتقد بعبارات قاسية أساليب البحث التي تعاني من الغلو والتي يرى أن جيرانه من المشايخ يستخدمونها بكثرة في بلاد السودان .

وهو يقر من حيث المبدأ بأن الفقيه يجب أن يعيش من صنعته لا أن يستغلها لمصلحته، بل كان يقف "بازدراء في وجه الرعاة المدعوين إلى رعي قطيعهم والسهر عليه لا إلى قص وبره" (*non alligabis os bovi triturantti*). فهو يرفض تلك الطرق القائمة على الاتجار بالدين، والتي تكمن في إعلان بعض المشايخ عن أنهم "أولياء" و"أقطاب" من خلال زمرة من المتنفعين، وبيع بركتهم بالتقسيط للزنوج الخرافيين .

فما الذي يتبقى بعد تلك الجولات التي كان يقوم بها أولئك المشايخ لجمع الهبات والاتجار بالنفوذ،ومن تلك الجولات الدينية التي يتم فيها استغلال الهوس الصوفي الذي يرين على قرية معينة ليسلبها كل ما ادخرته من قوت لعام كامل وسائر خيراتها التي جمعتها بشق الأنفس ؟ ويخلص إلى القول : <<إن الأفارقة الزنوج يزعمون بأنهم مسلمون، ويعتقدون أنهم كذلك، إلا أن أغلبهم ليست لديه أدنى فكرة عن التعاليم الدينية، ولا يراعي أخلاق الإسلام ولا واجباته ولا شريعته، ونحن البيظان – وهو يشير بذلك دون شك إلى الشيخ سعد بوه – هم المسؤولون عن ذلك>>.

ومن هنا نرى أن هذه النزعات التجديدية ، التي لا تتعلق إلا بطريقة نشر الإسلام، لا تهدف إلى شيء أكثر من جعل نشر الإسلام بين الزنوج الأفارقة أكثر فاعلية، وتحويل إيمانهم الخرافي بالإسلام إلى إيمان قوي وممارسة قويمة.

وقد أحس الشيخ بكل ما تنطوي عليه الحالة الدينية لأتباع الرسول [8] من الزنوج الأفارقة من زيف،وكان يدرك بأن عاصفة سياسية أو تكنولوجية قوية، أو مجرد تطور اقتصادي قد يجعلهم ينتكسون إلى ديانتهم الوثنية القديمة، ولم يكن يجهل ذلك بعد أن حصل بالفعل مرة واحدة على الأقل للجماعات السنغالية.

وصفوة القول هي أن هذه الإصلاحات قد ظلت على مستوى الميول لدى الشيخ، وكانت موضوع حواراته ودعوته، لكنها لم تعرف أبدا طريقها إلى التطبيق، ولم يجد الشيخ سيديا وما كان له أن يجد في مجتمع البيظان المحتاج، اللجوج، تلك الكتيبة من الدعاة المتحمسين والمترفعين الضرورية للاضطلاع بالمهمة الجسيمة التي كان ينوى القيام بها. ولئن كان الشيخ سيديا يحرص شخصيا على الابتعاد عن تلك التصرفات المشينة التي يعيبها، فإنه قد سمح لأهله وأتباعه بممارستها. ويجب الإقرار بأن أهم تلاميذه من الزنوج،وهو أحمدُ بمبا — الذي أصبح الزعيم الروحي للطريقة المريدية السنغالية- لم يعر كبير اهتمام لهذا الجزء من الميول الإصلاحية الضعيفة لأستاذه القديم.

***

ولم يكن في مقدور الشيخ سيديا أن يصبح شيخا بيظانيا لو لم تحدث على يديه بعض الكرامات. لكننا نجد تكتمه المعهود في هذه المسألة. فنراه يلعب دور الممثل والوسيط للانتقام الإلهي "التزبّة" ضد بني حسان الغاصبين أكثر من دور المهرج بالمعنى الدقيق للكلمة.

وقد أصبح الانتقام الإلهي اختصاصا له : وسنذكر الكثير من تلك الحالات التي يقتص الله له فيها من خصومه.

[8] وهذه أيضا هي إحدى العبارات الشائعة لدى المستشرقين وهم يفضلون استخدامها على عبارة "المســلمين" لأن العبارة الأولى تتضمن درجة معينة من التشكيك في صدقية الدعوة المحمدية (المترجم).

فقد قام ابراهيم سالم[9] ابن الأمير محمد الحبيب ووالد الأمير الحالي أحمد سالم الثالث يوما بالاستيلاء على إبل الشيخ. فذهب هذا الأخير في طلبه فلما جاءه طلب منه إعادتها عارضا عليه صفقة معينة فوافق إبراهيم في نهاية المطاف لكنه حلف بألا تتكرر الحادثة أبدا،وأنه لن يعيد في المستقبل الإبل المنهوبة،فرد عليه الشيخ قائلا: (حسنا،لن تعيدها لكن اعلم من جهة أخرى أنك لن تأخذ بعدها إبلا أخرى أبدا) . وبعد يومين بالفعل اغتيل ابراهيم غدرا على يد ابن عمه محمد فال ولد سيدي الذي باغته هو وشقيقيه لبّات والأفحح عند ساقية إدينيش بأمر من شقيقهم الأمير علي جنبت.

وقد حدث أيضا في وقت كان في المختار ولد محمد ولد سيد احمد زعيما لقبيلة أولاد دمان أن قامت سرية من هذه القبيلة الحسانية بنهب إبل أتباع الشيخ. وكان ذلك عند الغروب ورجعوا بأقصى سرعتهم إلى أحيائهم لتفادي مساعي الشيخ، الذي أرغمهم بدعائه وتضرعه على إعادة جزء من الغنيمة. بيد أنهم ضلوا طريقهم وهم العارفون بمسالك الصحراء[10]، وظنوا أنهم في طريقهم إلى مخيمهم فوجدوا أنفسهم في الصباح عند مخيم الشيخ نفسه،فأحسوا بالندم أمام هذه الكرامة، وأعادوا المواشي المنهوبة إلى أصحابها وتابوا إلى الله.

وذات يوم كان الشيخ سيديا في معركة مع قبيلة إجيجبة فألقى على أعدائه حفنة من الرمل فلاذوا بالفرار.

ولنختم بهذه الحادثة التي حدثت مؤخرا. فقد هرب سيدي وولد الديد ابني محمد فال بعيد اغتيالهما لأمير الترارزة أحمد سالم الثاني سنة 1905م، وأخذا معهما بعضا من إبل الشيخ، الذي يدينان له رغم ذلك بحياتهما

[9] الألقاب التي يوردها المؤلف هي ابراهيم "سالوم" وأحمد "سالوم" ولا ندري إن كان هذا خطأ في كتابة الاسم أم هو نسبة الأمراء إلى الأماكن أو إلى نسبهم من جهة الأم وهو ما نجده بالنسبة للأمير علي جنبت ابنة أمير مملكة والو الزنجية على سبيل المثال.وتجدر الإشارة إلى أن سالوم توجد أيضا بالسنغال (المترجم)

[10] في النص قصاص الأثر في الصحراء (المترجم).

وتعليمها. فقال الشيخ سيديا: << لن ترجعا أبدا إلى هنا إلا بعد أن تقعا في يدي وتتعرضا للمذلة >>. وقد حدثت تلك الواقعة بالفعل بشقيها فقد استسلم ولد الديد في نهاية المطاف عام 1910 م بوساطة الشيخ سيديا. أما سيدي فلا يزال حتى الآن منشقا، وإذا ما نجحت المفاوضات التي تجرى حاليا،فإنه سيستسلم بدوره على يد الشيخ.

***

ولم يكن الشيخ سيديا كثير الأسفار خارج منطقة الترارزة. فقد زار [العاصمة] سنت لويس Saint-Louis مرتين أو ثلاث مرات، وزار داكار مـرة واحدة بمناسبة زيارة وزير المستعمرات السيـد مليز لاكروا Mlliès-Lacroix لها سنة 1908م. وعلى الرغم مما عبر عنه غالبا من نية في الحج إلى بيت الله الحرام، إلا أنه لم يكن لديه أبدا من العزيمة ما يمكنه من أن يتخذ قرار الحج ويسلك طريقه، وربما يعود ذلك إلى الهموم المتنوعة التي سببتها له صراعات أولاد ابييري مع قبيلتي إجيجبة وأولاد بالسبع.

ويمكننا القول بأن الشيخ سيديا، الذي ورث وضعا قائما،وهو المفكر المتزن وعدو المغامرات،قد تمتع بحياة أكثر هدوءا واجتهادا في التحصيل والمعرفة مما يمكن لشيخ صحراوي أن يحلم به.

أما من الناحية البدنية فإن الشيخ سيديا كان طويل القامة، جميلا، ذا لحية وشعر أبيض،أقرب إلى البدانة وضعف البنية، وقد زادهما انعدام التمارين الرياضية، والموضة التي تتفاخر بها قبائل الزوايا. وكان على خلاف البيظان الذين يلبسون عادة القماش الغيني الأزرق يرتدي زي زعيم الطريقة وهو عبارة عن لباس أبيض من رأسه حتى قدميه مكوّن من سروال أبيض وقميصين كبيرين فضفاضين (لباس يسمى محليا بـ"الدراعة") شبيه بالجلابية الجزائرية، ورداء أبيض من القطن (يسمى محليا بـ "الحولي") وهو يحل محل القلنسوة غير المعروفة تقريبا في

موريتانيا[1]، يلف حول الرأس بحيث لا يظهر منه سوى الجبهة والأنف والعينان. وكان حينما ينوى القدوم إلى المركز العسكري بأبي تلميت أو الخروج من المخيم يحتذي،للركوب على ناقته أو فرسه، خفين أصفرين من صناعة مغربية من نوع تقليدي يرتديه القواد العسكريون والزعماء الدينيون في بلدان شمال إفريقيا .

2- مخيمه:

يوجد مخيم الشيخ سيديا في أبي تلميت (وتعني مكان العشب الناعم) على بعد 1500 متر إلى الشرق من المركز العسكري. وكان هناك منخفض عريض (القود) يفصل بين الكثيبين الرمليين الذين بنيت فوقهما على التوالي المباني التي تمثل مقر دائرة الترارزة ومخيم الشيخ سيديا. وكان مخيم الشيخ سيديا يضم على الأقل مائة خيمة تنتشر بشكل عشوائي على عرض مساحة الكثيب للاحتماء إما من تدفق الأتربة أو من الهيارات التربة، أو غابات الأشجار الصغيرة وشجيرات التمر الهندي .

وتتنوع أشكال تلك الخيم وموادها المصنوعة منها.وقد صنع الجزء الأكبر منها ،وفقا لحاجة مجتمع البيظان، من مزيج من وبر الإبل والغنم. إلا أن الكثير من خيام التلاميذ الفقراء كانت تصنع من القماش الغيني الأزرق. ويمكن أيضا مشاهدة بعض الخيام الجميلة المصنوعة من القماش الفرنسي الأبيض [يسمى محليا "ملكان"] وتبدو شديدة الشبه بالخيمة العسكرية الكبيرة المستعملة في شمال إفريقيا والتي يطلق عليها إسم "الخيمة" (marabout).وترتفع تلك الخيام على مساحة معينة بحسب عادة القبائل الموريتانية وتحاط بالستائر المعروفة. ولم تكن توجد بالمخيم إلى ذلك الحين الخيمة المغربية المعروفة باسم (الطراحية terrahia) المشهورة بفتحاتها، باستثناء تلك التي أدخلها كبار المشايخ سواءا كانت هدية حصلوا عليها من الحكومة العلوية المغربية أو اشتروها بمالهم. وكان مخيم

[1] والأصح هو القول بأنها غير معروفة في المجتمع العربي في موريتانيا (مجتمع البيظان) لكنها مألوفة لدى مختلف القوميات الزنجية في البلد (المترجم).

الشيخ سيديا يحتوى على اثنتين منها حاله حال مخيمي الشيخ سعد بوه والشيخ أحمدُ بن سليمان شيخ قبيلة أولاد ديمان.

وتتكون إقامة الشيخ سيديا من ثلاث خيم جميلة وواسعة صنعت اثنتان منها من خليط من وبر الإبل والغنم، وهي بيت زوجاته وأبنائه الصغار دون سن الرشد وإمائه. أما الثالثة فقد صنعت من القماش الأبيض ويستعملها سكنا شخصيا له، ومكتبة وقاعة استقبال. أما بناته الكبريات والمتزوجات، وكذا أصهاره، وكبار تلاميذه المقربين منه، فيوجد كل منهم في خيمته أو خيمه.

أما أثاث بيت الشيخ سيديا فهو الأثاث المعروف في كل الخيم البيظانية: حصائر،صناديق، وحقائب وأوعية،وأسرّة ذات أرجل للملابس [وغيرها] ومضاجع من الجلد، وأغطية مصنوعة من الجلد تسمى محليا بـــ "الفارو"، وفي الأخير أدوات المطبخ المعروفة. ويمكننا علاوة على ذلك أن نشاهد في خيمة الاستقبال بعض الزرابي والأرائك المصنوعة من الجلد والكراسي الطويلة التي لا نجدها في باقي الخيم .

وعادة ما يستقر المخيم في مكان واحد لكن لبضع سنوات فقط. ويوجد مخيم الشيخ سيديا الذي كان يوجد في الماضي في حظيرة مسورة (حوش) في تندوجة وفي تامرزقيت (المكان المبارك) وفي الملحس، وفي تيدي مولين، وفي الميمون (المكان المحظوظ)، وفي الذراع الأبيض، وفي آجوير، وعلب آدرس، منذ تسع سنوات في أبي تلميت. ويبدو أن الحدث الأخير لاستقرار الفرنسيين قد شجعه على البقاء بالقرب من المركز العسكري. إلا أن المخيم لم يكن يستقر في مكان واحد : فهو يتنقل كل شهرين تقريبا عندما يظهر روث الماشية وإضرار الطفيليات بأصحابها أن المكان لم يعد صالحا، فيطوي أمتعته ويستقر في مكان مجاور على بعد خمسمائة متر، ويترك للشمس والعواصف الرملية والأعشاب مهمة تطهير المكان وهذا لا يسمى "رحيلا" بل تغيير المكان أو "تبديل المراح". وقد ظلت قطعان

الماشية ورعاتها وقسم من ملاكها خاضعين لقوانين الانتجاع الموريتانية. ففي كل عام تسارع قطعان الإبل والغنم والماعز مع مخيمات الانتجاع الصغيرة، عند قدوم موسم الأمطار في بداية فصل الخريف عند الموريتانيين وهو منتصف شهر أغسطس(المعروف محليا باسم "تودجي")، إلى الأماكن التي يوجد فيها الكلأ والعشب. وهذه الأماكن بالنسبة إلى أهل الشيخ سيديا ،كما هو الشأن بالنسبة إلى مجموع أولاد ابييري، هي مناطق آوكار وآمشتيل، وآغان شمالي منطقة الترارزة، و لا يعودون منها إلا مع بداية فصل الصيف في منتصف شهر مايو عندما تكون الحشائش قد تلاشت إثر سقوط الأمطار. ولا يبقى بالقرب من الآبار الموجودة في الجنوب سوى الأبقار وقطيعين أو ثلاثة من الغنم والماعز : فلا يمكن للأبقار بالفعل الاستغناء عن الشرب حتى عندما يكون العشب أخضر ورطبا. أما فيما يتعلق برؤوس الغنم والماعز القليلة التي تتخلف عن الركب، فإنها تشكل مخزونا من اللحم الطازج في متناول المخيم .

وقد بلغت الثروة الحيوانية لدى عائلة الشيخ سيديا وسيدي المختار في إحصاء أغسطس عام 1910م ما يلي: 300 رأس من الإبل، 380 رأس من البقر،105 من العجول، و4500 رأس من الغنم والماعز، و40 من الحمير ونصفها من الخيول .

وكان التزود بالماء وسقي المواشي يتمان عند ساقية أبي تلميت. وكان الشيخ سيديا قد أعدها بعناية منذ سنوات في نفس الفترة التي بنى فيها إلى جوارها في منطقة القود ذاتها قلعة مربعة صغيرة تحتوى على غرف متوازية. وقد استعمل تلك القلعة لسنوات عدة، مخزنا للحبوب والكتب، وعند قدوم الفرنسيين جعلها تحت تصرفهم. وقد ظلت تلك القلـــعة (Casba) مشتركة نوعا ما رغم أن المركز العسكري قد بني في تلك الفترة.ويمكن أن نرى فيها على السواء تعايش ضباط الصف الفرنسيين المقيمين فيها في وئام تام مع تلاميذ الشيخ وزواره، وبعض الموظفين الذين

استعملوها محلا مؤقتا لإقامتهم أثناء مرورهم بالمنطقة، بل كانوا يمكثون فيها لبعض الوقت. كانت تقدم فيها دروس مدرسة أبناء الشيخ الفتية بأبي تلميت. وإلى جانب القلعة بالقرب من مخيم الشيخ تنتصب التجمعات التي تكونت نتيجة للوجود الفرنسي وهي: "أدباي" أو قرية الخدم السود المحليين الصغيرة، وبيوت ممثلي القبائل، وكذا الحدائق والآبار التابعة للمركز العسكري.

هكذا كان التجمع الحضري لأبي تلميت يتكون من قطبي جذب متحدين هما : المركز العسكري الفرنسي (مكاتب الدائرة ومقر المندوب السامي، والمدرسة، ومحل للتمريض، ووكالة خاصة) ؛ ومخيم الشيخ سيديا وقد ضربا معا على كثيب رملي مشكلين طوقا حول قرية الخدم وبيوت ممثلي القبائل "النواب".

وقد أعطى التدفق المتواصل دون انقطاع لقطعان الماشية التي تشرب من كل الآبار، وتردد المرضى العضويين، الاجتماعيين والعقليين جيئة وذهابا بين محل التمريض ومكتب الحاكم العسكري، وبين مكتب الحاكم العسكري وخيمة الشيخ على الدوام لهذا الربع من الصحراء حيوية كبيرة نسبيا، فاكتست أبو تلميت المدينة- القبيلة، حلة العاصمة.

أما الآبار الأخرى التي تملكها قبيلة انتشايت فهي : بئر أنتورجه (24 مترا)، وبئر الميمون (30 م)، وتندوجه (25م)، وتامرزقيت(26م)، وتيدي مولين (27م)، وبئر السيد(25م)، والشبارية (7م)، وعقلة حيمودان (5م)، والبلاطية (3م). وفي منطقة الفاي: لعقيلات (25م)، وتنواجيل [12] (25م). وكان أولاد ابييري جميعا يستعملون تلك الآبار بحسب الحاجة.أما الشيخ سيديا فكان يعيش حياة هادئة وسط قومه. وكان على الدوام يعيش تحت خيمته ولا يخرج منها أبدا إلا ليتمشى قليلا أمامها، أو ليذهب إلى المسجد ولم يكن يتجول أبدا في المخيم، ولا يتدخل في أي شأن من شؤونه.

[12] في النص نواكيل (المترجم).

وكان في بعض الأحيان يحبس نفسه أياما عديدة بل وحتى لعدة أسابيع في خيمته. ولم يكن أحد يقترب منه في تلك الفترة لا من نسائه وأولاده، ولا من بني حسان المحاربين على وجه الخصوص، باستثناء أمة عجوز كانت تأتيه بالحليب الذي يقتات منه والماء الضروري لطهارته.

وكان عندما ينوى الخروج من المخيم، يركب ناقته إذا كانت المسافة طويلة، أو فرسه إذا كانت قصيرة. وكان يرافقه ثلاثون من تلاميذه من مختلف الأعمار يتوكأ عليهم بلطف عندما يسير على قدميه ،ويشدون أزره، ويحيطون به ويعضّدونه. وتوجد هذه العادة أيضا لتكريم الأمراء وكبار الوجهاء. ولا يفارق كل هؤلاء الشيخ إلا بأمره الجازم مكرهين على الدوام. وتتكرر نفس الطقوس في مخيم الشيخ عندما يستقبل ممثلا للسلطة. ويصبح الشيخ أكثر حرية عندما يتخلص من هؤلاء الناس فيبدأ بالتدريج في تفقد شعر رأسه، وفمه ثم لحيته وقد يضحك بقوة ملء شفتيه حتى إنه ليصل أحيانا إلى حد القيام بحركات كثيرة وبخاصة إذا كان الموضوع مما يثير عاطفته.

وعندما ينهض يلف رداءه حول رأسه ويستعيد وقاره وتكلفه الذي تفرضه عليه العادات، ويسترد هيبته والضرورات التي يفرضها عليه أتباعه. وما إن يظهر على عتبة الخيمة أو القاعة حتى تتلقفه زمرة التلاميذ الذين ظلوا في انتظاره على أعقابهم. وليس المسجد بطبيعة الحال مبنى مشيدا ولا حتى خيمة، بل هو رقعة من الأرض يحافظ بعناية على نظافتها، محاطة بسور من الشجيرات المعمرة لا هي يابسة ولا هي رطبة. ويأتي الشيخ إلى المسجد، الذي يقع على بعد خطوات من خيمته، ليؤم الناسي في معظم الأحيان.

3- أسرته:

هذه هي شجرة نسب عائلة الشيخ سيديا (عشيرة انتشايت).

انتشايت

أبو بكر عيسى (جد أولاد عيسى وهم أقلية)

(1) أحمد دولة (2) الفاللي (جد اولاد الفاللي) (3) الغالي (جد أهل حبت) (3) الغالي (جد أهل حبت)

الحيبة محمدن (جد أولاد محمدن)

المختار

الشيخ سيديا الكبير داداه الطالب محمد المصطفى

المتوفى سنة 1869 م

الشيخ سيدي محمد الخليفة الداه المختار سيديا حمود أحمد سيد أحمد الشيخ ديهي سسيدي محمد

المتوفى سنة 1870 م

محمد السيد منية المختار سيديا ابراهيم الشيخ الطالب سيدي محمد

الشيخ سيديا سيدي المختار فاطمة (توفيت في صغرها)

محمد أحمد عبد الله ابراهيم اسماعيل اسحاق يعقوب محمد أحمد سيدي محمد

وقد استخدم الشيخ سيديا أبناءه الثلاثة الكبار وهم : محمد البالغ من العمر الآن 25 سنة، وأحمد الذي يبلغ من عمره 23 سنة، وعبد الله 21 سنة دعاة، وجامعي هبات في بلاد السودان (منطقة شمامة الموريتانية، والسنغال، وغامبيا، وغينيا)، وهم جميعا إما متزوجون أو زوجوا. أما الأربعة الباقون الذين حرموا، على حد تعبير الشيخ، من " مجد رسل العهد القديم وبركتهم" وهم : ابراهيم 17سنة، وإسماعيل 14سنة، وإسحاق 12سنة، ويعقوب 6 سنوات، فلم يخرجوا بعد من مخيم أبيهم، ولا يزالون يواصلون دراستهم .

وللشيخ سيديا علاوة على ذلك ست بنات هن:

أ- محجوبة : زوجة شيخنا ولد داداه ولد محمد المختار وهو من قبيلة انتشايت- أهل حبتّ. ويبلغ عمر شيخنا الآن أربعين عاما، وهو فقيه متمكن، وشيخ يمتاز بطلاوة اللسان،شديد الفطنة، ودبلوماسي في غاية الذكاء، وهو الذراع الأيمن للشيخ. وقد ترك عمه القاضي محمد المختار ذكرى طيبة لعلم واستقامة قل نظيرهما.

وقد أصبح سيخنا منذ خمسة عشر عاما وزير العلاقات الخارجية مع الأفارقة السود، وكثرت أسفاره إلى السنغال و لم تعد تحصى.

وكان على الخصوص مكلفا بزيارة المشايخ السنغاليين الثلاثة الكبار وهم : الحاج مالك سي وأبو كنتة بتيفاوان، وخاصة أحمدُ بمبا زعيم المريدية المتفرعة عن طريقة الشيخ سيديا في ديوربل.كما كان يقوم أيضا بالدعوة المكثفة لدى مجتمع البور (Bour) في سين وسالوم لحثهم على الدخول في الإسلام هم ومجتمع السرير (Sérère) فكان يزورهم بانتظام في كل عام ويقدم لهم بعض الهدايا ويحصل منهم على ضيافة كبيرة وقد راق له في نهاية الأمر وصفهم بأنهم سيصبحون قريبا حديثي العهد بالإسلام.
أما شقيقه المختار بن داداه فهو محارب ممتاز شارك بصفته قائدا لقوات الجيش الشعبي المحلي التابع لفرنسا (Goum) في العديد من العمليات العسكرية في موريتانيا وقد أبلى فيها بشكل خاص بلاءا حسنا.

ب- البتول : (وهي كنية لفاطمة) :زوجة أبي مدين ولد أحمد ولد الشيخ سليمان من قبيلة أولاد ديمان. أنجبت له العديد من الأطفال لا يزالون صغارا. وينتمي أبو مدين شقيق الشيخ سيدي محمد (الشيخ سليمان) إلى أكبر عائلة في قبيلة أولاد ديمان، وسنعرض لدوره وتأثيره فيما بعد. وقد تلقى دروسه الابتدائية هو وأخوه الأكبر لدى أولاد ديمان. التحق منذ عام 1903 م بكبولاني Coppolani ورافقه إلى "بو دفية" الذي لجا إليه الشيخ سيديا وقومه الذين كانوا آنئذ في صراع حاد مع قبيلة إجيجبة. ثم التحق بعد ذلك بالشيخ في أبي تلميت لإكمال دراساته، وتزوج ابنته البتول وهو الآن يعمل بوظيفة التدريس والدعوة.ولم يكن

لأبي مدين موقف واضح وسط أبناء الشيخ وأصهاره وأبناء إخوته، فكان يحاول شق طريقه، وكان متوسط الذكاء والعلم.

ج- ميمونة : زوجة محمد اليدالي ولد أحمد ولد محمود من قبيلة أولاد ابييري عشيرة أولاد خادجيل، وهو فقيه بارز ومشهور بعلمه.

د- زينب: أرملة سيدي ولد محمد سالم من قبيلة أولاد ابييري عشيرة أولاد خادجيل.

هـــ . و- رقية وسارة : وهما لا تزالان طفلتين.

وللشيخ سيديا زوجتان : الأولى هي فاطمة امباركه من أولاد ابييري عشيرة أهل أحمد الفاللي، وهي أم الأبناء الستة الكبار وكل البنات . وهي رفيقته الحقيقية في حياته.أما الزوجة الثانية فاطمة التي تزوجته في سن مبكرة منذ بضع سنوات فقط فهي أم الطفل الأخير: يعقوب.

أما سيدي المختار شقيق الشيخ سيديا، المعروف في شبابه بلقب "عيني" فلم يتزوج سوى زوجة واحدة تسمى محجوبة بنت الحبيب ولد المرابط وهي من قبيلة أولاد ابييري –أهل أحمد الفاللي . وقد ظل منذ أربعين عاما تقريبا ولا يزال إلى الآن الزعيم الإداري لقبيلة أولاد ابييري ضمن الظروف التي سنشرحها فيما بعد. وهو رجل شديد الذكاء، ذو ثقافة واسعة، ودود، لكنه ضعيف البنية، وهو محبوب جدا في كامل القبيلة. وكان يتنقل كثيرا بمخيمه من بئر لآخر من آبار القبيلة على الرغم من أنه غالبا ما يفضل العودة للاستقرار بمخيمه إما في ضواحي أبي تلميت على مدى يتراوح بين 8 و12 كلم، وإما عند بير موسى.ويحتوى مخيمه على عدد يتراوح بين 60 و80 بيتا تقريبا يعيش فيه مع الشيخ وأبنائه وبناته معظم أحفاده وتلاميذه المقربين. ويعيش أبناء الشيخ الثلاثة كلهم – وهم محمد 23 سنة، وأحمد 21 سنة، وسيدي محمد بو عيدة 17 سنة، وهو اسم أطلق عليه إحياءا لذكرى جده سيدي محمد الخليفة والذي كانت قد سمته أمه بدوره – وهي زوجة الشيخ سيديا الكبير بهذا الاسم المدلل في

مخيم أبيهم . وقد تزوجت أربع من بنات سيدي المختار السبع هن:فاطمة وخديجة وعائشة وزينب، رجالا من قبيلة أولاد ابييري: تزوجت خديجة من ابن عمها الشيخ عبد الله ولد الشيخ سيديا، وتزوجت أختها مريم رجلا من أولاد ديمان، أما ميمونة وسارة فلا تزالان طفلتين.

وقد توفيت فاطمة الأخت الصغرى للشيخ سيديا وسيدي المختار في سن مبكرة ودفنت مع والدها وجدها في تندوجه.

أما محمد ولد الداه ولد داداه ابن العم البعيد (الدرجة السادسة) للشيخ سيديا، وأستاذه السابق، فهو قاضي قبيلة أولاد ابييري، وهو فقيه ومتصوف مشهور، وهو شخصية لطيفة للغاية. وكان يشرف على القضاء في القبيلة مع الاعتناء الحقيقي بالاستقامة والورع. وتضرب خيامه عادة إلى جانب سيدي المختار.

ويشكل أبناء الطالب ولد المختار وأحفاده محلة وحيا من أحياء قبيلة انتشايت.أما أكبر الأبناء وهو المختار فقد توفي. أما ابنه السيد الذي اشتهر في المجتمع البيظاني بأنه شاعر شعبي و مغن فقد ذهب إلى الحج سنة 1900م بعد أن كان قد انغمس في متع الحياة في مراكش. وعاش حياته معلما في مدرسة وعندما باغته احتلال الفرنسيين لمخيم الهيبة في أغسطس عام 1912 م اضطر إلى الدخول في جوقة من المغنين مع أهالي الصحراء للحفاظ على حياته. وقد زاد قدوم الفرنسيين في تعقيد وضعه. فلم يكن الفرنسيون يحسنون التمييز،ضمن أولائك القوم الجهلة،الغدارين بطبعهم والغاصبين بدورهم،بين تلاميذ الهيبة وبين القبائل البيظانية الخاضعة لهم المشتتة في مراكش ،فألقوه في السجن.إلا أن السيد ولد المختار وأحد أقاربه وهو أحمد محمود قد أطلق سراحهما بعد مساعي الشيخ سيديا وتدخل الحاكم العام الفرنسي ورحّلا على حساب السلطات الفرنسية إلى داكار، وعادا إلى مخيمهما الأصلي.

ويعيش بقية أبناء الطالب ولد المختار مع أبنائهم في تجمع انتشايت، ويذهبون في بعض الأحيان إلى فوتا ووالو وحتى إلى كايور وباول، لممارسة التجارة وخاصة بيع الإبل. وقد كلف المختار بشكل خاص برعاية قطعان العشيرة، وهو يوجد في "قنداية" الشيخ سيديا وهم عبارة عن مخيم متنقل من الرعاة.

ويشكل أبناء المصطفى ولد محمود حيا ("فريق") من أحياء قبيلة انتشايت. وقد تخرج على يد الشيخ سيديا اثنان منهما وهما سيد احمد والشيخ ومنحهما الورد (التعاليم السرية)، ويستعملها أمناء على أسراره، ومبعوثين خاصين له.

انظر شجرة النسب أعلاه.

أ- الابن الثاني لأحمد دولة بن أبي بكر هو محمدن وهو جد أولاد محمدن .

ب- الأبناء الثلاثة الآخرون لأبي بكر ولد انتشايت وهم الفاللي، وهو جد أولاد الفاللي، وغالي، جد أهل حبت، وعبد الله، وهو جد أسرتين أو ثلاث فقط.

ج- الإبن الثاني لانتشايت هو عيسى جد أولاد عيسى، وهم قليلون.

لقد عرضنا نسب كل العشائر الحالية المنضوية تحت قبيلة انتشايت والتي يشكل مجموعها عائلة الشيخ سيديا بالمعنى الواسع للكلمة.

4- زاويته:

تتمتع الزاوية وهي المركز الثقافي والديني الذي أنشأه مخيم الشيخ سيديا، بأنها أكثر الزوايا في سائر القبائل البيظانية شهرة بالعلم والقداسة.

ومن أشهر أساتذتها:

أ- سيد المختار ولد محمد المختار، عالم من قبيلة انتشايت مشهور لدى الجميع.

ب- محمد اليدالي، من عشيرة أولاد خادجيل، عالم مشهور لدى عامة الناس لكنه كان على الأخص فقيها ونحويا فذا.

ج- أحمد ولد محمد سالم، قاضي قضاة أبي تلميت، فقيه فذ، من أولاد خادجيل.

د- محمد يحظيه بن عبد اللطيف، (وتعني كما هو واضح حفظه الله) وهو سليل أسرة من العلماء من قبيلة محنضنا الله".

هـ- محمد فال ولد أحمد فال، مفسر ونحوي محترم ، من قبيلة تندغة.

و- سيدي ولد همر، فقيه من قبيلة تاقنيت.

ز- محمد ولد الداه ولد داداه، قاضي أولاد ابييري ، وفقيه ونحوي (انظر أعلاه)، تعلم في مدرسة أهل محمد سالم، وهم إحدى عشائر الزوايا. وسنتحدث عنهم فيما يلي.

وجميع أساتذة زاوية الشيخ سيديا من البيظان.

***

وقد تلقى تلاميذ المدرسة جميعا ذكورا وإناثا، التعليم الابتدائي، أي أنهم حفظوا القرآن عن ظهر قلب، وتعلموا تجويده ورسمه . وغالبا ما كان والد التلميذ أو والدته أو أحد أخواله أو أعمامه هو من يشرف على تعليمه . ويتوقف أبناء التلاميذ وأبناء الحراطين عادة عند هذا المستوى من التعليم، في حين يواصل أبناء العصبة القبلية الأقحاح من الذكور والإناث على السواء تعليمهم.

وتتصدر العقيدة تلك التعاليم، فيدرسون أولا كتاب العقائد للسنوسي، وكتاب الإضاءات للماوري، ثم يدرسون بعد ذلك العناصر

الضرورية من الفقه (كالوضوء، والصلاة،والصوم والزكاة، والحج وغيرها). فيدرسون أولا الأحكام الشرعية والعبادات والشعائر على نحو ما، ثم بقية الفقه بالمعنى الحديث للكلمة. وبعد ذلك كتاب الأخضري، وابن عاشر، والرسالة، ويدرسون مختصر خليل، وفي الأخير تحفة ابن عاصم. إلا أن كل التلاميذ يظلون بعيدا عن الوصول إلى أولئك المؤلفين. أما فيما يتعلق بالموطأ والمدونة وكذا باقي كتب مختلف المفسرين، فإن نصوصها تدرس دون أن تكتب أو تحفظ عن ظهر قلب من طرف التلاميذ.

ومن الملاحظ أن هذا التعليم الفقهي ينتمي إلى المذهب المالكي كما هو الشأن أيضا في غرب القارة بأسره [وشمالها]. وبالإضافة إلى دراسة الفقه يشرع الطلاب في دراسة الجوانب التالية:

أ- السنة النبوية في صحيح البخاري ومسلم، وفي كتب السيوطي التي تتناول الأحاديث والتصوف.

ب- النحو : فيدرسون أولا الآجرومية (وهي عبارة عن نثر) ثم ملحة الإعراب للحريري (وهي نظم) ثم ألفية ابن مالك، وفي الأخير الشروح ومنها كتاب التسهيل.

وبعد ذلك يتلقى الطلاب النجباء أسس العلوم التالية : الخطابة، والمنطق، والأدب وبخاصة أشعار الشعراء القدامى ما قبل الإسلام (شعراء الجاهلية)، والعروض، وفن الشعر، وعلوم اللغة، والصرف، والسيرة النبوية وسير الصحابة رضوان الله عليهم. ويستطيع الطلاب بعد ذلك متابعة كل الدراسات بإرادهم وبحسب ميولهم الشخصية. فالشيخ يفضل كما يقول أن يفتح لهم آفاقا جديدة، وأن يمنحهم منهجا أكثر من أن يعلمهم شيئا ما.

***

أما التعليم الذي يقدمه الشيخ سيديا فهو التعليم العالي. ومع ذلك كان الموريتانيون يفضلون الذهاب لاستكمال دراسة الفقه لدى إحدى عشائر الزوايا وهم أهل محمد سالم. وكانت هذه العشيرة التي تنتمي في الأصل إلى قبيلة مدلش، التي تمثل منطقة تيجريت مجالها الجغرافي المعهود الذي تتنقل فيه، قد انضمت إلى الأعداء الرقيبات خلال الحملة على آدرار . وعندما عوقبت بالاستيلاء على واحاتها ومحاصيلها طلبت الخضوع للفرنسيين بوساطة محمد تقي الله ولد محمد فاضل زعيم أهل الطالب مختار- أهل العبيدي في آدرار الذي كانت تربطهم به علاقات طيبة كما هو الشأن أيضا مع ماء العينين. وعندما حصلوا على الأمان جاءوا واستقروا لدى الرقيبات الخاضعين مع محمد ولد الخليل واستسلموا للمصير ذاته.ويشكل ذلك الحي المتنقل مدرسة عليا للتعليم العالي في الفقه الإسلامي المشهور في سائر بلدان شمال إفريقيا. وكان الشيخ سيديا يرسل إليها من حين لآخر بعضا من تلاميذه. وقد يظن أن تعاليم أولئك الأساتذة، أنصار الشيخ ماء العينين سابقا موجهة ضدنا، لكننا نؤكد من نواحي عديدة — والشيخ سيديا أول من يؤكد على ذلك — أنها محايدة تماما، ولا بد بطبيعة الحال من فحص المسألة عن قرب.

***

وينحدر طلاب زاوية الشيخ سيديا من أصول مختلفة أشد الاختلاف : فمعظمهم ينحدر من تجمعه القبلي الذي يضم انتشايت، وأولاد ابييري والتلاميد[13]. إلا أن كل المناطق في موريتانيا : الترارزة (وخاصة قبائل تاقنيت، وإيدا بالحسن، وإيداو الحاج)، والبراكنة والعصابة (أمبود وكيفه)، وتگانت وآدرار، كانت تزود هذه المدرسة، التي هي بمثابة الزبون في المجال التربوي، بالأطفال والشباب.

13 "التلاميد" كلمة عامية هي تحريف لكلمة التلاميذ الفصحى، لكنها ترد في كثير من مقاطع الكتاب بمعنى مغاير وذلك من حيث مجال انطباقها ودلالتها الاجتماعية.فليس كل التلاميذ "تلاميد"،لكن كـل "التلاميـد" تلاميذ (المترجم).

ونجد فيها أيضا تمثيلا لمعظم القوميات الزنجية المسلمة في السنغال:ونذكر منها أولا وبشكل أخص:الولوف و التكرور و اللبو،لكن أيضا بعض الفلان والماندينك والسرقلة والمالنكي والبامبارا . وقد درس فيها مؤخرا محمدُ بشير ابن أحمدُ بمبا. ولا يعيش هؤلاء الطلاب مجتمعين وإنما يقوم الشيخ فور قدومهم بتوزيعهم بين مختلف الأساتذة ويبقون على اتصال بهم. ويقوم كل شيخ بتدريس جميع المواد لطلابه. ومن النادر أن يتابع أولئك الطلاب دروس شيخ آخر في الآن نفسه. فلا يوجد التخصص بين الأساتذة في المواد التي يتم تدريسها بل يوجد التخصص على مستوى مجموعات الطلاب فحسب. ويعيش الطالب عادة في المخيم الصغير لأستاذه لكنه لا يعيش في بيته ذاته بل لدى أسرة من عبيده أو أتباعه يرسله إليها.

ولا يقدم الشيخ سيديا بنفسه التعليـــم للأطـــفال عادة بل غالبا ما يُأتى بهم إليه ليمتحنهم. وكان يأمر بجمعهم في بيته، عندما يلاحظ نقصا عند الكثير منهم في مسألة معينة من مسائل الفقه أو العقيدة أو غيرها،ويقوم بإكمال تعليمهم. وكان يجمع من حين لآخر أساتذة الزاوية وأعيان القبيلة الكبار في بيته أو في المسجد ويقوم بالتعليق والمدارسة في مناسبة معينة حول حديث نبوي يتم اختياره بعناية، وكانت تلك هي طريقته الرسمية لتمرير تعليم ديني أو قضية نحوية أو لغوية بل وحتى نقاش سياسي،في القبيلة وخارجها، ولفرض نفسه أو موقف مناسب على غيره من أفراد القبيلة.

ومن النادر أن يجتاز الطلاب وبخاصة الأفارقة منهم مراحل الدراسة كلها. فكانت تلك الحياة الصحراوية البعيدة عن أهلهم وعما اعتادوا عليه في طفولتهم ترهقهم فيعودون إلى أوطانهم. أما سكان البلد الأصليون والذين تشبه ظروف عيشهم في مواطنهم ظروف العيش في الزاوية فكانوا يبقون لفترة أطول تصل إلى خمسة أو ستة أعوام دون انقطاع في معظم الأحيان .

***

ويعيش الطلاب عادة على نفقة الشيخ، والتعليم مجاني بالزاوية . ولا تقل مساهمة أهالي التلاميذ في نفقة أبنائهم، في أغلب الأحيان، عن تقديم الزاد والملبس لأبنائهم، وكانوا يرسلون معهم أيضا ببعض الهدايا إلى الشيخ. لكن الزاوية من حيث المبدأ ما إن تقبل التلميذ حتى تتكفل بمعاشه مجانا سواءا فيما يتعلق بتكاليف معيشته المادية، أو بتكوينه وتعليمه. ولا يمكن اعتبار استنساخ التلاميذ لبعض المخطوطات ،ولا المهام التي ينجزونها في الأحياء المجاورة،الثمن الذي يتقاضاه الشيخ لقاء تعليمه. فلا توجد في بلدان المغرب تلك العوائد الناجمة عن إجبار مشايخ السودان لتلاميذهم على نطاق واسع، على العمل في حقولهم أو ورشهم. إلا أن هذا التكوين المجاني هو عبارة عن استثمار طويل الأمد. فسرعان ما يصبح الطالب الشاب، الحاصل على أعلى تتويج، بعد حصوله على الإجازة من الشيخ سيديا ومباركته وإلحاقه بالطريقة، شيخا في بلدته، إلا أنه يبقى على الدوام التلميذ الوفي لشيخه، يزوره كل عام أو يسلم لرسله جزءا من الزكوات والهبات التي يحصل عليها.

5- علاقاته مع السلطة الفرنسية:

قلة هم المشايخ المسلمون الذين استحقوا، بفضل تعلقهم ووفائهم،محبة الفرنسيين بالقدر الذي أظهر الشيخ سيديا أنه جدير به. وقد كان جده الشيخ سيديا الكبير أبعد ما يكون عن صداقته للفرنسيين. يقول عنه م.أ.لوشاتلييه A. Le Chatelier بالفعل <<إنه ساهم كثيرا في أن تحافظ منطقة البراكنة على مشاعرها المعادية لنا في منتصف القرن التاسع عشر.وقد شارك شخصيا في العديد من الغارات ضد قواتنا وبخاصة في

غارة مخيم محمد سيدي في السادس من يونيو سنة 1856م. ويبدو أن وجوده وسط قبيلة أولاد أحمد سبب من أسباب الفشل الذي حل بنا>>[14].

وقد قسم الشيخ سيديا بابا، الذي ورث بعض التقاليد عن أبويه، حياته في شبابه بين صداقاته ومصالحه.فمع حفاظه على علاقات طيبة مع الفرنسيين في السنغال، واصل مراسلاته مع تلميذه السابق ابراهيم انجاي، الذي زرع بعض القلاقل في إقليم فوني بكازامانص، وأرسل إليه بعض الهدايا . لكنه لم يتوان في الانحياز بشكل نهائي إلى جانب فرنسا ، وإظهار تعلقه بنا دون تحفظ.

وقد ساعد بحثه أولا عن مصلحته بطبيعة الحال وذكاؤه الكبير من ناحية، وكذلك السياسة التي اتبعتها فرنسا في منطقة الترارزة منذ سنة 1901 م من ناحية أخرى، إلى الوصول إلى تلك النتيجة المرضية .

وكما سنرى فإن الصراع كان على أشده سنة 1901 م بين أولاد ابييرى واجيجبة في منطقة البراكنة، وبينهم وبين أولاد بالسبع في الشمال. وقد لجأ أولاد ابييرى ومعهم الشيخ سيديا إلى أراضي قبيلتي أولاد ديمان وإداو علي، بعد أن تعرضوا للنهب على أيدي إجيجبة، وأزاحهم أولاد بالسبع مرات عدة عن أراضيهم. وكانوا يأملون في الحصول من الفرنسيين،الذين استأنفوا نشاطهم السياسي الفاعل في الأراضي الواقعة شمالي نهر السنغال، على دعم يخرجهم من هذه الوضعية المقلقة . وبناءا على ذلك انعقد التحالف مع كبولاني Coppolani ولم تخب آمال أي من الطرفين في الطرف الآخر .

وبالتركيز على الناحية الشخصية، كان الشيخ سيديا، الذي يدفع بدعاته وجامعي هباته إلى بلاد السودان، بحاجة إلى الحياد الإيجـابي للسـلطات

[14] لو شاتلييه، الإسلام في إفريقيا الغربية، ص 326:
A .Le Chatelier, L'Islam dans l'Afrique occidentale,p.326.

الاستعمارية الفرنسية في السنغال، لكنه أدرك بعد ذلك كل الفوائد الـتي يمكنه أن يجنيها نفوذه، من احتلالنا لإقليمي تگانت وآدرار [الموريتانيين]، وهذا هو الهدف الذي جعله يساعدنا بقوة. وهنا أيضا تحققت آماله فقد أحكم سيطرته الروحية وبسطها في تلك المنطقة بأسرها.

ولئن كان ثمة تطابقا شديدا بين مصلحة الشيخ سيديا،الشخصية والقبلية، مع مصلحتنا – وهو ما دفعه إلى ربط قضيته بقضيتنا– فإن السياسة الحكيمة التي انتهجها كبولاني (المتوفى سنة 1905م) [15]، في منطقة الترارزة، وسار عليها خلفاؤه من بعده بنجاح وبخاصة الرائد غادان Gaden والنقيب غرهارت Gerhardt المتوفى سنة 1913 م، قد أسهمت من جهة أخرى في ذلك التقارب بدرجة كبيرة. فبفضل هؤلاء الممثلين الرائعين لسياستنا المحلية، عرف الشيخ سيديا السلطة [الاستعمارية] الفرنسية. ولا غرو في ميدان يعتمد فيه كل شيء على الأشخاص، أن يتحدث الشيخ سيديا دوما عن مسؤولينا بعاطفة جياشة ومحبة تحتاج إلى الإفصاح عنها. ويبدو أن التردد على القواد الفرنسيين، وكما أقر بذلك الشيخ سيديا نفسه بمحض إرادته، لم يستطع المساهمة في تطوير خصاله من حيث حرية الفكر وسمو الأفكار.

ومن الصعب القيام بإحصاء شامل لأشكال الدعم المتنوعة التي تعتبر السلطة الفرنسية مدينة فيها للشيخ سيديا وأسرته وقبيلته.

فنراه منذ عام 1900م يوحد جهوده بجهود الشيخ سعد بوه لمساعدة بلانشيه Blanchet في مهمته في آدرار والعودة بسلام.

وكان في الفترة الفاصلة ما بين عامي 1902 و1905 م الذراع الأيمن والمستشار المقرب لكبولاني. فقد ساعد المندوب الفرنسي بشكل مثمر بنشاطه السياسي المتواصل بل وحتى الحربي لدى القبائل، فساعد بذلك في

[15] قتل على يد بطل المقاومة الوطنية الموريتانية سيدي ولد مولاي الزين في تجگجة (المترجم) .

احتلال مناطق كانت "تشتعل فيها نار المقاومة المسلحة بشدة"، احتلالا سلميا قدر الإمكان.

ولم تكن كل المحاولات التي قام بها أصدقاؤه القدامى من المحاربين والزوايا لفصله عن الفرنسيين مثمرة. ولدينا الدليل على ذلك وقد ذكرناه في الملحق رقم(3)، وهو عبارة عن الرسالة التي بعثها حسننا ابن ماء العينين إلى الشيخ سيديا.

لقد كان ذلك الوفاء جديرا بالثناء، وقد ذهبت مواشي الشيخ سيديا أكثر من مرة، ضحية له.

وقد شهد مندوبو الحكومة العامة الفرنسية جميعا الذين تعاقبوا على موريتانيا من كبولاني حتى أيامنا هذه وهم : مونتاني كابدبوسك Montané-Capdebosq (1905-1907م)، وغورو Gouraud (1907-1910م)، وباتي Patey (1910-1912م)، وموريه Mouret (1912-1914م)، وكل القواد العسكريين لدائرة الترارزة، في تقاريرهم الرسمية، كما في مراسلاتهم الإدارية وفي مذكراتهم الشخصية على إخلاص الشيخ سيديا التام ومحبته للفرنسيين. فقد أسدى من خلال سياسته المحلية الداخلية أو الخارجية، وفي إدارته للقبائل، بل وحتى في تعاليمه الدينية[16]، وعن طريق سلطته الروحية خدمات جليلة. وقد وضع معظم المعارضين للوجود الفرنسي أسلحتهم إثر مساعيه القوية وطلبوا الأمان. وبفضله أيضا استسلم زعيم عصابة الترارزة أحمد ولد الديد ابن الأمير محمد فال المتوفى سنة 1886 م هو وجماعته.

ولا يبدو أن هناك أحدا أجدر منه بالمكافأة السامية التي تقدمها الحكومة للشيوخ المحليين الذين استحقوها بفضل الإخلاص الذي برهنوا عليه، والمساعدة الفعالة التي قدموها.

[16] وبخاصة فتواه في موضوع "الموالاة" للفرنسيين ،حققها الإداري أرنولد،وترجمها (إلى اللغة الفرنسية) ميشو بلير (الآرشيف المغربي رقم XI).

ثالثا– قبيلة الشيخ سيديا بالتبني:أولاد ابييري والتلاميد:

1- بنية أولاد ابييري وأصولهم:

هذه هي شجرة أولاد ابييري :

الحسن

عدي — دليم (جد قبيلة أولاد دليم)

مغفر — رزق (جد قبيلة أولاد رزق) — داود (جد أولاد علوش في الحوض وأولاد آكشار في الترارزة)

عثمان

عمران — يحيى (جد أولاد يحيى بن عثمان) — عنتر (جد أولاد الناصر في الحوض) — الرحال (جد الرحاحلة)

هداج — محمد (جد أولاد امبارك في الحوض)

البركني (جد البراكنة) — تروز (جد الترارزة) — الخواو (جد الخاواوات)

كرّوم

عبد الجبار — عبد الله (جد أولاد عبد الله) — اليتيم (جد الايتامة في البراكنة)

محمد قرا (جد إدقراهاوة) — أبهم (جد إدابهم) — بسرين (جد إدغبسرين مع أولاد ابييري) — أجم (جد إجمان مع أولاد ابييري) — أحمد (جد أولاد أحمد في البراكنة)

ابييري (جد أولاد ابييري) — آدهس (جد إيدادهس مع أولاد ابييري)

مرابط مكة — اعمر بو قطاية (جد إدب اعمر) — موسى (جد أولاد موسى) — محمد آبه (جد أهل ليحة)

محمد (جد أهل محمد) — خادجيل (جد أولاد خادجيل) — الفاللي (جد أولاد أحمد ولد الفاللي) — محنضنا الله (جد أولاد محنضنا الله)

وأسماء الأجداد في شجرة الأنساب هذه هي أيضا أسماء كل العشائر التي تكون في الوقت الحالي قبيلة أولاد ابييري المهمة .

ويمكن اعتبار هذه الأنساب صحيحة انطلاقا من عبد الجبار وهو الجد المشترك. وقد مكنتني العديد من التحريات التي قمت بها لدى النسابين المحليين من مختلف المشارب من ملاحظة أن كل واحد منهم يصل بسلسلة النسب الخاصة به دون عناء إلى عبد الجبار. وتجدر الإشارة من جهة أخرى إلى أن عدد الأجيال التي تربط الأسر الحالية بعبد الجبار تبلغ حوالي اثني عشر جيلا. ولا غرو أن يحافظ معظم قبيلة أولاد ابييري الزاوية والمتعلمة على أسماء أجدادهم وصولا إلى الجد الثاني عشر.

لكننا عندما نتجاوز عبد الجبار صعودا لنصل إلى جده الثاني (البركني) نقع في روايات أهل الصحراء التي تنسب كل القبائل البيظانية المحاربة إلى حسان بن عقيل، أي إلى العرب الفاتحين أصحاب العرق النقي. إلا أننا هنا لسنا بصدد التأكد إن كان من المناسب تصديق تلك الروايات أم لا : فسنعرض لدراسة تلك الروايات فيما بعد. حسبنا الآن أن نعرف أن أولاد ابييري ينحدرون بحسب ما ترويه الروايات من البركني، وبالتالي فهم براكنة حقيقيون مع أن الناس لم يتعودوا على تسميتهم بهذا الاسم. إلا أن قبائل البراكنة المحاربة ومشايخ أولاد ابييري يعترفون بأنهم أبناء عمومة ،لذلك ربطتهم على الدوام أواصر المحبة.

ومن الجدير أن نضيف ــ وربما كان هذا هو الدليل الحاسم على عروبة أولاد ابييري ــ على الرغم من أنهم يعتبرون زوايا، أي أنهم قبيلة زاوية تشتغل بالعلم والتدين، إلا أنهم لم يتوقفوا أبدا عن حمل السلاح، والقيام بالحروب وشن الغارات. وعلى النقيض من ذلك نجد أن القبائل الأخرى حصرت دورها في المجال الثقافي والديني، وتدفع الجزية لقبائل حسان المحاربة، ولا تقرب السلاح أبدا مهما حصل ولا تملكه أصلا.

وقد عاش ابييري الجد الذي تسمت القبيلة باسمه بحسب ما ترويه الروايات حوالي نهاية القرن السابع عشر. وقد استقر في ذلك الحين مع أخيه وأعمامه في المنطقة التي توجد بها ساقية تين دكسمّي وربما كان ذلك عائدا إلى إعادة توزيع القبائل ضمن موازين القوى déclassement des tribus، والتحولات الاجتماعية الناجمة عن حرب شر ببّه المشهورة. مات ودفن في اتامير حيث لا يزال ضريحه مزارا حتى اليوم.

وقد عرف ابنه مرابط مكة بورعه وكراماته. واشتهر على وجه الخصوص بالكرامة التي تمت على يديه فيما يتعلق بسرقة قبيلة لعلب لبقرة له. فقد ضلت بقرة له طريقها وانفصلت عن قطيعها فسار هو مقتفيا أثرها برفقة أحد عبيده حتى أوصله الأثر إلى مخيم قبيلة لعلب. وعندما سألهم عنها صاحوا في وجهه وتعللوا ببراءتهم منها. فلم يلح الشيخ الصالح عليهم لكنه ما كاد يخرج من مخيمهم حتى طلب من عبده أن ينادي البقرة فاستجابت لذلك النداء بسرعة من كل حدب وصوب، وصاحت كل قطعة منها : فصاح اللحم في بطون من نال منه، وصاح دمها وقرونها وحوافرها وفضلاتها من الحفر التي دست فيها،والأحزمة المصنوعة من جلدها، والنعال، والرحال والأسرجة، حيثما استعملت. وهكذا اقتاد الشيخ بقرته التي تجمعت على ذلك النحو ببساطة أمام لعلب المذعورين، ولم يستردوا صداقته إلا بعد أن تعهدوا له بدفع جزية سنوية قدرها شاة من الغنم عن كل بيت منهم. وهذا على الأقل تفسير المعنيين لسبب دفع كل أسرة من قبيلة لعلب لهذه الشاة لأولاد ابييري وهي الجزية التي لا تزال قائمة حتى الآن. وينحصر اختيار محصلي تلك الجزية في عائلة أهل بابو وحدها من أولاد خادجيل. ويخول رجال هذه العائلة بالتناوب كل حسب دوره كل عام داخل العشيرة للسعي في طلب الجزية لدى المحاربين لعلب. ويتم تقسيمها بين أفراد العشيرة الفرعية أولاد خادجيل وحدهم وذلك بفضل اتفاق مسبق.

وقد شيد ضريح مرابط مكة بالقرب من تنيافيل، مسور بسياج من الأغصان الشائكة، وهو مزار رئيسي على قدر من الأهمية.

وقد تكاثرت ذرية ابيري وأخيه وأعمامه على مدى القرنين المواليين. ولا تتضمن تسمية أولاد ابيري الآن "أولاد ابيري الخاصة" سوى العشائر التالية:

أ- العشائر الفرعية الأربع : أهل محمد وأولاد خادجيل، وأولاد أحمد ولد الفاللي، وأهل محنضنا الله وهم الأربعة أبناء الولي الصالح مرابط مكة ولد ابيري ويسمون في بعض الأحيان بأهل مرابط مكة ويشكلون على نحو ما الأرستقراطية القبلية الآبيرية.

ب- وتنحدر العشائر الثلاث : إدب اعمر،وأولاد موسى، وأهل الليهة بدورهم من خلال أجدادهم : اعمر موسى، ومحمدآب من ابيري . وتجدر الإشارة إلى أن الكثير من العلماء لا يقبلون صحة ذلك الأصل لعشيرة أهل الليهة .

أما تسمية أولاد ابيري منظورا إليها في دلالتها العامة "أولاد ابيري العامة" فتتضمن :

أ- العشائر المذكورة آنفا.

ب- كل العشائر الأخرى المنضوية الآن تحت مظلة القبيلة، والتي ينحدر بعضها وهم إدادهس من آدهس شقيق ابيري، وبعضهم الآخر وهم إيداقراهاوة وإيداهم وإيدغبسرين وإجمان من أجدادهم الذين ورثوا منهم التسمية وهم : قرا، وأهم، وبسرين وأجم، وهم أعمام ابيري. وتجدر الإشارة أيضا إلى وجود بعض الأسر من إجمان منذ عقود في تگانت حيث يشكلون هناك عشيرة مستقلة، وإلى أن جزءا من إداهم قد هاجر في نهاية المطاف منذ سنتين نحو مدينة كيفه (دائرة العصابة) فهؤلاء على الرغم من أنهم ينتمون إلى أولاد ابيري من الناحية العرقية إلا أنهم لم يعودوا تابعين إداريا لشيخ القبيلة ولا لسلطة منطقة الترارزة.

ج- انتشايت أو عائلة الشيخ سيديا:

د- إيداميجن المنحدرون من إميجن الجد الذي تسمت العشيرة باسمه، وهو شريف من آل البيت وصديق لآبيري . وقد عاشت هذ العشيرة على الدوام مع أولاد ابيري . ويعترف معظم العلماء لعشيرة إيداميجن كلها بالشرف، إلا أن البعض منهم لا يحب نسبة ذلك اللقب إلا لأسرة أهل سيدي محم .

هـ- وفي الأخير كل التلاميد الذين سنتعرض لهم لاحقا.

ويمكننا أن نخلص إلى الجدول الذي يمثل التقسيم الحالي لقبيلة أولاد ابيري على النحو التالي:

أولاد ابيري

أهل مرابط مكة — إدب — إيدادهس — إيداقراهاوة

أولاد موسى — إيداهم

أهل الليهة — إيدغبسرين

إجمان

انتشايت

إداميجن

التلاميذ

أهل محمد ولد خادجيل — أهل أحمد — أهل محنضنا الله — أهل بتار — أهل بقة — أهل آجري — أهل محم

أهل بابو — أهل احميمدي — أهل الفاللي — أهل المصطف — أهل عبد الله — أهل المختار — أهل تشاغة بوبكر

2- بنية التلاميد و أصولهم:

يطلق لفظ "التلاميد" على خمس عشرة عشيرة من العشائر البيظانية تنحدر من أصول شديدة الاختلاف . وتتضمن كل منها عددا يتراوح بين عشرة ومائة بيت، جاءت لتلتصق بأولاد ابيري ولتعيش في كنف

الشيخ سيديا وبركته . ويضم هذا التجمع عشائر من أصول زاوية، وأخرى من أصول محاربة، وثالثة في الأخير من أصول زناگية[صنهاجية].

1- العشائر ذات الأصول الزاوية:

أ- إداغنية : عشيرة منحدرة من غنية وهو الجد الذي تسمت العشيرة باسمه . قدم إلى أولاد ابييري واستقر فيهم خلال القرن التاسع عشر . ويبلغ عددهم الآن أربعين بيتا . يشربون من ساقية البلغان وعمقها (26م) وهي تقع على الطريق الرابط بين أبي تلميت ودقانة.

ب- أهل اتفاغه إميجن : وأصلهم من الركاكنة (من قبيلة تندغة بالترارزة) ويشربون ساقية يارة وعمقها (24 م)، وتقع على الطريق الرابط بين أبي تلميت و آلاق وتضم هذه العشيرة مائة بيت.

ج- بارتيل : وتعود أصولهم إلى مدينة ولاته، هاجرت منهم أسرة وهم أهل اتفاغه الخطاط إلى آدرار في القرن الماضي [القرن التاسع عشر] واستقرت هناك وتكاثرت. يشربون ساقية انتورجي والفغالية الواقعتين على الطريق الرابط بين أبي تلميت وتندوجة، ويبلغ عددهم ستون بيتا.

د- أهل القصري : وأصلهم من إيداو علي الترارزة، استقر جدهم القصري الذي تسموا باسمه لدى أولاد ابييري في القرن الماضي ولا يتجاوز عددهم بيوتات قليلة.

هـ - الأغلال : وأصلهم من قبيلة الأقلال في آدرار وتگانت، وهم ذرية رجل من تلك القبيلة يعرف باسم المقدم، أقام في أولاد ابييري واستقر فيهم منذ قرنين من الزمن هو وزوجته فاطمة بنت محمد قللي وأبناؤه الذين لم يعرف منهم سوى واحد هو المختار. ويبلغ عددهم مائة بيت تقريبا.

و- إيدوعيش : وهم ذرية إدوعيش وهوالجد الذي حملت اسمه قبيلة إدوعيش، وهو تلميذ محمد ولد مرابط مكة ورفيقه . ولا يتجاوزون حاليا بضع أسر، ويعيشون مع انتشايت. يشربون بير مريم (25 م) وساقية الملحس (24 م)، و المزيريف (25م)، وساقية العنبـــاية (26 م) ، وساقية الطرشان (27 م) والمغري (28م).

ز- الوقفة : وأصلهم من إجيجبة البراكنة، ولا يتجاوز عددهم بضع أسر.

2- القبائل ذات الأصول المحاربة:

وقد تخلى هؤلاء عن نمط حياة بني حسان وتركوا سلاحهم وجعلوا أنفسهم أهل دين وعلم أو منمين، وسموا أنفسهم بـــ "التياب" ومفردها تائب.

ح- التياب أولاد بوسعيد : وهم في الأصل من قبيلة أولاد الناصر في الحوض، ولا يمثلون سوى بعض الأسر، ويرتبطون بانتشايت بشكل خاص.

ط-التياب أهل اعمر : ينحدرون من قبائل بني حسان في ولاية الترارزة. ويشكلون خمسين بيتا، ويتباهون بسوء توبتهم . وقد لاحظت السلطة الاستعمارية الفرنسية من جهة أخرى أنهم اشتهروا بميلهم إلى السطو المسلح.

ي- التياب الحجاج : وينحدرون من قبيلة الرحاحلة في الترارزة، ويضمون عددا يتراوح بين 150 و1200 بيتا، وجدهم شخص يدعى الحاج سمي بذلك الاسم لأنه حج بيت الله الحرام .

ك- التياب المقاليل : المنحدرين من قبيلة أولاد نغماش في البراكنة، ولا يمثلون سوى بضعة أسر ويشتهرون بغزارة العلم .

ل– التياب أهل بونية : وينحدرون من عشيرة أهل أحمد في البراكنة، وهم كما ذكرنا سابقا أبناء عمومة لأولاد ابييري، حافظوا على أسلوب عيش القبائل الحسانية، ولا يتجاوز عدد أهل أحمد بونية بضع أسر.

م–الدراوات : منحدرون من قبيلة العلب، وعددهم ستون بيتا تقريبا.

ن– تركـزْ : وعددهم خمس أسر تقريبا، وينحدرون من قبيلة تركز الوافرة في الحوض .

3– العشائر ذات الأصول البربرية " الزناگية " (التابعة):

ص– إيداو برن [17] : وهم ذرية ابراهيم (المسمى اختصارا ببرن) وهو الجد الذي تسمت العشيرة باسمه، وكان تلميذا لمرابط مكة. وقد عبر هذا التجمع – الذي يضم أكثر من مائة بيت وعددا كبيرا من المواشي والذي تعود أصوله إلى قبيلة مدلش، وهي نسبة مشكوك في صحتها– عن نزعة ضعيفة إلى الانفصال عن سادقم القدامى. وقد سعوا بعد أن تم إلحاقهم بحرمة القبيلة، إلى تكوين عشيرة مستقلة وقائمة بذاقا.

ع– إيداكشمة : التابعين لعشيرة أهل محنضنا الله التي كانوا يدفعون لها الجزية. ويبدو أن أم محنضنا الله كانت امرأة من عشيرة إيداكشمة فجاء أقاربها واستقروا إلى جانبها هي وزوجها فكونوا بذلك عصبية تشكل اليوم عشيرة إيداكشمة. وقد ارتفعت منذ سنوات وتيرة الاحتجاجات بين هؤلاء التلاميذ وسادقم فحدد الشيخ سيديا مقدار الفدية التي يؤدوها هم بعشر مواشيهم من البقر والغنم .

17 في النص "إيداو برم" وجدهم "برم" (المترجم).

وقد نسب محمد أحمد يوره، وهو من قبيلة أولاد ديمان في كتيبه:"إرشاد الأحبار إلى معرفة الآبار"[18] ،تين دكسمّي إلى إيداغشمه بقوله:

(وأصل كلمة تين دكسمّي في اللغة البربرية (لغة آزناگه) هو تين إيداغشما، أي ساقية إيداكشمة وهم إيداكشمة تلاميذ أولاد ابييري، وهي ساقية قديمة. ويقال إن أول من قدم إلى هذا المكان هو أليمان ديما وهو جد قوم أحرار هم الديولماتة[19]، والذين يمكننا أن نذكر منهم العالم الصالح أليمان أبوبكر. ويقال أيضا إن أطلال القرية الموجودة بالقرب من الساقية هي أطلال أولئك القوم)[20]. ويجب أن نشير إلى أن "أواديه"، وأصل هذه الكلمة في اللغة البربرية "آوواديه" وتعني "الكثيب الجميل"، هو من كثبان تين دكسمّي العالية. و"أوواديه" هو من أعلى الأماكن التي يمكن مشاهدقا. وقد عاش انقادس في تين دكسمّي في بداية الأمر وكذلك أولاد ابييري، وبعد ذلك أولاد ديمان الذين لا يزالون فيها حتى الآن).

***

وبحسب العادات البيظانية فإن الهدف الأساس لذلك التمييز هو الآتي:

أن العشائر الحرة في الأصل،سواء من الزوايا أو من المحاربين، كانت جزءا لا يتجزأ من القبيلة وتدفع معها حصتها من الضرائب ،ومساهمتها النقدية في الدية وتجهيز الجيوش. وعلى النقيض من ذلك فإن العشائر ذات الأصل الزناكي كانت معفاة من هذه الأعباء لكنها كانت تدفع،بحسب وضعها في النظام الإقطاعي، جزية أو "حرمة" للعشائر أو الشخصيات

18 كتب بطلب من رئيس القسم الإداري في الإدارة الاستعمارية الفرنسية غادان ونشره م.باسيه في آرنست لرو ،باريس،1931.

19 ديالماتيش الخرائط

20 وديما قرية كانت توجد قديما بين بحيرة قيار (بحيرة الركيز) والنهر وقد انتقل أليمان الديماء (وهو من كان) بعد الاحتلال الذي قتل فيه علي الكوري، خوفا من ردود الفعل إلى الضفة اليسرى للنهر وأســس ديلمـــاني (ديالماتش الخرائط).

الحرة التي كانت تعيش في كنفها. وقد أدى قدوم الفرنسيين إلى المنطقة إلى قلب تلك التقاليد. فسرعان ما حاولت العشائر الزناگية التملص من الجزية التي كانت تؤديها للمشايخ،كما حاول المشايخ أنفسهم التملص من الجزية التي كانوا يؤدونها للمحاربين. وقد افتدوا أنفسهم إثر عقد اتفاقيات تمت تحت رعاية السلطات الاستعمارية الفرنسية لمنطقة الترارزة، نهائيا من ذلك الدين السنوي عن طريق تسديد مبلغ متفق عليه من المال ورؤوس الماشية يتم تحديده بالتراضي. وتلك هي حال إداوبرن وإيداكشمة في الوقت الراهن .

وكان آزناگه أنفسهم حالهم حال العشائر الحرة في الأصل يحملون داخل القبائل الزاوية اسم التلاميد أو الأتباع . أما في القبائل المحاربة فقد احتفظوا على العكس من ذلك بتسميتهم العرقية آزناگه، ولا يزال بنو حسان يشيرون إليهم باسم "اللحمة" أو "لحمتنا" و"الأصحاب" أو "أصحابنا" وملكنا والخاضعون لنا.

وقد آوى الشيخ سيديا الكبير وكذلك حفيده سيديا بابا وسيدي المختار في مخيمهم الكثير من أقنان بني حسان البؤساء هؤلاء الذين جاءوا ليحتموا بهم. وكانوا في معظم الأحيان يدفعون فدية للسيد الذي يأتي للمطالبة بهم. وكان سادتهم يترفعون في بعض الأحيان عن تلك الفدية بدافع من التقوى وتعظيما للشيخ وطمعا في الحصول على بركته. وكان هؤلاء التلاميد الجدد الذين أنقذهم حق اللجوء، يستخدمون في رعي قطعان الشيخ، أو يأخذون دورهم المكمل لعمل عبيده. وقد تحرروا الآن من رباطهم القانوني به ولا يعبرون عن اعترافهم بالشيخ إلا من خلال تقديمهم لبعض الهدايا في فترات معينة من العام بمحض إرادتهم.

وقد تسلل بعض المغامرين من كل الأصناف إلى هذا الحشد من التلاميد الذي يحيط بالشيخ سيديا وعشائر أولاد ابييري، وأخذوا يستغلون وضعهم، وينهبون أموال جيرانهم، أويتجولون في الدوائر المجاورة لحسابهم الخاص للانتفاع ببركة الشيخ. وهذه التصرفات المعيبة لهؤلاء

الصعاليك هي التي أدت أحيانا إلى حدوث احتجاجات في السنغال وغينيا. فدافع الشيخ سيديا عن نفسه من جهة بأنه أرسل بعض الدعاة وجامعي الهبات دون إذن من الحاكم العسكري للدائرة والسلطات المحلية.وطالب مرات عدة بأن يقدم كل شخص، يضبط في الدول الإفريقية السوداء وهو يستغل اسمه من دون أن يكون مخولا للقيام بذلك، إلى العدالة وأن يحكم عليه بأقسى العقوبات[21].

ثمة فائدة أخرى للسلم الذي جاء به الفرنسيون وهي أنه أدى إلى التحرر الجزئي في تجمع التلاميد هذا. فقد يحدث أن يترك عدد من تلك الأسر أو الأفراد، بدافع الحنين إلى موطنه،وقد تحرر الآن من كل خوف، الشيخ ويعود إلى قبيلته الأصلية. إلا أن هؤلاء القوم يبقون مع ذلك تلاميذ للشيخ وينشرون عن بعد سلطته الروحية بحيث أن تلك الهجرة لم تكن تسوؤه إلا في جزء منها فحسب.

3- تاريخهم:

يعلن أولاد ابييري دائما بأنهم لا يعتبرون أنفسهم مجرد قبيلة من قبائل الزوايا في منطقة الترارزة.ويعلنون أن موقعهم الجغرافي هو قلب بلاد البيظان كلها، يوجد في منـــزلة وسطى "بين البِيْنات" كما يقولون. وقد استطاعوا بفضل حكمتهم أن يُبقوا نسبيا ضمن هذا الوضع الخطير على علاقات طيبة مع جيرانهم بني حسان. ولم يكن تاريخهم منذ جدهم ابييري عديم الفائدة فهو يتلخص في الحفاظ على تنقلهم خلال الصيف طلبا للكلإ والمرعى. وتجدر الإشارة فقط إلى أن ابييري وأوائل ذريته كانوا يقطنون حول تين دكسمّي، وأن أولاد ابييري كانوا في ذلك الحين يرعون في كامل منطقة تيرس. ولم يسلموا من الخضوع لقانون الهجرة الدائمة

[21] انظر الملاحق :الملحق رقم (4-5) ،رسائل الشيخ سيديا إلى دائرة الترارزة وإلى أصدقائه وتلاميذه وإخوانه في سيراليون.

لسكان الصحراء،إلا أنهم انتقلوا بعد قرنين من ذلك التاريخ ليستقروا في ضواحي أبي تلميت وتين دوجة في حين أصبحت تين دكسمّي الآن ضمن المجال الجغرافي لأولاد ديمان.

ولا يخلو تاريخ أولاد ابييري منذ سنة 1850م من الإشارة إلى بعض الصراعات التي خاضوها مع أولاد بالسبع ومع إجيجبة. وكان أولاد بالسبع وهم قبيلة ذات أصول مغربية،تتكون من محاربين شجعانا وتجار موهوبين لا يزال إخوانهم في أحواز مراكش، قد هبطوا على طول الشاطئ الأطلسي. وقد قادتهم هجرتهم في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، إلى المناطق الخلفية المحاذية لخليج آركين الصغير في رأس تميريس. وسرعان ما أصبحوا بفعل الضرورة أصدقاء وحلفاء للقبائل المحاربة في الترارزة ولأمرائهم. لكن علاقاتهم مع أولاد ابييري اتسمت، على النقيض من ذلك بالمرارة، والنـــزاعات على المراعي، والآبار والكثير من القضايا الأخرى. فقد نشبت مرات عدة صراعات دامية بين القبيلتين. ففي عامي 1903م و1904م تراجع الأميران أو من يزعما أنهما كذلك وهما أحمد سالم وسيدي ولد محمد فال أمام الزحف السلمي لكبولاني نظرا لحساسيتهما الخفيفة تجاهه وحصلا على اللجوء الواحد تلو الآخر لدى أولاد بالسبع في الشمال. وكان كبولاني Coppolani على العكس يعتمد في سياسته على الشيخ سيديا وعلى قبيلته أولاد ابييري، وهما واجه المنشقين والثوار في الشمال. فازداد العداء بين أولاد بالسبع وأولاد ابييري بسبب ولاءاتهم وتحالفاتهم.وقد تجسد ذلك العداء في فبراير سنة 1905م بحلقة مؤلمة من الصراع خاصة للشيخ سيديا. فلم يكن تلاميذه بالقوة التي تسمح لهم بالدخول في معركة متكافئة مع أولاد بالسبع، فأبيدوا عن بكرة أبيهم في موقعة أم آقنينة في منطقة تجريت، وقتل على رأسهم زعيمهم محمد خطاري ولد حمادي صهر الشيخ سيديا. وفيما يلي الكيفية التي روى بها التقرير السياسي الصادر عن الإدارة الاستعمارية في موريتانيا في الفصل الأول من عام 1905م هذه الواقعة :

في فبراير أرسلت سرية تتكون من 250 رجلا تقريبا من تلاميذ الشيخ سيديا، مسلحين بمدافع صنعت في عام 1874م، ولدى كل رجل منهم عشرين طلقة لمقاتلة أولاد بالسبع في الشمال. وقد ظنت هذه السرية المكونة على وجه الخصوص من شبان قليلي الخبرة، حمستهم بعض الانتصارات الطفيفة السابقة، أنها قادرة على مباغتة العدو،لكنها في الواقع هي التي سقطت في الكمين ! فبعد أن استنفد أولاد ابييري ذخيرتهم كلها دون تصويب دقيق نحو الهدف تقريبا، وقد رأوا الموت تزحف نحوهم فلم يحاولوا الهرب ،ووضعوا أسلحتهم أرضا واستقبلوا بالأدعية أسلحة المنتصرين وتساقطوا الواحد تلو الآخر دون القيام بأية مقاومة. وكان ذلك قدرا مقدورا.ولم يترك منهم أولاد بالسبع سوى عشرين جريحا فقط. وقد كلفت هذه المعركة قوم الشيخ 135 رجلا و200 بندقية.

إلا أن أولاد بالسبع المنتشين بتلك الانتصارات عادوا إلى المهمة بعد ذلك بعدة أشهر، وقاموا بنهب المواشي حتى وصلوا إلى القرب من أبي تلميت إلا أنهم انهزموا في ابير اللبن بعد أن تعقبتهم جيوش أولاد ابييري وأولاد ديمان، فقتلوا منهم عشرين رجلا وجرحوا عددا كبيرا وأجبروهم على التخلي عن غنائمهم، وكان ذلك في منتصف يونيو سنة 1905م. وكانت جماعة أولاد بالسبع في كل تلك الصراعات تحتج بصوت عال بأنها كانت تهاجم أولاد ابييري بمفردها، وأنها تحترم الفرنسيين كل الاحترام.

وانتهت هذه الحالة المزعجة على النحو الذي لم يكن متوقعا أبدا بوفاة الأمير أحمد سالم الثاني في الثامن عشر من إبريل سنة 1905م، واستسلام منافسه سيدي. وقد ساعد تدخل الشيخ سعد بوه لدى أولاد بالسبع في التوصل إلى اتفاق بين القبيلتين تحت رعاية النقيب تيفانيو Théveniaut القائد العسكري لدائرة الترارزة سنة 1906م. وانتهى الصراع المفتوح بين أولاد ابييري وأولاد بالسبع إلا أن روح العداء ظلت قائمة بينهما ولفترة

طويلة من الزمن،فكانت تنشب باستمرار بعض النزاعات الفردية على المراعي وعلى الآبار لأتفه الأسباب.

ولم يكن صراع أولاد ابييري مع إجيجبة أقل سخونة. وكان حادث مزعج قد حدث في عهد الشيخ سيديا الكبير حوالي سنة 1860م لم يكن له من أهمية سوى أنه سمح لأحداث صغيرة، في حياة بعض القبائل المجاورة، بأن تضع العلاقات الطيبة السابقة بين القبيلتين على المحك. فقد تشاجر رجل من أولاد الفاللي اسمه محمد ولد عبد الفتاح مع بعض آزناگه التابعين لقبيلة إجيجبة فهاجمهم على رأس قومه على حين غرة وقتل منهم ستة عشر رجلا، فوافق الشيخ سيديا الكبير على دفع الدية التي قدرت ب 16000 قطعة من القماش الغيني بعد تدخل بكار ولد اسويد احمد أمير إدوعيش الذي كان سيدا بالمشاركة لقتلى آزناكة. وبناءا على ذلك لم يكن للقضية تبعات أخرى.

وقد أدت بعض الخلافات حوالي سنة 1890م في موضوع آبار ثلاثة هي: بوطلحاية، وحسي العافية، وإيغجكل في آمشتيل، ادعت كل من القبيلتين ملكيتها، إلى إشعال نار الفتنة، فزدادت المشكلة تفاقما بسبب خلافات مماثلة على أدباي شمامه. وفي الفترة الفاصلة بين عامي 1890م و1900م دخل الجانبان في العديد من المعارك الصغيرة يؤدي التفصيل فيها في هذا المقام إلى الملل.يكفى أن نشير إلى القبائل الحسانية المشاركة من كلتا الطرفين في تلك المعارك كل إلى جانب مشايخه . فسار أمير الترارزة أحمد سالم الأول وقريبه سيدأحمد ولد بوبكر سيرى، وعلى الأخص قبيلتا أولاد دمان والعلب المحاربتان إلى جانب أولاد ابييري. في حين حارب أمير البراكنة أحمد ولد سيدي علي وقومه أولاد عبد الله وحلفاؤه من التكرور الهلايبة في منطقة شمامة لصالح قبيلة إجيجبة. وقد كانت سلسلة المعارك الجدية شيئا ما بين قوم تقاتلوا دون اقتناع، وكانوا يسعون على الأخص إلى العيش على حساب "الطلبة"[22] تحت ذريعة الدفاع عنهم،

22 و"الطلبة" هنا بمعنى المعلمين أو الأساتذة وهم من قبائل الزوايا (المترجم).

أكثر من مرة مقلقة لأولاد ابييري. وكاد الشيخ أن يخطف من مخيمه في أودن سنة 1896 م ولم يجد خلاصه إلا بفضل تلاميذه الأفارقة السود الذين ارتموا بقوة على عصابات إجيجبة وأولاد السيد وأنهكوهم.

وم يؤد تدخل الحاكم العسكري مرتين الأولى في فبراير سنة 1897م والثانية في مايو من نفس العام، والاتفاقات التي أعقبت ذلك بين المتحاربين الترارزة والبراكنة، وبين المحاربين والزوايا إلى أية نتائج . وبناءا على ذلك أعلنت السلطات أن الأراضي المتنازع عليها ملكية للحكومة الفرنسية في الوقت الذي أخذ فيه تكرور الضفة اليسرى للنهر في العبور شيئا فشيئا إليها وقاموا باستغلالها .

ثم استمر الصراع على أشده بين القبيلتين . ومع ذلك فقد حسم على الأقل في الظاهر لصالح أولاد ابييري فيما يتعلق بآبار الشمال. وكان على إجيجبة المهزومين ترك آمشتيل وآوكار وذلك حوالي سنة 1899م، لكنهم أخذوا ثأرهم بأن عادوا إليهما، في السنوات التي تلت ذلك، وقاموا بنهب مخيمات أولاد ابييري بحيث أن هؤلاء بدورهم اضطروا إلى ترك البئرين المتنازع عليهما، وتركزوا في آوكار. وسرعان ما تهاوى البئران وتحولا إلى أطلال لعدم صيانتهما. وفي عام 1903 م قام الشيخ سيديا ، بعد أن تأكد من دعم كبولاني، ومستفيدا من حالة عدم خضوع إجيجبة للفرنسيين، وهي الحالة التي لا تخولهم المطالبة بأية حقوق، بالاستيلاء ثانية على الأرض المهجورة، وقام بترميم البئرين. بيد أن خضوع إجيجبة للنفوذ الفرنسي أدى إلى تجدد النـــزاع سنة 1904 م فطالبوا بإعادة ملكيتهم "للبئرين" فورا ودون تأخير، فاحتج أولاد ابييري على ذلك. وبما أن القضية طال أمدها فإن المعارك تجددت من كل الأطراف : بين الحراطين والعبيد أولا،ثم آزناگه فيما بينهم، وأخيرا بين الزوايا من كلا الطرفين. فقامت سلطات دائرتي الترارزة والبراكنة بوضع حد لتلك الصراعات بإبرام اتفاق بين القبيلتين. وقد تم التوصل إلى حل متفق عليه تحت رعاية النقيب غرهارت Gerhardt الحاكم العسكري لدائرة الترارزة في السابع من فبراير

سنة 1912م بين سيدي المختار شيخ أولاد ابييري، والمصطفى ولد خليفة ولد أوداعه أبرز وجهاء إجيجبة الذي انتدبوه لذلك الغرض. فتم الاعتراف بحق إجيجبة في ملكية البئرين لكن يحق للقبيلتين استغلال مياههما الوفيرة بما فيه الكفاية لسد حاجة الجميع. وتواعد الأهالي من الجانبين بشكل متبادل بعد أن رضي كل منهما بالحل الذي لم يخضعه لإرادة خصمه ومنحه نصف ثمار القضية، بألا يعيقا ممارسة حقهما المشترك في استغلال البئرين.ويبدو أنهما أوفيا بوعدهما منذ عام 1912م حتى الآن .

4- الوضع الراهن:

يصطف أولاد ابييري في الوقت الراهن جميعا خلف الزعامة الإدارية للشيخ سيدي المختار شقيق الشيخ سيديا. وكان الأمر كذلك في الفترة الفاصلة ما بين عامي 1903 م و1904م عندما قام كبولاني Coppolani باحتلال الترارزة على مراحل. وكان سيدي المختار في ذلك الوقت يمسك بقوة بزمام كل العشائر المشاكسة التي تحلم بمجيء يوم تنعم فيه بالسلام وبالمنافع اللذين سيجلبهما حضور الفرنسيين. إلا أن سير الأحداث غير ذلك الوضع بسبب ظهور بعض الميول العامة إلى الاستقلال، فظهر سلوك العصيان لدرجة أن الأهالي رفضوا الانصياع لدفع العُشور (الضرائب) تحت ذريعة أنهم تلاميذ الشيخ. وأصبح من الواضح أن الشيخ سيدي المختار لم يعد لوحده كافيا لقيادة هذه القبيلة الكبيرة، فعليا دون وسطاء. فطلب منه أن يعهد بكل عشيرة إلى رئيس يكون مسؤولا عنها يظل خاضعا له من الناحية الرسمية، لكنه يضمن شخصيا إدارتها وكذا جمع الضرائب. وتم ذلك في الثالث من يونيو عام 1912م سواءا بالنسبة إلى أولاد ابييري بالمعنى الدقيق للكلمة أو بالنسبة إلى تلاميذهم. وكان التلاميذ من جهة أخرى قد جُمعوا تحت سلطة شيخ واحد مسؤول عنهم هو في أول الأمر الداهي ولد المصطفى من انتشايت

ثم أصبح الراجل ولد البشير من إيدوعيش مسؤولا عنهم ابتداءا من سنة 1913م. ومنذ أن تمت هذه اللامركزية الجزئية أصبحت الأمور مرضية تماما. وبقي سيدي المختار الشيخ الرسمي للقبيلة كلها وممثلها الشرعي، وكانت له سلطة عظيمة عليها:

<<فالشيخ سيدي المختار،كما ينص على ذلك القانون المنظم، هو المسؤول عن مصلحة الضرائب التي ظل هو الوسيط في إبلاغ العشائر بما عن طريق فواتير خاصة بكل عشيرة تصدرها المندوبية السامية في أبي تلميت [المقيم العام الفرنسي]. أما فيما يتعلق بالعشرات فإن سيدي المختار ليس سوى وكيل للتبليغ عنها ونقلها، ويحق للقائد العسكري أن يستشيره في موضوع الأقساط المطلوب دفعها، لكنه يقوم بإعداد العشور بأسماء العشائر ويسلمها للشيخ سيدي المختار الذي يتولى إيصالها إلى وجهتها. وهكذا يكون سيدي المختار مسؤولا عن توصيلها فحسب، أما جمعها فهي مسؤولية تقع مباشرة على العشائر. وكانت العشور تدفع مباشرة من طرف الأفراد للعشائر أو ممثليها الذين وكلتهم الجماعة. وقد ظل سيدي المختار وسيطا للتواصل مع العشائر، وتبقى لنا الحرية في أن نتوجه إليه هو وحده بخصوص كل ما يخرج عن نطاق العشور والضرائب، أو أن نتوجه على العكس من ذلك إلى العشائر من خلاله>>.

أما الشيخ سيديا فيتعالى على شؤون الحياة اليومية والمادية، إنه الزعيم الديني والمستشار السياسي.

***

وقد كانت الحالة المادية لأولاد ابييري، التي لا مجال للتركيز عليها، مزدهرة. وكانوا قبل المرحلة الأخيرة من الصراعات التي قذفت بهم خارج أرضهم، وأدت بالتالي إلى تناقص ثروتهم الحيوانية، قبل أن يتعرضوا للنهب من طرف أولاد بالسبع، قبيلة من أغنى القبائل الموريتانية . ويروى الشيخ

أنه أحصى عدد الإبل عندما قسم مساهمة مالية فرضها الأمير على أفراد القبيلة فوجدها 30000 رأس . وانخفض هذا العدد عام 1908 م حتى وصل إلى 1500 رأس تقريبا على حد قول الشيخ سيديا . و لم يتوقف ذلك العدد عن الزيادة منذ عدة سنوات.

وكان تعداد الماشية في الثلاثين من مايو سنة 1913م قد بلغ، بحسب البيانات المقدمة من المعنيين أنفسهم – وهي أقل من العدد الحقيقي — ما يلي:

الخيل	13	رأسا	الإبل	2108	رأسا
إناث الخيل	26	رأسا	الغنم	70580	رأسا
الثيران	3640	رأسا	الحمير	2302	رأسا
إناث البقر	10073	رأسا			

****

وكان أولاد ابييري شأنهم شأن معظم قبائل الزوايا في مناطق الترارزة يضعون على البقر والحمير علامة "الحبارة" وهي العلامة الرئيسة مع علامات ثانوية أو "شواهد" خاصة بكل عشيرة على حدة.

أما بالنسبة إلى الإبل فإن العلامة العامة المميزة لأولد ابييري هي حرف الباء (ب) أي الحرف الأول من البسملة . وكان الشيخ سيديا الكبير هو الذي جلب هذه العلامة "النار" من أساتذته كنتة سنة 1827م . ولا تزال توضع الآن على الملكية الخاصة لعائلة الشيخ. و لم يتأخر أولاد ابييري حالهم حال العديد من العشائر المجاورة في تقليدها واضعين بذلك حيواناتهم تحت حماية بركة الشيخ .

وقد استعار الشيخ سليمان زعيم أولاد ديمان – الذي سنتحدث عنه لا حقا– بدوره علامة أستاذه الروحي الشيخ سيديا الكبير وهي الباء ب مع شاهد إلى جانبها وبذلك تصبح علامته الكاملة بـ○ .

ومن الغريب أن نلاحظ أن انتقال علامات الحيوان هذه يتم عن طريق السلطة الروحية.

****

وفي ذلك التاريخ بلغ محصول أولاد ابييري من الصمغ العربي منذ بداية العام 5000 كلغ،وتم إحصاء إنتاجهم من البطيخ الأبيض ووصل إلى 12550 كلغ.

وكانت تجارتهم مع السنغال عن طريق بودور، ومع تكانت وآدرار مزدهرة للغاية . وقد أدت العشور التي كانت تؤدى في بادئ الأمر كرها لكثرتها بسبب وجود المركز العسكري إلى انتشار العديد من العملات داخل القبيلة وهو ما أدى إلى تطور كبير للمعاملات بشتى أصنافها.

أما الزراعة فكانت ضعيفة كما هو الشأن في سائر البلاد الصحراوية التي لا توجد فيها الواحات.أما الصناعة غير المتطورة والتي تقتصر على حاجات البدو فتنحصر كلها في طبقة الصناع وهي من الفئات الموجودة في أسفل الهرم الاجتماعي . ولا تختلف الصناعة عند أولاد ابييري عنها في القبائل البيظانية الأخرى .

أما الآبار الرئيسة التي يسقى منها أولاد ابييري مواشيهم فهي على نوعين:

أ– الآبار السطحية : وتوجد بالمفرد أو بالجملة ويتراوح عمقها بين متر واحد و15 مترا، وتسمى بالعامية "العقلات" أو "الحسيان" ومفردها "حاسي".

ب- الآبار بالمعنى الدقيق للكلمة، وتكون عادة متباعدة ويتراوح عمقها بين 25 و60 متر،وتسمى بالعامية "الابيار"ومفردها "بير".

والآبار الرئيسة الخاصة بكل عشيرة محددة في الوثيقة المكرسة لهم أعلاه. ولئن كانت تلك الآبار ملكا للعشيرة فإن استغلالها يكون مشتركا لدى القبيلة بأسرها . ويوجد علاوة على ذلك بعض الآبار التي تعود ملكيتها واستغلالها المشترك إلى عامة القبيلة.

والآبار الرئيسة هي: بير الله وعمقه 27 مترا، معليلة 30 م، المغري 30م، النقورة 32 م، القريات 30 م، بوتورجه 25م، بوحفرة 25م، التاديشة 26م، تاطرات 25م، المنبوع 25 م، التويرسات 23م، سويدي 24م، إيغرم 4م،الناقة 2 م، بالغربان 7 م، حسي الجدي 6 م، لمبيديعة 5م.

وبلغ عدد المدارس القرآنية ، التي تم إحصاؤها سنة 1912م 37 مدرسة، وبلغ إجمالي طلابها 348 طالبا . وتحتوى هذه المدارس-الخيم عادة على عدد يتراوح بين 5 و15 طالبا في الخيمة الواحدة.ولا توجد مخيمات واسعة للأطفال . ولا يدخل السواد الأعظم من الأطفال، ذكورا أو إناثا الذين يتلقون تعليمهم مباشرة على يد أبويهم، في العدد المشار إليه وهو 348 طالبا وبالتالي فهم لا يذهبون إلى المدرسة . وعلى الرغم من أن التعليم عادة ما يكون مجانيا في المدارس، إلا أن العادة جرت بدفع مساهمة محددة يومي الاثنين والأربعاء حيث يأتي الطفل عند قدومه إلى المدرسة بكمية قليلة من الذرة، في حين تبعث الأسر الموسرة أكثر من ذلك، وبذلك يطعم التلاميذ معلمهم .

رابعا- نفوذه:

يعد نفوذ الشيخ سيديا كبيرا وهو يشمل القبائل البيظانية وبلاد السودان في السنغال وغينيا على حد سواء.

1- نفوذه في موريتانيا :

يغلب نفوذ الشيخ سيديا بالتأكيد على موريتانيا من نهر السنغال إلى شمال ولاية آدرار، ويحظى اسمه فيها باحترام كبير . فلا تزال توجيهاته واقتراحاته، حتى وإن خرجت عن المجال الديني، مسموعة بنوع من الإجلال، ومطاعة بسرور في أغلب الأحيان.

1- نفوذه في الترارزة:

ومن الطبيعي أن يكون تأثيره الروحي في الترارزة، حيث يؤدى حضوره ووعيه إلى تجديد الشعور الديني، أقوى من غيرها أولا لدى المحاربين أولاد بن دمان ولدى أولاد دمان وبالأخص لدى الفرع الأكبر من عائلة الأمراء (أهل محمد الحبيب). ويمثل الفرع الأكبر حاليا سيدي ولد محمد فال الذي لا يزال خارجا على السلطة في منطقة تيزنيت، وأخوه الأصغر أحمد ولد الديد قائد الجيش الشعبي المحلي (goum)[23] لعشائر بني حسان في أبي تلميت.ولم تتأخر مساعي الشيخ سيديا – التي كانت قد أدت إلى خضوع الأخ الأصغر للفرنسيين — في إخضاع الأخ الأكبر بدوره على أي يضمن له الحصول على وضع مناسب إن أمكن .

وقد ظل مخيم الشيخ سيديا طوال فترة الصراعات الداخلية الكثيرة والدامية، التي مزقت أوصال عائلة الأمير محمد الحبيب منذ اغتياله سنة 1861م، في أغلب الأحيان ،ملاذا للمقهورين واليتامى. وكثيرا ما مارس الشيخ سيديا ،الذي كان يتمتع مخيمه باعتباره المسؤول عن وضع حد للفوضى الدائمة في موريتانيا،"حق الحماية"، الذي يذكرنا كثيرا بـــ "حق اللجوء" الذي وفرته الكنائس والمعابد في حكم فرانك والمجتمع الإقطاعي . وقد لجأ إليه أيضا تائبا إلى الله أحمد ولد أوبّي وهو آخر من بقي على قيد الحياة من أهل اعلي ولد الخمليش الذين أبيدوا جميعا سنة 1861م على يد أبناء الأمير محمد الحبيب الذي كان هؤلاء قد اغتالوه لتوهم .

[23] التابع لفرنسا (المترجم).

وبالمثل آوى الشيخ السيديا ابني الأمير محمد فال القاصرين وهما سيدي ولد الديد وأحمد ولد الديد وأنقذ حياتهما بعد اغتياله سنة 1886م .كما آوى كذلك في مخيمه سنة 1900م سيدي محمد ابن محمد بونا ولد اعلية زعيم أولاد أحمد بن دمان، الذي كان الأمير أحمد سالم الثاني قد اغتاله لتوه عن طريق أحمد ولد ابراهيم سالم.

ولم يكن ثمة بد من أن تؤدي صداقة الشيخ سيديا هذا مع الفرع الأكبر لعائلة الأمراء حتما إلى فتور معين مع الفروع الصغرى التي يمثلها حاليا الأمير أحمد سالم الثالث ابن ابراهيم سالم . لكن هل يعزى ذلك أيضا إلى أن الأمير يتلقى الدعم من طرف الخصم الديني للشيخ سيديا وهو الشيخ سعد بوه زعيم الطريقة الفاضلية في الجنوب.

****

أما لدى الزوايا فإنك لتشعر بدعم كامل للشيخ سيديا في قبائل تاقنيت، وأكبر تلاميذه في تلك القبائل : سيدي محمد الطالب وأخوه محمد أحمد ابني اتشفاغة الحماد. يوجد ضريح أبيهم في الظهر ، وإيدا بالحسن، وأشهر تلاميذه فيها : الشيخ الحسن وهو شيخ القبيلة سابقا، وكذلك أبناؤه الكثيرون، وابنه بالتبني عبد الله ولد حبيب الله وهو من العشيرة الفرعية إيدا وقشالا، وهو بائع متجول في السنغال وموريتانيا للكتب العربية التي يشتريها من التجار المغاربة عند مرورهم بالبلدين. وللشيخ نفوذ جزئي لدى إيداو الحاج و تاگونانت، وقليل عند تندغة.

****

ويجب علينا أن نشير إشارة خاصة إلى أولاد ديمان، الذين أسس فيهم شيخ كبير هو الشيخ سليمان تلميذ الشيخ سيديا الكبير وصديقه، فرعا لقادرية الشـــيخ سيديا سنة 1850م. و شجرة نسب هذه العائلة – التي تدّعي كما هو الشأن لدى أولاد ديمان عموما الانتماء إلى الخليفة أبي بكر رضي الله عنه، انطلاقا من الجد ديمان الذي تسمت القبيلة باسمه،

وهو ابن حفيد محمد اعمرر الشقيق الثاني من أبناء تشمشة الخمسة [24] – هي على النحو الآتي:

ديمان

محمد   يعقبان الله (جد أولاد يعقبان الله)   أحمد أبو محنض

↓

سيدي الفاللي(جد أولاد سيدي الفاللي)   بارك الله (جد أولاد بارك الله)   بابا أحمد (بونية أبو ميجه)

الفاضلي

محمد عيفرة

أحمد سالم

الشيخ سليمان المتوفى سنة 1862 م

أحمدُ المتوفى سنة 1884 م

سيديا أبو مدين   الشيخ سيد

أحمد سالوم (29 سنة)   سيد أحمد (27 سنة)   الجواد (25 سنة)   الشيخ سيديا (20 سنة)   أحمد (18 سنة)   أبو مدين (16 سنة)   محمد (13 سنة)   سيدي المختار (7سنوات)[25]

والشيخ سليمان الذي ينتمي إلى عشيرة أولاد يعقبان الله، إحدى العشائر الفرعية في قبيلة أهل بارك الله،هو عالم جليل مات سنة 1862 م تاركا خلافته الروحية لابنه الشيخ أحمدُ، وهو بدوره عالم جليل ألف كتبا

---

[24] انظر شجرة النسب الكاملة لأولاد ديمان في الملحق رقم [6]. .

[25] يمكن اعتبار شجرة نسب أولاد ديمان، حالها حال جميع سلاسل نسب الزوايا البربر، صحيحة ربما وصولا إلى الجد البربري وهو بالمناسبة محنض أو محمد اعمرر وهو أحد الإخوة الخمسة أبناء تشمشة القـــادمون مـــن سوس بالمغرب، أو على الأقل وصولا إلى حفيده ديمان وهو الجد الذي تسمت به القبيلة.أما ما وراء ذلك فإن نسبة البربر إلى سلالة عربية إنما هو محض اختلاق.

مختلفة يتعلق أحدها بأصول القبائل الحسانية وقبائل تشمشة الموريتانية[26]، أما الكتب الأخرى فهي كتب دينية. ويتمتع الشيخ أحمدُ بنفوذ كبير سواءا في القبائل الزاوية أو الحسانية مثل أولاد أحمد بن دمان. وكان بالفعل قد تزوج إحدى بنات عائلة الأمراء أهل اعل شنظورة تسمى خديجة بنت أحمد ولد الليقاط.وقد ظل على الدوام على صلة روحية بأستاذه الشيخ سيديا الكبير. توفي سنة 1884 م ودفن في تين يخلف حيث يشكل ضريحه مزارا رئيسا يؤمه الناس.

وقد خلفه ابنه الأكبر محمد الذي عادة ما يطلق عليه الفرنسيون، على الأقل، اسم جده الشيخ سليمان، ويبلغ الآن من العمر إحدى وخمسين سنة، وتسمى أمه خديجة. يوجد مخيمه في ضواحي ساقية بودفية على بعد مسيرة يوم شمالي المذرذرة. وهو رجل في غاية الذكاء، عالم، وحسن المشورة [27] . وقد أظهر في مرات عدة قوة وطاقة روحية. ولا مراء في أنه شخصية متميزة. وكان يحلم في بداية احتلالنا لموريتانيا سنة 1903م بتوسيع نفوذه بحيث يقسم القبائل البيظانية إلى أكبر عدد من القيادات الدينية. عين فيما بعد سنة 1906م، عندما أنشئت القيادات الكبرى لقبائل الزوايا في منطقة الترارزة، شيخا أعلى لعامة أولاد ديمان، وكذا العشيرتين الأخريين من تشمشة الخاضعتين آنذاك للنفوذ الفرنسي وهما : إيديقب وأهل بارك الله، فكان في ذلك مفيدا للغاية، ونجح في استمالة كل العشائر المشتتة في هذه القبيلة المهمة إلى جانبنا الواحدة تلو الأخرى.إلا أن غيرة بعض مرؤوسيه، وعداوة بعض خصومه الطموحين ومكائدهم، قد أوصلت إلى حد لم يتأخر فيه مواجهة انقسام قيادة القبيلة وهو ما وافق عليه الشيخ سيدي محمد عن طيب خاطر في سبتمبر سنة 1911م . لكنه

---

26 كنفدرالية تشمشة وهي عبارة عن خمس قبائل صنهاجية دخلت في صراع مرير تحت قيادة ناصر الدين مع قبائل بني مغفر (المغافرة) العربية في حرب شرببّه المشـــهورة الـــتي أشـــرنا إليهـــا ســـابقا.وهـــذه القبائـــل هي:إيديقب،أولاد ديمان،إيداتشفاغة،إيدوداي،إيدقبهي (المترجم).

27 القول بأن البربري له أصول عربية هو محض افتراء:انظر في هذا الخصوص:
René Basset ,Mission au Sénégal ,fascicule III,p.449.

ظل زعيما لعشيرته الفرعية أولاد بارك الله . وقد خرج أحمد سالم أكبر أبناء سيدي محمد الثمانية على السلطة الاستعمارية الفرنسية سنة 1906 م برفقة صديق الطفولة والدراسة سيدي ولد محمد فال زعيم الفرع الأكبر من عائلة أمراء الترارزة . ولم تثمر كل المساعي التي بذلها أبوه لثنيه عن عزيمته ، فحزن الشيخ لذلك فهو لم يكن يوافق على هذا الوضع المؤسف، فأعلن أن أحمد سالم يقوم بدراساته العليا في مراكش . وقد ترك ذلك الشاب أبناءه عند والده .

ويعيش أبناء الشيخ سيدي محمد الآخرون في كنفه باستثناء أبي مدين، التلميذ السابق في مدرسة سنت لويس ، والذي يدرس الآن في مدرسة أبناء الشيوخ بأبي تلميت، ومحمد الذي يوجد في المذرذرة ذاتها ويدرس في المدرسة الفرنسية.

وقد خرج على السلطة الاستعمارية الفرنسية، الشقيق الأكبر من شقيقي الشيخ سيدي محمد وهو الشيخ سيديا الذي كان يسمى بهذا الاسم تيمنا بالشيخ سيديا بابا منذ سنة 1908م. وكان قبل ذلك من أنشط أعوان كبولاني Coppolani وبقي في مخيمه الذي لم يقع احتلاله سنة 1905م وعاش فيه حتى سنة 1908م يتآمر ويبحث عن دور فيه. ذهب إلى الحج في ذلك التاريخ، واستقر لبعض الوقت في آدرار ثم سافر إلى مراكش ليستقر هناك ويعيش حياته بصفته شيخا عالما. وبعد إقامة دامت عدة أشهر في مراكش هبط في اتجاه تيزنيت وتوقف عند قائد المخزن عيد الجراري ووصل أخيرا إلى تيزنيت، حيث لا يزال يعيش هناك في حاشية ماء العينين. كان مستشارا محبوبا ومسموع الكلمة عند ابن أخيه الأمير أحمد سالم والأمير الشاب سيدي. ويشكل ثلاثتهم هم وعبيدهم آخر تجمع في الترارزة لا يزال خارجا على السلطة الاستعمارية الفرنسية وقد تزوج سيديا بنت النحوي من أهل اتفاغة الخطاط وأنجبت له ولدا.

أما أبو مدين الإبن الثالث من أبناء الشيخ أحمدُ، وهو صهر الشيخ سيديا،فيعيش في مخيم هذا الأخير.

وقد تعزز النفوذ الروحي للشيخ سيدي محمد بشكل كبير لدى قبيلة أولاد ديمان الذين يخضع الكثير منهم لزعامته الروحية. وأولاد يعقبان الله كلهم تقريبا أنصار لطريقته. أما بقية عشائر أولاد ديمان فهم متحررون من الروابط الصوفية ويتباهون بصحة إسلامهم وعدم انتمائهم إلى أي من الطرق الدينية.

وقد جعلت الثروات الرعوية الوفيرة التي يمتلكها الشيخ سيدي محمد (قطعان الماشية والعبيد) وأهمية الحرمة (الجزية) التي يحصل عليها من تلاميذه آزناكة، وعلاقات القرابة التي تربطه بأمراء الترارزة، وشهرته بالعلم والتدين، من مخيمه واحدا من أكثر المخيمات نفوذا في منطقة الترارزة. وكان الأمراء يختارون بإرادتهم مستشاريهم السياسيين والشرعيين من أسرته. ويتحدث الناس أيضا عن التأثير الذي مارسه أحد أبناء عمومة الشيخ سليمان —وهو محمد بابا ولد اعبيد من أولاد يعقبان الله طوال حياته كلها— على فكر الأمير محمد الحبيب (1827- 1861م) الذي كان قاضيا له.

وقد ورث الشيخ سيدي محمد عن أبيه أحمدُ بعض الطلاب في بلاد السودان. لكن بما أنه لم يكن يهتم بالدعوة إلى الدين، فإن نفوذه من هذا الجانب، قد بدأ في الانحسار. ومن أهم أتباعه امباكي گي الذي كان يقيم في جلف Diolf منذ سنين وهو يقيم الآن في باول Baol (من أعمال لا La)، وما مادو مام الذي مات لتوه، لكن ابنه الذي يتزعم منطقة آهلة بالسكان لا يزال تلميذا لأولاد ديمان وهو يقيم بكوكي (من أعمال كايور)، وأخيرا مامادو ديوب أندوي، وعبد الله سك وهم الثلاثة مزارعون في ريفسك وينتمون إلى مجتمع الليبو (Lebbou) وهم تلاميذ مباشرون لأبي مدين شقيق الشيخ.

ويمتلك الشيخ سيدي محمد علاوة على ذلك، في منطقة شمامة الموريتانية، قبالة دقانة عند تفرع سكام النهري، قرية من الزنوج الأفارقة

تسمى كير أهل سليمان، أهلها نصف عبيد ونصف تلاميذ، يعملون لحسابه في الحقول الزراعية التي تقام بعد فيضان النهر.

ويحتوى المخيم الذي يرأسه الشيخ سيدي محمد العشائر الفرعية التالية التي تم إحصاؤها وتسجيلها لدفع ضريبة الزكاة سنة 1913م على الأرقام الآتية:

أهل الشيخ سليمان	1.606.30
أهل امبارك	250.05
التياب اعبلّة + أهل المختار	273.90
التواجين	306.30
أهل المعروف	139.50
التياب أهل عتام	227.5
المجموع	2.808.15

وقد أعطى إحصاء العشور في نفس المخيم الإحصائيات التالية:

لوقان كبيرجيد..105

لوقان كبير رديء..36

لوقان صغير جيد..31

لوقان صغير رديء..11

وقد بلغ إجمالي العشور 14.125 كيلوغرام ، 4.237 كيلوغراما منها من الذرة منها 750 كلغ دفعت عينا، والبقية دفعت نقدا بمبلغ يصل إلى 988.75 فرنك فرنسي.

أما الآبار الرئيسة للشيخ فهي في الجنوب وهي: بودفية (15م)، وهو مركز إشعاع أولاد ديمان منذ قرن من الزمن، العقلات، والنوشارة (2 م)،

حاسي أعمر (6م)، وفي التل (الشمال) : عقلات آمنيقير، بير المحرث، وتين يخلف.

****

ولم يبق ممن تجدر الإشارة إليهم من تلاميذ الشيخ سيديا الأساسيين في منطقة الترارزة سوى عائلة الحاج ابراهيم في تين تمرزين وفي بل المحرث.

وكان الحاج ابراهيم الذي توفي في الآونة الأخيرة قد ولد على حد قوله ببغداد حوالي سنة 1853 م. و بعد أن حج بيت الله الحرام قدم إلى إفريقيا طلبا للرزق، فأقام في طنجة بعض الوقت، وانتهى به الأمر إلى المجيء إلى غينيا حوالي سنة 1875م. فلم تنجح تجارته إلا نجاحا جزئيا فعبر غينيا والسنغال في اتجاه موريتانيا واستقر في مخيم الشيخ سعد بوه في اتويزكت حوالي سنة 1880م. وهناك ولد أبناؤه جميعا : الأكبر مولاي، وهو رئيس العائلة في الوقت الحالي، وابنا آخر وخمس بنات. ثم جاء ابراهيم بعد عشرين سنة من ذلك التاريخ لينصب خيمته في مخيم الشيخ سيديا ويستقر به نهائيا. وكان على وجه الخصوص معلم مدرسة، تعلمت على يديه أجيال كثيرة، واحتفظت بذكرى رائعة عنه.

ويعيش ابنه مولاي في تمرزين على شهرة والده، إلا أنه تعلم بما فيه الكفاية حتى لا يكون محل استغراب في الأوساط البيظانية. وأخذ في جمع الهدايا التي كانت تقدم لأبيه، وسعى للحصول على هبات أخرى في بلاد السودان. وهو يعمل الآن في السنغال على بناء مكانته باعتباره شريفا من آل البيت وهو ما لم يتحدث عنه والده، وهو يدرك جيدا أن تلك الميزة تكاد تكون ضرورية للنجاح لدى الشعوب الإفريقية السوداء الداخلة في الإسلام.

ويؤكد مولاي ولد الحاج ابراهيم أنه التقى في طفولته في توزيكت بالمستكشف فابير Fabert سنة 1894م الذي سمى نفسه بسيدي مسلم، وتلقى بعض الدروس في اللغة الفرنسية على يديه. وكان لمولاي ولد

الحاج ابراهيم بفعل فطنته وذكائه، على الدوام علاقات طيبة مع السلطات الفرنسية في الدائرة. ولم يكن يمل من الاعتماد على الشيخ سيديا. وكان عندما يتنقل في رحلة إلى السنغال لجمع الهبات يبقى في بعض الأحيان شهورا عدة في قرية واحدة ليعلم أهلها.

2- نفوذه في البراكنة:

للشيخ سيديا نفوذ كبير في منطقة البراكنة. وهو يمارس ذلك النفوذ أولا بشكل كبير لدى أولاد أحمد الذين هم — كما أوضحنا سابقا- أبناء عمومة أولاد ابييري وحلفاؤهم التقليديون في حروبهم القبلية. وقد استفاد فرعا الأسرة الحاكمة في عشيرة أولاد بوبكر في تلك القبيلة وهما أهل اهميمد وأهل امبارك ولد سيدي من خدماته. فبواسطته وبعد محاولات عدة خضع الإخوة الأربعة : صنيبه، اهميمد، وسيد احمد، ومحمد أبناء أمبارك ولد سيدي ولد بوبكر للمستعمر الفرنسي في الفترة الفاصلة ما بين عامي 1909و1912م. بل إن الأخ الأكبر صنيبه وهو الزعيم السابق لأولاد أحمد، والرئيس السابق للجيش الشعبي المحلي الفرنسي، قام عند عودته من المغرب سنة 1912م باعتزال الحرب عدة أشهر عند الشيخ سيديا معلنا "توبته إلى الله" أي التخلي عن حياة المحارب والتحول إلى زاو يطلب العلم والمعرفة. وكان في الإمكان ألا تتحقق قرارات التوبة والتدين هذه، النابعة من فشل بعض الطموحات، لو تغيرت الظروف.

أما زعيم الفرع المنافس بيرام ولد اهميمد، وهو الشيخ الحالي لأكبر عشائر أولاد احمد،الذي قاد جيوشا شعبية محلية في العديد من المرات إلى جانبنا، فقد سجن في كولخ [بالسنغال]مدة ثلاث سنوات عام 1907م بسبب مساعدته لبكار ولد احمياده أمير أولاد نغماش على الهرب.

وكان تدخل الشيخ سيديا لصالحه ، أيضا في هذه المسألة، هو الذي أدى منذ سنة 1908م إلى تخفيف عقوبته.

وقد امتد نفوذ الشيخ سيديا أيضا، نتيجة لعلاقاته الطيبة مع قبيلة كنتة في أزواد [بمالي] وهم الأساتذة الروحيون لجده، ليشمل عشائر كنتة الثلاث المشتتة في منطقة البراكنة :كنتة المتغمبرين (أبناء المتغمبر)، وكنتة البكائية الذين يسمون أيضا بأهل الشيخ سيدي المختار، وهم الجيل الرابع المنحدر مباشرة من الشيخ الكبير سيدي المختار الكنتي المتوفى سنة 1811 م، عن طريق نجله باب احمد، وأخيرا كنته أولاد بوسيف وهم فصيلان : "الكحل" (السمر)، وهم قوم أبرز أتباعه وتلميذه السابق محمد ولد سيديا ولد أحمد، قاضي العشيرة ؛ و"البيض"، لكن نفوذه كان أقل في أوساط هؤلاء .

3- نفوذه في تگانت :

ويظهر نفوذ الشيخ سيديا بقوة في مختلف عشائر قبيلة كنتة في تگانت: أولاد سيدي الوافي، وأولاد سيدي بوبكر، وأولاد البح، وأولاد التناكية، وأولاد سيدي حي بالله.

وكان الزعيم الكنتي العجوز المختار ولد الحامد، زعيم أولاد سيدي الوافي، قد تلقى من كبولاني Coppolani كل أصناف المنافع. وكان هو وقومه قد دعوا من الحوض وعادوا إلى الاستقرار ثانية في الأراضي البور القديمة التي كان إيدوعيش قد طردوهم منها، واستطاعوا أن يعيدوا فيها تشييد قراهم ومساكنهم : الرشيد وقصر البركة.

وإذا كان المختار ولد الحامد لم يستطع أن يورط معه في خيانته [28] التي لا تغتفر في نهاية اكتوبر سنة 1906 م معظم العشائر الخاضعة لسلطته، فإننا مدينون في جزء كبير من ذلك للشيخ سيديا. فقد أدى تدخله المتكرر إلى إبقاء العديد من زعماء العشائر الكنتية الأخرى مثل محمد

[28] يشير المؤلف بهذه العبارة إلى انقلاب بطل المقاومة الوطنية المسلحة المختار ولد الحامد علـــى المـــستعمر وإعلان مقاومته بعد أن حصل منه على بعض الأسلحة والعتاد (المترجم).

المختار ولد محمد آبه شيخ عشيرة أولاد التناكية، وصمبارة ولد خطار، شيخ أولاد سيدي بوبكر، وسيدي ولد سيدي محمد شيخ أولاد البح، ومعظم عشيرة أولاد سيدي حي بالله، تحت إمرة سيدي محمد ولد سيدي احمد بسبب غياب شيخهم، على الطاعة والولاء لفرنسا. ولا بد من الإقرار من جهة أخرى بأن هؤلاء الزعماء لم يكونوا يحبون أبدا تسلط الشيخ محمد المختار، رغم أن البعض منهم مثل صمبارة والكثير من قومه تلاميذه الروحيون. ومنذ ذلك اليوم لم تتوقف تلك العلاقات الجيدة عن التطور، ولم ينفك رسل الشيخ سيديا وتلاميذه، الذين كانوا يتوجهون إلى تشيت وولاته وكنته آزواد من البقاء لبعض الوقت في كنتة تگانت.

****

يجب أن نذكر كذلك العشائر الزاوية الصغيرة مثل أهل لبّات وآسكارة، وأخيرا القبيلة المحاربة الكبيرة إيدوعيش التي كان يشملها نفوذ الشيخ سيديا ولو بشكل جزئي جدا. ويظهر ذلك النفوذ على الأخص بشكل محسوس لدي عشيرة أهل اسويد احمد الحاكمة، أمراء إيدوعيش سابقا، والتي يعود أحد أفرادها وهو عبد الرحمان ولد اسويد احمد الزعيم الحالي لعشيرة أبكاك. ولعبد الرحمان هذا وإخوته الكثيرون،الذين يجدر بنا أن نشير منهم إلى عثمان والحسين خاصة، علاقات متواصلة مع الشيخ سيديا، ويتبادلون معه المراسلات والرسل والهدايا.

****

ولا ينتمي التجمع العجيب للمتعصبين [29] القظف، الذي يقع مركزه في أوجفت،(آدرار) ولكنه يعيش الآن حياة الرحال في تگانت، والذي يعلن أنه على الطريقة الشاذلية، إلى طريقة الشيخ سيديا. وهم يشكلون مجتمعا صغيرا شديد الانغلاق والخصوصية، يمارس نوعا من التصوف

[29] نشير إلى أن لفظ التعصب من الألفاظ التي اقترنت في لغة المؤلف بروح المقاومة ورفض الاستعمار الفرنسي (المترجم).

المتطرف، والانحلال الخلقي الشنيع. وينبذهم الشيخ سيديا تماما من الناحية الدينية. ومع ذلك أقام أخوه سيدي المختار مع شيخي هذه الطريقة الدينية الجديدة، وهما الغزواني ومحمد الأمين ولد سيدي، علاقات صداقة ومصلحة في آن واحد.

****

ويوجد في واحة تشيت شرقي تگانت، تجمع صغير من الشرفاء تحت سلطة محمد الأمين ولد الشيخ المختار، خضع بنوع من الانقياد لنفوذ الشيخ سيديا الذي يتبادل معه الرسائل بشكل مستمر ويستعير منه الكتب. وقد أظهر ذلك الشريف الثري العالم، الذي هذبه الشيخ، منذ قدوم كبولاني Coppolani إلى تجگجة، التي قدم إليها دون تأخير لإعلان خضوعه، موقفا مواليا للفرنسيين لم يحد عنه إلى يومنا هذا .له بعض الطلاب[30] يقدر عددهم بعشرين طالبا.

4- نفوذه في آدرار:

لقد نصح الشيخ سيديا بشدة باحتلال آدرار. وكان يرمي من وراء ذلك إلى تحطيم وكر الغاصبين والخارجين على السلطة الذين لم يهابوه، وكان يرغب في استبداله بنفوذه هو الصامد بصعوبة أمام سلطة أهل ماء العينين المظفرة. وقد أثمر ذلك جزءا كبيرا من النتائج التي كان يتوخى الوصول إليها .حيث يوجد نفوذ الشيخ سيديا، الذي أصبح كبيرا في الوقت الحالي، لدى القبائل التالية:

أ- **إيداو علي** : نجد أن نفوذه قليل لديهم بالنظر إلى الطابع الخاص لهذه القبيلة. ويتعلق الأمر ،في هذه الحالة، بتجمع صغير منحدر من شنقيط ويعيش في أوجفت برأسه الشيخ محمد الحسيني ولد بابا ولد فال

30 في النص بعض الزبناء التربويين (المترجم).

الخير. ولهذا الشيخ، القادري الوحيد ضمن عشائر إيداو علي كلها، علاقات مستمرة مع الشيخ سيديا. وقد أرسل إليه مرات عدة وبخاصة في عام 1912م بمواشيه وتلاميذه على إثر وقوع بعض الاضطرابات والجفاف والمجاعة في آدرار.

ب- **كنتة ودان** : وشيخهم الحالي هو سيدي ولد الشيخ ولد سيداتي ولد سيد احمد . وقد ارتبطت هذه العشيرة الكنتية القوية والثرية من كنتة آدرار بعداوات مع أبناء عمومتها في آزواد (بمالي). وكانت على الدوام في صراع مفتوح تقريبا مع الفاضلية في موريتانيا سواء أكانوا أهل ماء العينين أو أهل سعد بوه. وقد ساعد ذلك الوضع في تقريبهم من الشيخ سيديا الذي تربطهم به بعلاقات ممتازة.

ج- **قبيلة السماسيد** : وهي قبيلة شديدة الانقسام من منظور التبعية الروحية. ويتبع الكثير من تجمعاتهم الصغيرة طريقة الشيخ سيديا.

***

ولم يستطع الشيخ سيديا الدخول إلى قلب أمير آدرار الشاب أحمد ولد عيدّه[31] إلا بعد اعتقاله وسجنه بداكار، وهما الأمران اللذان ساعداه على ذلك.

وقد بذل الشيخ سيديا في السنوات الأخيرة،عندما بدأ الأمير يتألم من وضعه المهين،ومستقبله الغامض، جهودا لدعمه معنويا وماديا. فكان الشيخ سيديا، مدفوعا بالحس الواقعي، من أوائل الذين نصحوا بإعادته على إمارة آدرار. والآن وبعد أن استعاد سيد أحمد ولد أحمد عيدّه بيد من حديد قيادة القبائل، أصبح الشيخ سيديا في وضع مناسب للمطالبة بثمن لخدماته السابقة، مبرهنا على قدرته على تقديم خدمات جديدة، والتغلغل بقوة لا في قبيلة أولاد يحيى بن عثمان فحسب، بل في كامل المنطقة.

31 أحد أبرز رموز المقاومة الوطنية المسلحة في الشمال (المترجم).

تلك هي حصيلة نفوذ الشيخ سيديا في بلاد البيظان . ومع ذلك ينبغي ألا نهمل الإشارة إلى أن نفوذه قد ظهر بشكل متذبذب لدى قبيلة الرقيبات[32]، وبشكل أكبر لدى قبيلة أولاد تدرارين وهم موالي أولاد دليم. وإلى الشمال من ذلك اصطدم نفوذه بالسلطة الطاغية للطريقة الفاضلية لماء العينين على الساقية ووادي درعة ولم يستطع نفوذه اختراق ذلك الحاجز المعادي. لكن من اللافت للنظر، ضمن علاقات الشيخ سيديا الحميمة، وجود عشيرة صغيرة من الشرفاء تسمى التاوبلات تسكن في ضاحية أم جدور، كان جدهم سيدي علي الذي قدم إلى موريتانيا منذ خمسة وسبعين عاما، قد انخرط في الطريقة على يد الشيخ سيديا الكبير، واستقر معه إلى أن توفي، فعاد معظم أبنائه وأحفاده منذ ذلك الحين إلى عشيرتهم الأصلية، وبقي بعضهم في قبيلة أولاد ابييري، بل إن أحدهم كان من دعاة الشيخ وقد ذهب إلى موانئ غينيا وساحل العاج لممارسة التجارة ومات هناك منذ سنة. وقد ظلت العلاقات بين الشيخ سيديا وأولئك الشرفاء علاقات وثيقة جدا. وكثيرا ما يذهب بعض رجال انتشايت لزيارة أبنائهم من أمهات أولئك الشرفاء فيقيمون عندهم بضع سنين.

أما في الشرق فإن اسم الشيخ سيديا، على العكس من ذلك، مبجل في آزواد لدى قبيلة كنتة الذين يربطون أسرته وطريقته بطريقة شيخهم الكبير الشيخ سيدي المختار،فكانت علاقاتهما أخوية للغاية، ويلاحظ تبادل للمراسلات والهدايا بينهما. ويبدو أن حاجز الطوارق والتبو (Tebbou)، في اتجاه الصحراء الشرقية، هو الحد الأقصى لنفوذ الشيخ سيديا.

[32] وقد خضع ارقيبات الساحل مؤخرا للنفوذ الفرنسي تحت دعاية الشيخ سيديا،وساهمت دبلوماسيته في جزء كبير منها في تحقيق ذلك الهدف.

5- نفوذه في بلاد السودان :

لقد قامت سلطة الشيخ سيديا الروحية والزمنية في الجزء الواقع على الضفة اليمنى لنهر السنغال من منطقة شمامة (دائرة البراكنة- مندوبية بوقى) منذ أمد طويل . فهو سيد العديد من القرى السوداء (آدوابه) التي يقوم الحراطين والتلاميد والعبيد بزراعة الأراضي المجاورة لها في فترات فيضان النهر.وزعيم هذه "الآدوابه" في امبانيك هو التكروري إدريس ولد ممدو المنحدر من بوسيا (Bossea) . وتعد هذه الوظيفة متوارثة في عائلته الكانانكي،وقد خلف فيها عمه عمار الكبير . وهذه الأتاوات التي يقدمها هؤلاء إن لم تكن النسبة الأكبر فهي على الأقل الأضمن من مداخيل الشيخ سيديا.

وكان الشيخ سيديا الكبير في فترة مضت (حوالي سنة 1840م) السيد الروحي الحقيقي للمنطقة الممتدة حول النهر من خاي حتى سنت لويس.وكانت فوتا على وجه الخصوص المجال الذي يحظى فيه بالتفضيل على غيره من المشايخ الآخرين . إلا أن التكرور تحولوا بشكل جماعي في الفترة الفاصلة ما بين 1850م 1860م إلى طريقة الحج عمر [الفوتي] التجانية التي نشرها في فتوحاته في العالم الزنجي وظل الزنوج متمسكين بها. ومع ذلك لا نزال نعثر في فوتا على بعض التجمعات القادرية التابعة للسلطة الروحية للشيخ سيديا ومنها:

– في مقاطعة خاي : تجمع فوديه عبد الرحمان الذي توفي منذ سنوات في درامانيه . وقد جلبت كرامات هذا الشيخ له بدوره بعض الأتباع في كامو وقيدي ماغا.وأشهر هؤلاء الأتباع معلم المدرسة والإمام السرقللي : فوديه هارونا سيسي، الذي يبلغ من العمر 72 عاما وهو من سكان بوللي (من أعمال گيدي ماغا- سيليبابي).كان أبوه قاضيا في بلاد گنگارة، وشارك في معارك باكل وبادو ولاكي وقيمو سنة 1886م، وامتد نفوذ الشيخ ليشمل محافظتي بيران ودياوارا.

– والسرقللي مامادو واغو في قرية راس التابعة لمقاطعة حاي [مالي]

– وفي دائرة ماتام بمقاطعة گينار، تييرنو يورو بال وهو تكروري يسكن في انگويگيلون هو مقدم الطريقة في المنطقة .

– وفي مقاطعة دمغة، انطلاقا من قرية گونگل، [مالي]العلمودين الله (les El Modin Allah) وهو تجمع شيخ تكروري قديم هو تييرنو إبراهيم،كان تلميذا للشيخ سيديا الكبير. إلا أنه ادعى النبوة عام 1865م، وألف عصابة قوية وأعلن الجهاد، فحاربه منافسه عبدول بوبكر، وحاربه أيضا بوبكر سعادة زعيم البوندو وانهزم حوالي سنة 1866 في موندريه بالقرب من التفرع النهري بگري فتفرق أتباعه. وقد ذهب المغامرون منهم إلى نيورو، في حين استقر معه الباقون بالقرب من گونگل. وقد قتل تيرنو ابراهيم عام 1868م على يد عبدول بوبكر. إلا أن قومه ظلوا أوفياء لتعاليمه وشكلوا تجمعا صغيرا مواليا للشيخ سيديا.

– وفي دائرة سالدى التابعة لمقاطعة البوسيا في قرية ديانكتا،صيدو بن عبد الله وهو حفيد سيدي عمار من جهة الأم ، وهو مشهور بأنه مقدم الطريقة وزعيم أتباع الشيخ سيديا.وكان صيدو قد درس القرآن في زاوية الشيخ .

– وفي دائرة بودور تجمع تيرنو عاودي المتوفى سنة 1910م، الذي يحتوي على أحياء عديدة، وعائلة المريدين بلاوو، وهي عشيرة وان أوانبي. وقد بقيت هذه العائلة، على رغم أنف قوة الحاج عمر وبشكل من أشكال العناد مع الشيخ الذي تدخل في شؤونها وانتزع ملكيتها، متمسكة بإخلاص بطريقة الشيخ سيديا الكبير القادرية. لهذا السبب نرى أن الألمامي بيرام ثم ابنه الألمامي مامادو المتوفى سنة 1866 م، ثم ابنه ابرا الألمامي قد تتلمذوا على شيخ تين دوجه. أما الممثل الحالي للأسرة وهو آمادو مختارة ابن شيخ تورو الغربية السابق، ورئيس محكمة تورو، فقد تخلى عن التبعية الروحية للشيخ سيديا على إثر بعض المشكلات

الشخصية، وانضم بناءا على ذلك إلى الشيخ محمد فال وهو حفيد الشيخ الكبير محمد محمود ولد الشيخ القاضي وهو من قبيلة إيديلك، وزعيم تيار قادري قوي في البراكنة متفرع أيضا عن القادرية الكنتية.

ولا يكتمل جدول النفوذ الديني للشيخ سيديا في فوتا إذا لم نشر إلى عدد كبير من معلمي المدارس البيظانية الصغار المنحدرين من أولاد ابييري يدرسون القرآن لأطفال الزنوج على ضفاف نهر السنغال ووراء ذلك بعيدا في الداخل. وهم أعوان أقوياء لنشر الإسلام، وهم على وجه الخصوص ناشرون أقوياء لطريقة الشيخ سيديا. ومنذ عدة سنوات أخذ هؤلاء الدعاة المتواضعون لكن النشطين في التوجه أيضا على طول السكة الحديدية من سنت لويس إلى داكار. وقد انقسموا في تييس مع السكة الحديدية الجديدة وتوغلوا في باول وسالوم في اتجاه حاي. ونجدهم أيضا،علاوة على أولئك المتواجدين في المحطات النهرية في اللوغا وانقاي ومكّيه وكبمر وتيفاوان وتييس وروفسيك وداكار، ثم في خومبول وبامبي وديوربل حيث يبلغ عددهم الستة على الأقل، وفي گوساس وماليم، وآمبددي وخاي. ونجدهم أيضا على الساحل الصغير لنيانينغ وأمبور وجوول [في السنغال]. وهنا أيضا كما هو الشأن في غينيا وفي ساحل العاج وداوومى [بوركينافاسو حاليا]، استفاد المشايخ الموريتانيون مباشرة، في هجومهم السلمي وفتوحاتهم الدينية للعالم الزنجي، من التقدم الذي جاء به السلم الفرنسي عن طريق سرعة المواصلات وسهولتها.

ويملك الشيخ سيديا في المحافظات الواقعة جنوب نهر السنغال العديد من المستعمرات والأتباع. ويكفي أن نذكر أبرز الشخصيات التي تمثل مقدمي الطريقة وكذا رؤساء التجمعات.

– على الخط الرابط بين سنت لويس وداكار:

في سنت لويس : نذكر إمامي الجامع الكبير : إمام الجمعة محمدُ بن القاضي انجاي، وهو من الولوف، وإمام الصلوات الخمس مصطفى

ديوب، وهو من الولوف أيضا . ويشرف هذا الإمام ، علاوة على عمله، على مدرسة قرآنية في الجزيرة تضم 38 طالبا.

الحاج مامادو كمرا، الذي كان أخوه الحاج كمرا مقدم الطريقة سابقا في أتباع الشيخ سيديا من الولوف من سنة 1880 إلى سنة 1900م، وله العديد من الأبناء معلمون في مدارس گتْ اندرْ القرآنية.

مالامين سك المتوفى سنة 1912م والذي قسم ابنه مامادو وقته بين سنت لويس وديوربل (أحمد بمبا).

عثمان ديوب وجبريل ديوب والشيخ آمادو صار في اندر توت وثلاثتهم معلمون بمدارس قرآنية مزدهرة تضم ما بين 20 و110 طلاب.

أحمد حيدرة والحاج مالك صو في سنت لويس المدينة.

يسمَسْر في وصمبا دياري اندييي في گتْ اندرْ

الشيخ بالو في صور

وفي الأخير عائلة أبي المقداد التي كان أفرادها منذ فترة طويلة تلاميذ روحيين للشيخ سيديا.أما الشخصيات الأكثر شهرة في هذه العائلة والذين أسدوا منذ عهد فديرب Faidherbe خدمات جد متميزة لفرنسا هم في الوقت الحالي دودو سك الملقب بأبي المقداد وهو المترجم الرئيسي في القسم الموريتاني من سنت لويس، وهو فارس حاصل على وسام الشرف.

سليمان سك المتوفى سنة 1913م، قاضي سنت لويس، وعينينا سك رئيس محكمة سنت لويس الإسلامية، ويستضيف منـــزلهم أبناء الشيخ وأحفاده والشيخ نفسه عند مرورهم بسنت لويس .

وفي اللوگا: ما صمبا سيگا ديوب وهو تاجر ولفي من كايور.

وفي كبّمر:مامادو ديوب، مزارع وتاجرولفي.

وفي كللي : ماكا گي، وهو تاجر من الولوف وأحد أعيانهم في سنت لويس . ومومار گي ولفي من سالوم، معلم مدرسة وتلميذ سابق في زاوية أبي تلميت.

وفي أنگاي: مراد انضو وهو ولفي من سنت لويس،تاجر،وقاسم ففنا وهو تاجر من سرقلة.

وفي بير مامادو آن، تكروري مقيم في داكار ، وتاجر في بير.

وفي تيفاوان:بكاري، تكروري ورئيس الشرطة المحلية، يعتبر نفسه خادما مطيعا للشيخ سيديا .

وفي ساتي (من أعمال كايور، مقاطعة أمبول)عبد الله با، ولفي درس في فوتا التكرور ويشرف حاليا على مدرسة قرآنية يرتادها خمسة عشر طالبا.

وفي تييس: الشيخ تيدي مويلين، سمي بهذا الإسم تبركا بمخيم الشيخ سيديا الذي كان منصوبا عند ساقية تيدي مويلين (في الترارزة) عندما تلقى فيه الطالب المذكور دروسه.ولهذا الشخص نفسه الذي يحترف الزراعة العديد من الأتباع في منطقة تييس.

تفسير ملاّي، مزارع.

سليمان ديوف، تاجر ولفي.

شيخ كنتة، وسيدي تراولي، ومعمر فاي وهم معلمو مدارس وتلاميذ سابقا في زاوية أبي تلميت.

وفي روفسك : الحسين سيسى وهو من اللبو، معلم مدرسة، ومنل تياو، طباخ، ومحمدُ بندا تيام صائغ حلي.

وفي داكار : الفقيه محمد باجي، صوصي مقيم في حي الهوك، صانع الحجابات، و "معلم الأسرار" على حد تعبيره. وهذا الساحر الذي اعتنق

الإسلام هو مقدم الشيخ سيديا في قومية الصوص بالمدينة. ثم امبكا صار ولفي ومالك عمارات وقوارب صيد. وهذان المواطنان هما على حد تعبير الشيخ سيديا ممثلان رديئان لطريقته. وكانا يبحثان على وجه الخصوص عن استغلال الوضع لمصلحتهما الشخصية،ويكتفيان بإرسال هدايا مواضعة إليه؛ الحاج بابكر سي، وهو صوصي، تاجر في حي أنكوي مريم؛ مامادو ادجين معلم مدرسة وإمام جامع قادرية الشيخ سيديا في شارع قامبتا، في حي هوك. وهذا الجامع المحاط بأشجار الفكيس والباوباب هو جامع في غاية الجمال بصومعته الصغيرة ورسومه الجدارية وزخرفه الداخلي. وقد بناه والد مامادو ادجين منديامـا ادجين وتلاميـذه سنة 1900م. وكان مندياما هذا قد اعتنق الإسلام حوالي سنة 1860م على يد دعاة الشيخ سيديا الكبير المتحمسين : فكان هو وأقاربه النواة الأولى للمسلمين بداكار، وكان حتى وفاته الممثل الرسمي لأهل الشيخ سيديا بداكار. جبتر گي، وهو تاجر ومالك عقارات من قومية اللبو. نياكان باي، ويتبع في الوقت الحالي للشيخ سيديا بابا مباشرة. وأخيرا قاضي داكار سيدي عليون دجان رئيس المحكمة الإسلامية، وهو ولفي من سنت لويس، كان أبوه حبيب دجان قد تلقى الورد على يد الشيخ سيديا الكبير.

وفي داكار وغوري :سانغ نيانغ، وهو بائع حلي ومعلم مدرسة يملك عقارات في المدينتين، وهو الذي يرجع إليه الفضل في إيواء أبناء الشيخ وأحفاده وتلاميذه عندما يقومون بجولة للدعوة في المنطقة.

نفوذه على طريق تييس– خاي:

في خمبل : الحاج مامادو صار، ولفي من كايور،تاجر ورجل من الأعيان،سليمان ديوف،تاجر،وعلي ديوب تاجر صغير، وعثمان مزارع.

في بامبي : مصطفى ولد سيد الجيد، تاجرمن قبيلة أولاد ابييري – أولاد موسى.

في ديوربل ماگي گيْ، من اللبو تاجر مقيم في داكار وهو أحد ملاك العقارات في الحي الأوروبي.

في كولخ : سايادقي، تاجر ولفي من سنت لويس.

في مكة كوليبنتان (من أعمال نياني-أولي) محمد گي، وانجاي سك وهما تاجران من الولوف في فاليك (من أعمال سين)، ومولاي سيلا مزارع مسن يشرف على مجموعة صغيرة من الطلاب في لبور سين، وزعيم طائفة السرير الوثنيين وهو كومبا اندوفن وهو الآن يتعرض لدعوة محمومة من طرف الشيخ سيديا. ويبعث إليه الشيخ سيديا كل عام بصهره شيخنا وأبنائه محملين بالعديد من الهدايا مع عروض الصداقة، ودعوات للدخول تحت رعايته في "الطريق القويم" للإسلام فيرد البوري على المحاملات بمثلها ولا يزال مقاوما حتى الآن. ولكن بما أنه محفوف بمشايخ ومريدين ماكرين سينتهي به الأمر إذا لم يتم التدخل بالدخول في الإسلام هو وقومه جميعا، وهو أمر لا يبدو حتميا بالضرورة. ويتباهى شيخنا أصلا باعتباره في عِداد الداخلين الجدد في الإسلام.

نفوذه على الساحل الأطلسي للسنغال:

في جوَل : ماكودو سك، وهو تاجر من اللبو.

مافاتي امبي : تاجر، يمتلك أيضا دكانا في انگازوييل.

في أمبور : أحمد زروق تاجر من أصل عربي من أولاد ابييري، أكثر شهرة باسم آمادو دخاتي، وداخاتى هي الإسم التفخيمي المشترك الذي أطلقه الولوف على أولاد ابييري .

وكما نلاحظ فإن العالم الذي جنده الشيخ سيديا بواسطة اتباعه، كان على وجه الخصوص من التجار الولوف، باستثناء بعض التجار والصيادين اللبو في داكار وروفيسك. ويشكل هؤلاء التجار الحضريون المحتكين بالثقافة والناحبين السياسيين، نخبة صغيرة في المجتمع الزنجي، لكنها نشرت

بمهارة اسمها وطريقتها على كامل المحطات النهرية والبحرية أو على طريق السكك الحديدية في السنغال. أما الطلاب الآخرون فهم زنوج محليون انخرطوا في قضيته نتيجة للدعوة التي قام بها دعاته، وللتعاليم التي بثها معلمو المدارس من البيظان، أو نتيجة للسير على منوال الولوف المشار إليهم آنفا.

أما نفوذ الشيخ سيديا جنوبي نهر السنغال، فقد ظل يراوح مكانه. ومع ذلك لا يبدو أنه قد تضرر من التطور الذي حصل لطريقة الشيخ سعد بوه في الآونة الأخيرة. ولا يبدو أنه قد تطور بفعل العلاقات الطيبة التي تربطه بالشيخ بو كنتة في تيفاوان. وفي المقابل استفاد من الإشعاع المذهل الذي عرفته، منذ ربع قرن من الزمن، الحركة المريدية للشيخ أحمدُ بمبا ،وهو كاهن الدامل سابقا في كايور. وكان أحمدُ بمبا قد انضم إلى الطريقة القادرية حوالي سنة 1880 م على يد الحاج كمرا مقدم طريقة أهل الشيخ سيديا في سنت لويس، إلا أنه اعتبر تلك المباركة غير كافية فشد الرحال إلى تين دوجة سعيا للحصول على مباركة الشيخ سيديا نفسه، واستغل ذلك لإكمال دروسه على مدى أشهر عديدة.فمنح الشيخ سيديا للشيخ أحمدُ بمبا إذنا مكتوبا بتعليم طريقته. إلا أن المغامرات السياسية لهذا التلميذ المفرط في الطموح، لم تخل من إثارة بعض الاهتمام بعد ذلك من جانب الشيخ بمريده. فقد كلفه الأمر مرات عدة تقديم بعض التوجيهات الحكيمة له. ومن جهة أخرى كان أحمدُ بمبا يعلن دائما بأنه خاضع بتواضع للشيخ سيديا في الميدان الروحي. فقد تدخل هذا الأخير سنة 1902م لإعادته من الغابون، ثم استضافته في سهيوة الماء سنة 1903م، حيث كان قد سجن لتوه مجددا. وساعد في الأخير في إعادته إلى السنغال سنة 1907م. ويرتبط الشيخان حاليا بعلاقات ممتازة. فالشيخ سيديا يكن تقديرا كبيرا لأحمدُ بمبا إن لم يكن لإخوته جميعا، في حين يظهر أحمدُ بمبا محبة كبيرة لأستاذه السابق. ففي كل عام يبعث الشيخ سيديا بانتظام بأحد أبنائه أو بصهره شيخنا بشكل رسمي إلى ديوربل

لأخذ الزكوات الكثيرة التي جمعها الناجمة عن الواجبات الدينية. وفي ربيع سنة 1914م قضى أحمد ولد الشيخ سيديا وشيخنا والأستاذ المختار ولد داداه أكثر من شهر في ديوربل في حاشية أحمدُ بمبا. علاوة على ذلك عهد هذا الأخير إلى الشيخ بالتعليم العالي لأبنائه وللمتفوقين من تلاميذه الشبان. وكان ثمة تبادل دائم للمبعوثين والرسل والمراسلات بين ابي تلميت وديوربل عن طريق القوافل عبر كايور وبودور.

وللشيخ علاوة على ذلك عدد معين من الطلاب في البلدان الآتية :

أ- في غامبيا المستعمرة البريطانية : وأهم طلابه في هذا البلد : امباتي كاميا في مدينة باتروست، وهو تاجر حلي وبجوهرات، وآدم وهو زعيم نقابة معلمى المدارس القرآنية للقسم الذي يسكنه الأهالي من المدينة .

ب- في كازامانص : الحاج كاديالى في باكاداج ، وفوديه هري في ساندييرى

ج- في غينيا المستعمرة الفرنسية : في دائرة كانكان الشريف عبد الله ولد محمد وأخوه دينو رحيم وأصلهما من قبيلة تاقنيت (الترارزة بموريتانيا)، هائمان منذ عشر سنوات في غينيا العليا ويقومان بشكل مثمر وسري بالدعوة المتحمسة إلى الله وجمع الهبات. وقد أدينا مرات عدة من طرف المحاكم الأهلية.

في دائرة لابي: في مقاطعة دنگورا، تيرنو عليو بابا الجانغ من الفلان في لابي، وهو شيخ المقاطعة ورئيس محكمتها. ولا يعد تيرنو هذا في الحقيقة من أتباع الشيخ سيديا باعتباره تجانيا تابعا لإيدا وعلي القبيلة البيظانية، لكنه قضى بعض الوقت في حاشية الشيخ سيديا واحتفظ بعلاقات صداقة معه.

وهناك في منطقة توبا في كوتيبو شيخ ذا نفوذ كبير في توبا نفسها هو آمادو كاديالي واسمه باللغة العربية أحمد الغزالي في برداس.

د– في السودان (مالي) في دائرة باماكو، في مندوبية بانمبا: تجمع عمارو كابا دياكتيه في قومية الماركا في كيبا. وقد شد هذا المواطن الرحال إلى الشيخ سيديا في تين دوجه سنة 1898م وتفرغ للعلم والعبادة، إثر خلاف مع عمه يحيى كابا دياكتيه الذي انتزع منه زوجته.وفي عام 1905م رافق الشيخ سيديا إلى سنت لويس، ثم سافر بعد ذلك بوقت قصير سنة 1906م إلى كيبا بصفته مقدما لطريقة الشيخ سيديا في قومية الماركا في منطقة بانمبا.وهو يعيش الآن الحياة الهادئة التي يعيشها مشايخ الزنوج : ممارسة الزهد في الظاهر، والتصوف والجذب، وجمع الهبات وبيع الحجابات، والتدريس المتقطع للقرآن.

****

ولنختتم حديثنا تجدر الإشارة إلى أن للشيخ سيديا ممثلا بمكة المكرمة هو المكي عبد الله سنبل.وقد مضى على هذا التمثيل الآن ثلاثون عاما. فقد تعرف القاري خال الخليفة سيدي محمد ولد الشيخ سيديا في حجه إلى بيت الله الحرام على عبد الله سنبل. وسرعان ما توثقت علاقاتهما فاستضاف الثاني الحاج القاري أثناء مدة إقامته بمكة. فلما عاد القاري من الحج تحدث إلى قبيلته أولاد ابييري عن مضيفه. وتلت ذلك المراسلات بين الشيخ والمكي وانتهى الأمر إلى أن أصبح هذا الأخير الممثل الرسمي لأتباع الشيخ سيديا في مكة أثناء فترة الحج.وفي عام 1908 —1909م استجاب عبد الله سنبل لدعوات الشيخ فجاء لزيارته في أبي تلميت وبقي في مخيمه مدة خمسة عشر يوما. فدفع إليه الشيخ سيديا قيمة تكاليف السفر. ولم يخل ذلك السفر إلى بلد يحكمه النصارى[33] من عواقب مزعجة لعبد الله. فقد استدعي فور عودته أمام المحاكم المحلية وحكم عليه بالسجن لمدة شهر. ويقيم عبد الله سنبل بجوار الجامع الكبير [المسجد الحرام] الذي هو الكعبة المشرفة.

33 في النص بلد مسيحي ! (المترجم).

الخاتمـــــــة:

لقد احتل الشيخ سيديا في هذه الفهرسة للعلماء المسلمين الموريتانيين مكانة متقدمة إن لم تكن المكانة الأولى.وقد ساعده بقوة في ذلك أهميته الكبيرة من الناحية الثقافية،وخصاله الأخلاقية الرفيعة.وهو من هاتين الناحيتين يتمتع بشهرة مختلفة تماما عن تلك التي يتمتع بها الشيوخ الموريتانيون الآخرون مثل الشيخ سعد بوه. نحن نعرف بأن الشيخ سيديا لم يذهب أبدا بنفسه لجمع الزكوات والهبات لدى الزنوج. صحيح أنه كان ينتدب أبناءه وأصهاره وأبناء إخوته للقيام بهذه المهمة، لكنه لم يتدخل شخصيا أبدا في جولات الزيارة تلك التي كانت تدر أموالا طائلة لكن مع قليل من الشرف. وقد عرف الشيخ سيديا بالسخاء واشتهر به فكان يوزع تقريبا كل ما يحصل عليه من هدايا دينية ومعونات سياسية سواءا لمساعدة الفقراء الذين يأتون إليه يستغيثون به ،أو لإعالة تلاميذ الزاوية،أو عابري السبيل من الحجاج الذين يحلون بساحته.

ومع ذلك لا ينبغي الاعتقاد بأن أمواله كانت من القلة بحيث تضطره،كما كان يفعل في بعض الأحيان،إلى أن يستلف أوقية من الذهب،أو علبة من الشمع أو قالبا من السكر من المركز العسكري فذلك بالتأكيد نوع من المباهاة.ومع ذلك فإن وضعه بصفته زعيما للطريقة و"إماما" للزاوية يفرض عليه بعض الأعباء الثقيلة جدا ،وأنه كان قادرا على الاضطلاع بها بحكمة وتبصر.

وقد أدى به اتجاهه المتعاطف مع الفرنسيين مرات عدة إلى أن يكون عرضة لعمليات نهب يقوم بها منشقو الشمال ومتمردوه .لكن كان يتم التعويض عنها بمساعدة مادية ومعنوية سخية تمنحها له السلطة الاستعمارية الفرنسية ،وذلك بزيادة نفوذه الروحي في آدرار، وتسهيل حصول دعاته على الإذن بالقيام بجمع الهبات في بلاد السودان.

ويمثل هذا التفاهم الكامل بين السلطة الاستعمارية الفرنسية وبين واحد من أكبر ممثلي الإسلام في موريتانيا على العمل المشترك ذي النفع المتبادل،جانبا من الجوانب المشرقة للسياسة الإسلامية التي اتبعتها الحكومة العامة في إفريقيا الغربية، إذ أن الشيخ سيديا لم يكن يخاف من الانضمام إلى جانبنا.فلا شيء يمكنه أن يوضح المبدأ الأساسي الموجه لهذه السياسة أكثر من : توجيه الإسلام وتوظيفه في *البلاد الإسلامية* . ومن الواضح أن ذلك التوظيف لم يكن يتطلب سوى الظهور بمظهر التنسيق الأخوي عندما يكون المعني بذلك مستعدا له.

وقد أسدى الشيخ سيديا، باتجاهه المحب لفرنسا بشكل واضح،خدمة جلى لسلطتنا ولأتباع طريقته ولعامة الموريتانيين بشكل غير مباشر.فإليه يعود الفضل في إمكانية التنسيق في موريتانيا منذ الأيام الأولى لاحتلالها بين المسيحي والمسلم،وبين الإداري الفرنسي وشيخ الطريقة الإسلامية.

فقد سمح بتلبيته بسرعة وإخلاص لنداء كبولاني، ذلك السياسي الكبير، للشعبين والحضارتين والديانتين بأن يعرف كل منهما الآخر ويقدره.

فقد ساهم بخطوة جبارة وبشكل إيجابي تماما في التطور الذي عرفه حضورنا في موريتانيا بين سكان الصحراء.

الملاحــــق

الملحق [1]:

أذكار طريقة الشيخ سيديا:

تقرأ هذه الأذكار بعد الورد الذي يعقب كل صلاة من الصلوات الخمس.لكن المريدين لا يقرأونها جميعا خمس مرات في كل يوم.فلا يسمح للمريد زيادة عددها إلا بالتدريج بمقدار تدرجه في المراتب الصوفية إلى أن يصل في نهايتها إلى الكمال المشار إليه آنفا.

وتقرأ الأذكار بمساعدة السبحة العادية وهي كالآتي:

- حسبنا الله ونعم الوكيل مائتي مرة
- استغفر الله العظيم مائة مرة
- لا إله إلا الله الملك الحق المبين مائة مرة
- اللهم صل على محمد وآله وسلم مائة مرة

إلا أن المريد يصلى ركعتين عقب صلاة المغرب وبعد الانتهاء من الورد العادي وذلك قبل الانتقال إلى الأذكار المشار إليها على النحو التالي:

تكبيرة الإحرام وقراءة سورتي الفاتحة والكافرون ست مرات في الركعة الأولى،ثم السلام (إنهاء الجزء الأول من الصلاة).

ثم يكبر ثانية: ويقرأ في الركعة الأولى الفاتحة و سورة الإخلاص ست مرات .ثم يصلي ركعة ثانية يقرأ فيها الفاتحة وسورة الفلق وسورة الناس،ثم السلام (إنهاء الجزء الثاني من الصلاة).

ثم يكبر للمرة الثالثة:ويصلى الركعة الأولى ويقرأ فيها الفاتحة وآية الكرسي.ثم يصلي الركعة الثانية ويقرأ فيها الفاتحة والآيات من 21 إلى 24

من سورة الحشر﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ . هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ . هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ. هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ]
ثم السلام.

الملحق [2]:

السلسلة الروحية لطريقة الشيخ سيديا وهي امتداد للطريقة البكائية [الكنتية]:

الله- القلم- اللوح المحفوظ- الملك جبريل- محمد (ص)- علي – الحسن البصري-حبيب العجمي- داوود الطائي- معروف الكرخي (مسيحي اعتنق الإسلام)- الحسن- أبو القاسم الجنيد (وهو حفيد الكرخي من جهة الأم)- أبو بكر الشبلي- الشنباقي- أبو الوفاء الملقب بتاج العارفين- عبد القادر الجيلي أو الجيلاني- علي بن عيطة – عبد القاهر السهروردي- محي الدين [بن عربي]- عبد السلام بن مشيش- الشاذلي الشريف- الغزالي- ناصر الدين- ابن مرزوق التاجي- التلمساني- محمد بن العربي- الثعالبي- السيوطي- عبد الكريم المغيلي- الشيخ سيد اعمر- أحمد الفيرمي – محمد الرقاد (لقب بالرقاد لأنه كان يستطيع أن يعلم وهو نائم)- أحمد الرفيعة – علي بن عمر- أحمد بن عمر (شقيق علي)- سيدي الأمين الملقب بذي النقاب- سيدي علي بن النجيب الشريف- الشيخ سيدي المختار الكبير (المتوفى سنة 1811م)- الشيخ سيدي محمد (المتوفى سنة 1826م)-الشيخ سيديا الكبير (المتوفى سنة 1869م) الشيخ سيدي محمد الخليفة (المتوفى سنة 1870م)- الشيخ سيديا.

الملحق [3]:

رسالة حسننا ابن ماء العينين إلى الشيخ سيديا:

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

إلى الرجل المحسن الشيخ سيديا حفظه الله،سلام لا تسعه سماء ولا تحويه أرض.هدف هذه الرسالة هو إطلاعكم على أن المسلمين مثل ولد عيدّه (أمير آدرار) وأهل اسويد احمد (أمراء إدوعيش)،وأهل سيدي محمود وأهل امحيميد (زعماء مشظوف) قد وجهوا إلى الشيخ ماء العينين شكاوى ضد النصارى وطلبوا منه القيام بمساعي في صالحهم لدى سلطان المغرب.

وبما أن السلطان تلميذ للشيخ فإنه قد أخبر النصارى بأن بلاد البيظان خاضعة له وأن عليهم ألا يمتلكوها . ورد عليه النصارى بأن الأمر يتعلق ببلاد مهملة (pays abandonné) يجب أن تكون حقا للمالك الأول الذي يستقر بها إلا أن السلطان رد عليهم بأن الأراضي المتنازع عليها هي ملك له منذ عهد علي شنظورة (أمير الترارزة وجد قبيلة أولاد أحمد بن دمان)،وأن هذا الأخير كان لديه الطابع الذي أعطاه السلطان له.فطلب منه [البيض] الفرنسيون تقديم الأدلة اللازمة في بحر عام واحد،وهي الأدلة التي ينسحب النصارى بمجرد تقديمها ويعيدون له كل ما أخذوه من البلاد المذكورة.

وبناءا عليه فإن هذه الأحداث هي التي دفعت السلطان اليوم إلى إرسال بعثة على رأسها ابن عمه برفقة قائده وحاجبه.

وقد جاءت هذه البعثة للحصول على ولاء المسلمين ولتقديم الدعم بالسلاح والجند لمن يرغب منهم في ذلك.وعندما يتم الإعلان عن ذلك

الولاء لممثل الحضرة الشريفية،فإن هذه الأخيرة ستستخدمه دليلا يعزز أدلتها.

وستحل كل المشاكل عندما يرحل النصارى عن البلاد وإلا فالجهاد (الحرب المقدسة).وسيلقى الذين يدافعون عن دينهم الدعم،أما من ينحازون إلى فرنسا فسيعتبرون أعداء.

وقد حرصت على إبلاغكم في الوقت المناسب وطلب العون منكم لنصرة الدين.فعجل وتصرف بسرعة.

والسلام.

كتب بأمر من الشيخ ماء العينين في الخامس عشر من رجب سنة 1323 هجرية،الخامس عشر من سبتمبر 1905م.

توقيع حسننا ابن الشيخ ماء العينين.

الملحق [4][34]:

من الشيخ سيديا إلى صديقه الكريم النقيب وحاكم دائرة الترارزة في أبي تلميت:

بسم الله الرحمن الرحيم من سيدي محمد إلى حبيبه السيد الفاضل كابتن حاكم دائرة الترارزة سلام عليك.أما بعد فقد رأيت كتابك الكريم في أمر الرجل المسمى الحسين بن أحمد والمسمى الشريف أحمد وهذا الرجل لا أعرفه من تلاميذنا ولا من أولاد ابييري وأظن أنه لو كان صادقا في الانتساب إلينا لكان يرسل إلينا كتابا أو رسولا وهدية وقد يفعل طلاب الأموال مثل هذه النسبة كذبا،وقد يبدلون أسماءهم ولا بأس عندي أن يؤدب هو وأمثاله بما يرفع مفسدتهم عن العباد والبلاد والسلام.

[34] النص الأصلي للرسالة باللغة العربية (المترجم).

12 شهر رمضان عام 1331هـ عند أبي تلميت حرسه الله تعالى آمين.

الشيخ سيدي بابا.

رسالة تزكية من الشيخ سيديا بخط يده 1

بسم الله الرحمن الرحيم من سيدي محمد
إلى حبيبه السيد الفاضل كابتين حاكم
دائرة الترارزة سلام عليك أما بعد فقد
رأيت كتابك الكريم في أمر الرجل المسمى الحسين
بن أحمد والمسمى الشريف أحمد وهذا الرجل
لا أعرفه من تلاميذنا ولا من أولاد ابييري وأظن
أنه لو كان صادقا في الانتساب إلينا لكان يرسل
إلينا كتابا أو رسولا وهدية وقد يفعل طلاب
الأموال مثل هذه النسبة كذبا وقد يبدلون
أسماءهم ولا بأس عندي أن يؤدب هو وأمثاله
بما يرفع مفسدتهم عن العباد والبلاد والسلام
12 شهر رمضان عام 1331
عند أبي تلميت حرسه الله تعالى آمين

CHEIKH SIDIA BABA

الملحق [5]:

من الشيخ سيديا إلى جميع تلاميذه وأصدقائه وإخوانه الموجودين في سراليون:

إلى كبراء القرى الزنجية الأساسيين السلام عليكم:

إني لأدعو الله لكم.لقد علمت أنه يوجد في بلادكم رجل اسمه الحسيني أحمدُ الملقب بالشريف أحمد يدعى أنه تلميذ لنا ويتحدث ضد السلطة الفرنسية بأقوال لا نجدها في أي مكان لا في الشرع ولا في الأفكار البشرية . اعلموا أننا لا نعرف هذا الرجل وأنه ليس على طريقتنا، احذروا من الأشرار ولا تدعوا من لا علم لهم ولا قلب يحضونكم على الشر ،الذين لا يرون إلا ما يستطيعون رؤيته في هذه الحياة الدنيا فلا يفكرون في عواقب جهلهم ولا في الخراب الذي قد يسببونه لأصدقائكم وأموالكم دون ذكر الشرور التي قد يسببونها لكم في الآخرة والتي ستفوق الخيرات التي قد يجلبونها لكم.ويقوم الأشرار بالكثير من الشرور الأخرى لسكان البلاد الأصليين بأباطيلهم وادعاءاتهم الكاذبة لأنه ليس لديهم إلا القليل من الدين والعلم،ولأنهم لم يخضعوا للتجربة من طرف أولئك الذين يخدعونهم،أي الجهلاء الذين هم كالبهائم.

أبو تلميت في السادس عشر من أغسطس عام 1913م.

الملحق [6]:

شجرة نسب أولاد ديمان (فيما يتعلق بالشيخ محمد بن أحمدُ بن سليمان):

أبو بكر (صهر الرسول (ص) وأول الخلفاء الراشدين)

↓

عبد الرحمان

↓

محمد

↓

عبد الله

↓

إدريس

↓

سعيد

↓

يحيى

↓

عمر

↓

عيسى

↓

موسى

↓

أبو بكر

↓

ابراهيم

↓

شكيب

↓

أبو بكر

↓

مرمايح

↓

يابا

↓

علي

↓

يحيى

↓

علي التونكلي

↓

عمر يالا

↓

ابراهيم اتشفاغه محنض اعمرر

اتشفاغه موسى الحاج أبهم(جد إيدابهم) الحاج أوبك الحاج ابياي الحاج حنض كدا

يعقوب أبو موسى

ديمان

محمد يعقبان(جد أولاد يعقبان) أحمد أبو محنض

بارك الله(جد أولاد بارك الله) بابا احمد بونايا

الفاضلي

محمد اتشفاغه

الشيخ سليمان (المتوفى سنة 1862م)

الشيخ أحمدُ (المتوفى سنة 1884م)

الشيخ محمد

الملحق [7]:

مكتبة الشيخ [سيدي]محمد بن أحمدُ بن سليمان الديماني:

ملاحظة تمهيدية كتبها الشيخ:الأعمال التي أقدمها هنا لا تمثل سوى جزء من مكتبتي.وجزء كبير منها مشتت بين عائلتي وقومي. فعندما كنت أحصل على كتاب،مخطوطا كان أو مطبوعا،كنت أذكره في القسمين لكنني كنت عندما أحصل على كتاب من عدة نسخ مطبوعة ،وهو ما كان يحصل في معظم الأحيان،فإنني لا أذكره إلا مرة واحدة فقط[35].

أولا- الكتب المطبوعة:

1- تفاسير القرآن وشروحه:

- تفسير محمد بن جرير الطبري [وهو "جامع البيان في تفسير القرآن" ، أو "جامع البيان عن تأويل آي القرآن] [36]

- لباب التأويل للخازن [لباب التأويل في معاني التنـــزيل، الحسن علي بن محمد الخازن]

- تفسير النسفي [مدارك التنـــزيل وحقائق التأويل، عبد الله بن أحمد النسفي]

- تفسير الجلالين مع حاشية لسليمان الجمل

---

[35] وقد نشرت المجلة تحت هذا العنوان : "مكتبة صحراوية" منذ بعض الوقت (المجلد 8،سنة 1909م ص ص 408-418) دليل مكتبة الشيخ سيديا مرتبة بحسب النظام الذي وضعه هذا الأخير بطلب من الحاكم العسكري غادان وقد علق عليه السيد ماسنيون.وتحتوي هذه المكتبة المهمة في الحقيقة على 683كتابا مطبوعا و612 مخطوطا وهو ما مجموعه 1295 كتابا تتعلق 862 كتابا منها بالعلوم الدينية.وتظهر لنا المقارنة بين دليلي المكتبتين أن مالكيهما لهما أذواق متشابهة وثقافة واحدة.

[36] لقد وجدنا من الضروري تكملة بعض أسماء الأعلام وعناوين الكتب المختصرة في النص - وهي عادة الشناقطة التي يبدو أن المؤلف قد تأثر بها - التماسا للوضوح وتعميما للفائدة ووضعناها بين معقوفين [ ] (المترجم).

- التفسير المنسوب إلى ابن عباس [وهو" تنوير المقباس من تفسير ابن عباس" ، جمعه محمد بن يعقوب الفيروزآبادي: صاحب القاموس المحيط].

- تفسير البيضاوي [وهو " أنوار التنـــزيل وأسرار التأويل"]

2- علوم القرآن:

- لباب النقول في أسباب النـــزول للإمام السيوطي

- كتاب الإتقان في علوم القرآن لنفس المؤلف

- كتاب المعرفة لأبي عبد الله محمد بن حزم

3- الحديث النبوي:

- القصطلاني على صحيح البخاري ["إرشاد الساري إلى شرح صحيح البخاري"، لشهاب الدين أحمد بن محمد الخطيب القسطلاني الشافعي]

- النووي في صحيح مسلم [المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج) للنووي]

- شرح الجامع الصغير للحفني [الشافعي]

- تفسير محمد بن عبد الباقي الزرقاني للموطأ

- عدة الحصن الحصين في كلام إمام النبيين لمحمد ابن الجزري [الحافظ محمد بن محمد الجزري الملقب شيخ القراء]

4- رسم القرآن و تجويده:

- شرح القارئ المبتدئ وتذكرة المقرئ المنتهي لإبن القاصح

- كتاب الجزرية ["الجزرية مقدمة في علم التجويد" ، لمحمد بن محمد الجزري]

5- التوحيد:

- شرح "جوهرة التوحيد" يسمى "تحفة المريد على جوهرة التوحيد" للشيخ إبراهيم البيجوري

6- الفقه:

- شرح ابن سلمون على تبصرة ابن فرحون

- المدخل لابن الحاج

- عبد الباقي الزرقاني على خليل

- حاشية البناني على عبد الباقي

- الروهوني على خليل

- شرح قنون.

- كفاية الطالب الرباني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني

- حاشية العدوي على الرباني

- شرح خليل للشيخ عليش

- النوازل الفقهية لعليش

- شرح التسولي على تحفة ابن عاصم [" البهجة في شرح التحفة " لأبي الحسن علي بن عبد السلام التسولي ، على الأرجوزة المسماة "بتحفة الحكام" لابن عاصم الأندلسي]

- تفسير الرحبية للإمام الشبتي المرديني [محمد بن علي بن محمد الشبتي المرديني]

- حاشية محمد ابن عمر البكري على الكتاب السابق.

7- التصوف:

- إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي

- "قوت القلوب" لأبي طالب المكي

- "نور القلوب ودواء الذنوب" للشيخ أبي علي زيد الدين الغنائي

- "حياة القلوب، والطريق الذي يجب أخذه للوصول إلى المحبوب" لعماد الدين العموي

- "بداية الطريق الروحي وسبيل المحبين".

8- السيرة النبوية:

- شرح محمد بن عبد الباقي الزرقاني "للمواهب اللدنية"

- نور اليقين في سيرة سيد المرسلين [لمحمد الخضري]

9- النحو:

- شرح السمعاني على الأشموني

- شرح ابن عقيل على الخلاصة

- حاشية الأخضري على الكتاب السابق

10- اللغة:

- القاموس [القاموس المحيط لمحمد بن يعقوب الفيروزآبادي]

- مقامات الحريري مع شرح صغير [مقامات أبي القاسم محمد الحريري]

- المصباح [المصباح المنير لأحمد بن محمد بن علي الفيومي]

- فقه اللغة للإمام أبي منصور الثعالبي

- مختار الصحاح [للرازي]

11- علوم الأخلاق:

- المستطرف [" المستطرف في كل فن مستظرف" لشهاب الدين محمد بن أحمد الإبشيهي]

- "حياة الحيوان" للدميري [كمال الدين محمد بن موسي بن عيسي بن علي الدميري]

- سراج الملوك لأبي بكر محمد بن محمد الطرطوشي

- التبر المسبوك في نصائح الملوك لأبي حامد الغزالي

- كتاب العقد الفريد [لابن عبد ربه]

12- الأدب:

- "عجائب المخلوقات والحيوانات والأمور العجيبة المتعلقة بالكائنات" للإمام زكريا

- جريدة العجائب وفريدة الغرائب لأبي حفص ،عمر بن الوردي

13- حساب الزمن:

- الممتع على شرح المغني للإمام أبي عبد الله محمد بن سعيد

14- التاريخ:

- التاريخ الكامل لابن الأثير

- روضة المناظر في أخبار الأوائل والأواخر

- أخبار الدول وآثار الأول لأبي العباس الكرماني

- التاريخ لأبي ناصر العتبي

- عجائب الآثار في التراجم والأخبار للشيخ عبد الرحمان الحنفي

- الاستقصاء ["الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى" ، لأبي العباس أحمد بن خالد الناصري السلاوي]

15- المنطق:

شرح البناني على السلم

حاشية سيدي علي قصارة على الكتاب السابق

شرح الشيخ سعيد قدوره على السلم مع هوامش لسيدي محمد المبارك السجلماسي

16- المدح النبوي:

- حاشية الشيخ ابراهيم الباجوري على البردة [للبصيري]

- شرح خالد الأزهري للبردة

- شرح الإمام أحمد ابن حجر الهيثمي للهمزية [الإمام أحمد بن حجر الهيثمي]

- حاشية لسيدي محمد الحنفي

ثانيا: الكتب المخطوطة:

1- تفسير القرآن:

- ضياء التأويل ["ضياء التأويل في معاني التنـــزيل" للشيخ عبد الله بن فودي الفلاني]

- الجلالين

- الزبدة

- فتح العلا في شرح البسملة

2- رسم القرآن :

- كتاب الورديري

- منظومة ابن الباري وشرحها

- نص ابن الباري مع "الاحمرار" للأليشي

3- الحديث الشريف:

- شرح ابن أبي جمرة على صحيح البخاري [المسمى " بهجة النفوس"]

- الموطأ [للإمام مالك]

- شرح ابن عبد الباقي الزرقاني للموطأ

- الشفاء للقاضي عياض

- شرح الكتاب السابق المعروف باسم "الشهاب" [" نسيم الرياض في شرح شفاء القاضي عياض" لشهاب الدين محمد بن عمر الخفاجي]

- الفيشي في الأربعين النووية

4- علوم الحديث:

- شرح التبصرة والتذكرة لعبد الرحيم بن الحسين

- القصيدة لابن سرح

- شرح ابن جمعة للقصيدة السابقة

- قصيدة أبي عبيد الله محمد العربي الفني على أصناف السيرة النبوية

- شرح محمد ابن عبد القادر بن علي الفاسي للقصيدة السابقة

5- التوحيد:

- عمدة أهل التوفيق والتسديد في شرح عقيدة أهل التوحيد [للحسين بن مسعود محمد اليوسي]

- شرح محمد بن يوسف السنوسي للكبرى

- أم البراهين شرح الشيخ سيديا الكبير للسرة

- فرائد الفوائد لمحمد بن المختار اليدالي

- الإضاءة للمقري ["إضاءة الدجنة في اعتقاد أهل السنة"، لأحمد المقري]

- شرح بالأعمش للكتاب السابق [محمد بن بالأعمش]

- شرح النابغة القلاوي (من قبيلة الأقلال)

- الوسيلة للمختار بن بونة من قبيلة تجكانت

- شرج عبد القادر بن محمد سالم المدلشي (من قبيلة مدلش) للكتاب - السابق

- قصيدة ابن زكري

- لامية الجزائري

6- التصوف:

شرح ابن زكري لنصيحة زروق

شرح ابن عباد للحكم العطائية لابن عطاء الله

بدايات النديات للإمام الغزالي

الجرعة الصافية والنفحة الكافية للشيخ سيدي المختار الكنتي

فتح الودود شرح المقصور والممدود للمؤلف نفسه

الكوكب الوقاد ،شرح أوراد الطريقة القادرية للمؤلف نفسه

جُنة المريد دون المَريد للشيخ سيدي محمد الخليفة [بن الشيخ سيدي المختار الكنتي]

خاتمة التصوف لمحمد بن المختار اليدالي

الذهب الإبريز لأحمد بن المبارك

العتق الثمين للشيخ سيديا الكبير

الفرق والتسديد والتتميم للمؤلف نفسه

7- السيرة النبوية:

ألفية عبد الرحيم البرعي

عيون العطر لأبي سعيد الناسي

كتاب الكلأ

الاكتفاء في أخبار الخلفاء ["الاكتفاء في سيرة النبي المصطفي وأخبار الخلفاء" للكلاعي]

نظم البدوي [نظم أحمد البدوي للأنساب]

شرح نظم الأنساب لحماد المجلسي

شرح قرة الأبصار للمأمون [شرح قرة الأبصار في سيرة النبي المختار]

أس الإسلام الذي تتوقف عليه سعادة الأنام

8- النحو:

شرح الديماني على التسهيل

شرح المساعد على التسهيل

التصريح

الأشموني [شرح الشيخ علي بن محمد بن عيسي الأشموني على ألفية ابن مالك]

المكودي

حاشية صغيرة للمختار بن بونه الجكني على الخلاصة والاحمرار

تكميل المرام شرح الشواهد لابن هشام [للشيخ محمد بن عبد القادر الفاسي]

الكفاية مع حاشية صغيرة

شرح الآجرومية للشيخ سيديا الكبير

روض الحرون لعبد الودود بن عبد الله

9- الفقه:

شرح عبد الباقي الزرقاني على خليل وحاشية البناني

شرح الخرشي على خليل

شرح الميسر على خليل لمحنض بابا الديماني

السوداني على خليل [وهو أحمد باب التنبكتي صاحب "نيل الابتهاج"]

شرح صغير لحبيب الله بن القاضي [الايجيجبي]

رسالة بن أبي زيد القيرواني وشرحها المسمى تحقيق المباني لأبي الحسن ["تحقيق المباني وتحرير المعاني شرح رسالة ابن أبي زيد القيروان" ، لأبي الحسن علي بن محمد بن خلف المنوفي الشاذلي]

شرح آخر للرسالة هو كفاية الطالب

ابن الحاجب وشرحه التوضيح

الفائق في أحكام الوثائق ["المنهج الفائق في أحكام الوثائق" لأحمد بن يحي الونشريسي]

ابن سلمون [وثائق ابن سلمون]

تبصرة ابن فرحون

المقدمات لابن رشد

أوضح المسالك وشرحه للبحيري

شرح ميارة لتحفة ابن عاصم

شرح ميارة للامية الزقاق

شرح ميارة لنظم بن عاشر

التوضيح على التحفة لابن عاصم ["توضيح الأحكام علي تحفة الحكام لابن عاصم" تأليف عثمان المكي التوزري الزبيدي]

التوضيح على لامية الزقاق

شرحا ميارة لنظم ابن عاشر [الشرح الكبير والشرح الصغير]

التاودي على تحفة ابن عاصم [وهو أبو عبد الله التاودي بن سودة الفاسي]

التاودي على لامية الزقاق

التاودي على جامع خليل المعروف في بلاد البيظان تحت اسم الرشان

قوانين ابن جزي [القوانين الفقهية لابن جزي الكلبي المالكي]

ابن أبي المحلى وشرحه

رحمة الأمة في اختلاف الأئمة [لأبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن الدمشقي الشافعي]

عمليات فاس وشرحه [37]

الأمل المطلوق وشرحه

التفسير والتسهيل لهفوات خليل

طرد الضوال والهمل لعبد الله بن الحاج ابراهيم العلوي ["طرد الضوال والهمل عن الكروع في حياض مسائل العمل" لسيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم العلوي الشنقيطي]

رشد الغافل في تمييز علوم الشرع لعبد الله بن الحاج ابراهيم وشرحه

نظم للنوازل الفقهية لعبد الله بن الحاج حماه الله القلاوي نظم رسالة ابن أبي سعيد لنفس المؤلف

نظم لمحمد بن الخرشي التندغي

شرح محمد محمود بن حبيب الله ابن القاضي الإيجيجي للكتاب السابق

نظم آخر للخرشي دون شرح ويعرف هذان النظمان أيضا بـ "المفيد"

شرح صغير لابن عاشر للنابغة القلاوي

شرح الأخضري لنفس المؤلف

العنوان على المذهب الشافعي

10- اللغة:

القاموس [القاموس المحيط للفيروزبادي]

فتح القدوس على خطبة القاموس

[37] وهي ما رجح أهل مدينة فاس بالمغرب العمل به من فتاوي و أحكام في بعض القضايا (المترجم).

إضاءة الأدموس ["إضاءة الأدموس ورياضة الشموس في اصطلاح صاحب القاموس"، للسجلماسي]

صحاح الجوهري

المصباح ["المصباح المنير" للفيومي]

ابن السكيت ["إصلاح المنطق"]

الظواهر

النوادر ["النوادر و الأمالي" لأبي علي القالي الأندلسي]

مقامات الحريري وشرح الشريشي

رسالة ابن الزيدون

شرح ابن نباتة لرسالة ابن زيدون ["سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون" لابن نباتة]

شرح ابن هشام لقصيدة بانت سعاد

المقصور والممدود وشرحه

مثلث ابن مالك

شرح المختار بن بونة الديماني لمثلث ابن مالك

شرح عبد الله العتيق من قبيلة ايديقب لمثلث ابن مالك

شرح الحضرمي المسمى فتح الأقفال للامية الأفعال

شرح صغير للشيخ سيديا الكبير لنفس اللامية

ديوان حسان ابن ثابت

ديوان الشعراء الستة

شرح عبد الله العتيق لنفس الديوان [عبد الله العتيق بن ذي الخلال]

ديوان غيلان [الملقب ذي الرمة]

ديوان المتنبي

شرح العبقري لديوان المتنبي

ديوان الحماسة

11- البلاغة:

التفتازاني على التلخيص

عقود الجمان للسيوطي وشرحه ["عقود الجمان للمعاني والبيان"]

الجوهر المكنون للأخضري وشرحه ["منظومة الجوهر المكنون في علم ثلاثة فنون" ، للأخضري]

حاشية صغيرة على عقود الجمان لمحنض بابا الديماني

12- علوم الأخلاق:

المستطرف[" المستطرف في كل فن مستظرف" لشهاب الدين محمد بن أحمد الإبشيهي]

تحفة الأريب ["تحفة الأريب في الرد علي أهل الصليب"، لعبد الله الترجمان]

13- قواعد الفقه :

المنجوري على نظم الزقاق المعروف بالمنهج [شرح المنجوري علي "المنهج في القواعد" للزقاق]

كتاب السجلماسي على نظم ميارة المعروف بتكميل المنهج

شرح محمد محمود بن حبيب الله ابن القاضي الاجيجبي للمنهج

شرح المؤلف نفسه للتكميل

14- علم الأصول:

جامع الجوامع وشرحه

الكوكب الساطع للسيوطي وشرحه

نشر البنود على مراقي الصعود لسيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم العلوي

15- المنطق:

السلم للأخضري وحاشيته الصغيرة

منظومة بن الطيب وحاشيتها الصغيرة

المختصرة لمحمد بن يوسف الأنوسي

شرح محنض بابا الديماني للمختصرة

16- وصف الأفلاك:

المطلي على شرح المغني

كتاب عبد الله بن أبي هاشم

17- الرياضيات:

المنية لابن الرازي ومقدمتها

القلصادي

شرح أحمد بن سليمان الرسموني لنظ بن أبي سليم السملالي وكذلك مقدمتها وشرح المؤلف السابق لها

18-كتب الأدعية :

تنبيه النائم للمرادي

دلائل الخيرات

نفح الطيب للشيخ سيدي المختار الكنتي

19- العروض :

الخزرجية

قصيدة الخمليلن

20- كتب عامة:

النوقية للسيوطي

القانون للأليوسي

21- الطب:

قصيدة ابن سينا

عمدة الطبيب [38] لأوفى أبي بكر من قبيلة إيداتشاقه

نظم للمؤلف نفسه يسمى قواعد الطب

المجموع للمؤلف نفسه وهو في علاج العظام وبعض الأمراض

22- المدح النبوي:

شرح البردة لخالد الأزهري

شرح الهمزية لمحمد ابن أوبا

أشعار ابن مهيب مرتبة في خمس قصائد مع أشعار أخرى للفزازي

مقطوعة شعرية صغيرة للمكودي

23- الأدب:

كنوز الأسرار حول الجزر والبحار

الحلل الموشية في الأخبار المراكشية [لمؤلف مجهول]

شيم الزوايا لمحمد بن المختار بن سعيد اليدالي من قبيلة أولاد ديمان

---

38 في النص "عمدة الطالب" (المترجم).

24- أنساب العرب:

الحلة السيارة لنفس المؤلف [" الحلة السيرا في أنساب العرب وسيرة خير الورى" لمحمد بن المختار بن سعيد اليدالي الديماني].

نظم البدوي من أولاد بو أحمد (مدلش)

25- التراجم:

ابن خلكان [وفيات الأعيان]

وفيات الأعيان لابن الخطيب

26- التاريخ الحديث:

ورقات، لوالد بن المصطفى ابن خالنا

الملحق [8]:

رسائل تزكية للشيخ سيديا [39]:

نسخة من خط يده مختومه بختمه السري:

باسم الله الرحمن الرحيم

من سيدي بن محمد بن سيدي إلى جميع الأصحاب والإخوان في بلاد السودان وغيرهم سلام عليكم فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو أما بعد فالمطلوب منكم في هذا الكتاب أنه كلما ورد جناب السيد الحاكم مارتي حرسه الله بلدا في أصحابنا اجتمعوا للسلام عليه والإحسان والبر والنصيحة وعرفوه من في ناحيتهم من أصحابنا ولم يقصروا في هذا المقصد فإنه مهم عندنا في جناب هذا السيد الفاضل الساعي في مصالح المسلمين المحب لنا الحبيب لنا المكْرِم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته 3 ذي الحجة عام 1331عند بوتلميت حرسه الله تعالى آمين.

---

39 النص الأصلي للرسالة باللغة العربية (المترجم).



باسم الله الرحمن الرحيم من سيدي بن محمد بن سيدي إلى من في سيج وبانجول من أصحابنا وإخواننا مثل سيدي صار في سيج ومثل مبات كص وآدم في بانجول سلام عليكم وعلى من معكم من الإخوان والأصحاب أما بعد فإن جناب السيد الحاكم مارتي حرسه الله يريد القدوم عليكم لأمور مصلحية وسياسية وهو حبيب لنا ساع في مصالحنا ومصالح سائر المسلمين فالمطلوب منكم أن تتلقوه بالإكرام والبر والنصيحة والمحبة وتجمعوا من في بلدكم من أصحابنا للسلام عليه والإحسان والبر وتعرفوه بأصحابنا هنالكم ونسلم أيضا على الحاج كحال سيد في بقراج ونأمره بمثل هذا وكذا السيد فوديه هري في صاندنيري ونحوه والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.23 ذي الحجة عام 1331.عند بوتلميت حرسة الله تعالى آمين.

الملحق [9]:

مقطع من مذكرة يتم إعدادها عن قبيلة الرقيبات:

إن هذه العلاقات الطيبة التي تربط الرقيبات بالفرنسيين لا تعني أن علاقاتهم بالشمال سيئة بل على العكس هي علاقات ممتازة. ويمكننا الحكم عليها سواءاً من خلال المساعي التي يقوم بها عندهم أعداؤهم القدامى قبيلة أيت أوسا (تكنة) لطلب التحالف والسلم معهم، ولحثهم على التخلي عن النصارى والعودة إلى الشمال [التل] حيث نقاوة الماء

والهواء والكلأ، أو من خلال الرسالة التي كتبها الهيبة باسم أبيه ماء العينين إلى محمد ولد الخليل في شهر ديسمبر سنة 1909م. فهذا الأخير هو نفسه من أطلع السلطة الفرنسية عليها للإعلان عن وفائه القوي و مكافأته عليها.

(...)

"إنني سأظل وفيا لاتحادنا القديم وصداقتنا الكبيرة . لقد قدمنا للتو من عند السلطان وتركناه في أوج النصر والقوة حيث أنه قد قبض على الروقي وأعدمه وقضى على تمرده و لم تعد هناك مشكلة ولله الحمد ويسود الهدوء الكامل في كل هذه البلاد من قعادة [40] إلى فاس ولا نرى فيها إلا السلم والوفاق بين عامة المسلمين . وقد طلب منا السلطان التخلي عن موطننا (السمارة والساقية) والقدوم إلى تزنيت للاقتراب منه:وقد عبر لنا عن تلك الرغبة مرات عدة، وها نحن ننفذها لكننا حيثما كنا سنظل دون أدنى شك أصدقاء حقيقيين لكم . وقد أمرنا السلطان بإنهاء الحرب مع الفرنسيين في الوقت الراهن إلى أن يلتقي بهم ويسوي معهم المشاكل المطروحة ،وإلى أن يتمكن من لقاء شيخنا ماء العينين والوضع جيد لدى تكنة في الوقت الراهن .

وقبل أن ننتهي اعلموا أننا حيثما حللنا فسنظل على استعداد لتقديم الدعم لأصدقائنا والثأر من أعدائنا حيثما وجدوا ".إلا أن العشيرة الأخيرة من رقيبات الساحل وهي السواعد Les soaad وحتى إحدى قبائل تكنة وهي إيقوت ،في الوقت الذي قبلوا فيه مساعي محمد ولد الخليل قرروا التقارب معنا وطلب الأمان في سبتمبر سنة 1910م وحصلوا على الموافقة

[40] قعادة منطقة تقع بين وادي درعة و الساقية وهي تعتبر الحد الأقصى الجنوبي للملكة المغربية.

بذلك مع دفع السواعد لمائة من الإبل وعشري ماشيتهم للإيقو Iggout واستسلموا بعد أن أوقفتهم الدوريات الإسبانية لبعض الوقت عند كدية سبخة الجل في أواخر فبراير سنة 1911م مع دفع غرامة قدرها مائة ناقة منتقاة . ووقعت اتفاقية معهم في الثامن والعشرين من ديسمبر سنة 1911م.

المصادر والمراجع :

1-Archives du cercle de Trarza et particulièrement note de m. le capitaine Gerhart (+ 14 mars 1913).

2-René Basset, Mission au Sénégal, Fascicule III, Recherches historiques sur les Maures.

3-Bulletins individuels des cercles du Trarza, du Brakna et du Gorgol (Sénégal) des cercles de Kankan et Labé (Guinée) ; du cercle de Bamako (Haut Sénégal-Niger).

4-Ismaël Hamet , Chronique de la Mauritanie Sénégalaise.

5-A.LE Chatelier, L'Islam en Afrique occidentale.

6-Renseignements fournis par M. l'Administrateur en chef Gaden.

الفصل الثاني

الفاضلية

مقدمة :

تجل الشعوب الإسلامية من المحيط الأطلسي إلى خط الطول المار بتمبكتو، ومن جنوب المغرب إلى ضفاف نهر غينيا اسم محمد فاضل. ولئن لم يكن البيظان والزنوج جميعا يتبعون طريقته بشكل مباشر إلا أنهم جميعا يخلدون ذكراه. علاوة على ذلك فإن عددا كبيرا منهم ،ممن تعلقوا بأبناء الشيخ سعد بوه وأحفاده،قد تجمعوا في زاوية قوية ظهرت جهودها الدعوية بقوة في عموم إفريقيا الغربية، وعرفت بفضل تكيفها العملي كيف تنتشر في البلدان الإفريقية :في المستعمرات الفرنسية والإنجليزية والبرتغالية،وعلى الحدود المغربية الموريتانية.

وتشكل الفاضلية من حيث المبدأ فرع الطريقة القادرية الكبيرة في إفريقيا. ومع ذلك وكما سنرى فيما بعد فإن ملكة القدرة على منح كل الطرق الأخرى التي خص بها محمد فاضل نفسه وأورثها لخلفائه من بعده، قد أدخلت في صفوف القادريين الفاضليين الأوائل عددا من التجانيين الزنوج بل وحتى من أتباع الشاذلية والناصرية بحيث لم يعد مصطلح الفاضلية يدل في الوقت الحاضر على فرع من فروع الطريقة القادرية بقدرما يدل على طريقة جديدة بحيث يمكن لجميع المسلمين أن يتبعوا ،في آن واحد وتحت قيادة شيخ واحد، طرقا إسلامية متعددة باتباع دروب شديدة التباين إلا أن كلا منها يقوم مقام الآخر مثل القافلة التي تسلك تلك المسالك الصحراوية ذات الدروب المتشعبة لكنها توصل إلى هدف واحد.

ويقوم هذا الصرح على شخصية محمد فاضل المتوفى في الحوض سنة 1869م والذي يبدو أن أعظم إنجاز له هو أولا تلك الفكرة الخلاقة المتمثلة في تعزيز أتباعه الدينيين بتوسيع أطر طريقته وبالأخص أنه، خلف وراءه ذرية على وجه الأرض قوامها مائة ولد حملت اسمه ،مع مآربها وطموحاتها، إلى أقاصى إفريقيا الغربية.

وبناءا على ذلك ستتضمن هذه الدراسة بطبيعة الحال جزأين:

- الجزء الأول بعنوان:محمد فاضل وأصوله

- الجزء الثاني:أبناؤه وتلاميذه.

أولا- محمد فاضل وأصوله:

ا- أصوله:

ينسب آل محمد فاضل، الذين يعرفون على وجه الخصوص بـ "أهل الطالب مختار" نسبة إلى أحد أجدادهم ، إلى أنفسهم صفة الشرف [الانتماء إلى آل البيت]، ويدعمون ادعاءاتهم بشجرة النسب الآتية [41]:

علي:الحسن، الحسن الثاني، عبد الله الكامل، إدريس، إدريس الثاني، أحمد، عبد الله، يحي، عمر، يوسف، عبد الرحمان، إسماعيل، مولاي، عثمان، مولاي مسعود، ابراهيم، أجملان، عطفان، عوران، عبد الرحمان، سيدي يحي، مولاي أبو بكر، سيدي عثمان، سيدي محمد، يحي الكبير، القلقمي (الذي أخذت منه قبيلة القلاقمة اسمها)، شمس الدين،سيدي علي، سيدي يحي، سيدي محمد، الطالب حبيب، الطالب اجيه المختار.

فرع الحوض:الطالب محمد ، الطالب خيار، مامين، محمد فاضل.

[41] وقد أخذت شجرة النسب هذه ،شأنها شأن السلسلة الروحية التي سنعرضها فيما بعد، من فم الشيخ سعد بوه نفسه وتتفقان في وصف الأسماء مع شجرة النسب والسلسلة الروحية اللتين قدمهما م.ل.بوفا M.L.Bouvat في "مجلة العالم الإسلامي" عدد مارس سنة 1912،ص ص 188- 191.

فرع آدرار:فاضل، العبيدي، محمد، محمد فاضل.

وتجدر الإشارة إلى أن محمد فاضل يرتبط بالنبي (ص) عن طريق الإدريسين (إدريس وإدريس الثاني) وبالتالي فهو أحد شرفاء المغرب وبهذه الصفة استطاع ابنه ماء العينين فيما بعد أن يعتبر نفسه الوريث الشرعي لسلالة الأدارسة وطالب بعرش المغرب.

ومن ناحية أخرى تروى روايات العائلة أن الطالب اجيه المختار،وهو الجد الرابع لمحمد فاضل، جاء إلى تگانت قادما من المغرب في القرن السابع عشر واستقر بها ومات في العمود في نهاية القرن فتوجه أبناؤه إلى الحوض واستقروا نهائيا بين گومبو وولاته. وتحمل ذريتهم، التي تشكل قبيلة في الوقت الحاضر وهي "أهل الطالب مختار" اسم جدهم المهاجر.

إلا أن هذا الأصل الشريفي [الانتماء إلى آل البيت] هو محل طعن شديد لدى معظم القبائل الزاوية الموريتانية في الحوض : <<فأهل الطالب مختار،كما يقولون، هم مجرد أسرة من لادم وهي إحدى قبائل آژناگه[صنهاجة] التي كان لها نفوذ قوي في آدرار موريتانيا والتي لا نزال نعثر اليوم على بقاياها في آدرار والبراكنة والترارزة ،وأن شجرة النسب تلك فهي من اختلاق الطالب اجيه المختار،وأن أحد أجداد القبيلة - وهو على الأرجح الطالب اجيه المختار أو ابنه - قد هاجر من آدرار واستقر به المقام منذ مائتي سنة في الحوض إلى جوار كنفدرالية القلاقمة وأصبحت له ذرية منهم .وقد نفى كنتة، الذين يمثلون التراث الإسلامي الحقيقي في الصحراء، على الدوام صفة الشرف هذه عن محمد فاضل وعائلته>>. ولا يجهل المعنيون تلك الطعون. وقد رد عليها الشيخ سعد بوه على الأخص بقوله : <<نحن لسنا آژناگه. فهل رأيتم أبدا آژناگه يظهرون من الصلاح والعلم والكرامات ما يظهره أهل الطالب مختار ؟ فالفضل يدل على أصول الناس. وأما كنتة فقد كانوا دوما أعداءنا لأنهم يغارون من فضلنا ومن نفوذنا خاصة وأنهم احتفظوا في ذاكرتهم بذكرى قوية للصراعات التي كانت تقسم أجدادنا القرشيين في زمن الرسول

(ص) فهم من بني أمية، ونحن من بني هاشم). وهذا رد يتسم بالدهاء والفطنة.

ومهما يكن من أمر،فمن الجدير بالذكر أن الكثير من علماء البيظان وفضلائهم يرفضون الاعتراف بتلك الأصول الشريفية لأهل الطالب مختار. ومع ذلك فإن المزاج العام في موريتانيا ليس معاديا للشرفاء من حيث المبدأ فهم ينعمون كثيرا بمزاعمهم المتعلقة بأصولهم دون أن يقلقهم أحد.

2- محمد فاضل وطريقته الفاضلية:

ولد محمد فاضل بن مامين في الحوض حوالي سنة 1780م وقام بدراساته الإسلامية التقليدية تحت إشراف والده ومعلمين مختلفين أشهرهم ولد محمد الكيحل من إيداوجات (دائرة گومبو). ويؤكد أبناء محمد فاضل - في إطار عدائهم لكنتة البكائية - أنه لم يتلق أبدا دروسا على أيدي أحد من شيوخ الطريقة القادرية المشهورة في آزواد. ومع ذلك فمما لا شك فيه أن محمد فاضل استفاد، إن لم يكن بشكل مباشر فعلى الأقل عن طريق أساتذته، من الإصلاح الثقافي الديني الذي يدين به الإسلام في مجتمع البيظان للشيخ الكبير، الشيخ سيدي المختار الكنتي المتوفى سنة 1881م.

وقد عاش محمد فاضل حياة بدوية مع إخوته وأبناء عمومته دون أن يخرج أبدا من موطنه. وقد خلف أباه في زعامة أهل الطالب مختار. توفي في الثاني والعشرين من إبريل عام 1869م، العاشر من محرم سنة 1286هـ عن عمر يناهز التسعين عاما .

كان هو المؤسس الحقيقي للطريقة بفهمه الرائع للميول الدينية للزنوج وبالتكيف الذكي الذي فرضه على أسرته وعلى تعاليمه أكثر من الدعوة المكثفة التي يبدو أنه لم يمارسها . فقام أولا بتأكيد أصوله الشريفية في محيطه،وهي أوثق وسيلة للنجاح الروحي والزمني لدى الزنوج[42].

****

واستطاع محمد فاضل عن طريق بعض التجديدات،وهي ليست ذات أهمية كبيرة لكنها تستجيب لأذواق الزنوج والكثير من أهالي الصحراء، أن يضفي طابعا خاصا على أذكاره وجعل طريقته حلقة دينية صغيرة ضمن أسرة القادرية الكبيرة . وتذهب إحدى الروايات التي ترويها أسرته إلى أن مصدر تلك التجديدات يعود إلى فقيه يسمى محمد الأقظف عاش في القرن الثامن عشر، وإلى أن ذلك الفقيه هو الذي لقنها للطالب خيار جد محمد فاضل فتبناها هذا الأخير بشكل نهائي ونشرها في المناطق المحيطة به.

وهكذا أمر بقراءة الأذكار الخاصة بالورد القادري جهرا في حين يقرأها باقي أتباع سيدي عبد القادر الجيلاني سرا وبخشوع .علاوة على ذلك فإن هذا الذكر القادري يشفع عند الفاضلية بذكر الشهادتين وهما:لا إله إلا الله ومحمد رسول الله بوتيرة متصاعدة، ويفضل أيضا ترديد ذكر اسم الله بقوة وتنهد عميق خلال اليوم. وأخيرا ينظر الفاضلية إلى حالات السكر والجذب وسائر أحوال التصوف الديني الأخرى على أنها دليل صريح على التواصل الحميم مع الألوهية ويشجعونها بقوة.

وتستخدم هذه المظاهر الخارجية للتدين لنيل محبة السكان الأصليين، كما أنها تشكل عنصرا من عناصر نجاح الدعوة الفاضلية.

42 <<واصل محمد فاضل شريف من ولاته ،وللشرفاء قيمة كبيرة في المنطقة الصحراوية أو السودانية>>، لوشاتليه، الإسلام في إفريقيا الغربية، ص 327:
A. Le Chatelier, L'Islam dans l'Afrique occidentale , p.327.

ثمة عنصر آخر لا يقل أهمية في نشر طريقة محمد فاضل هو تلك الفكرة العبقرية المتمثلة في جعل طريقته محور سائر الطرق الإسلامية الأخرى. فقد عاش محمد فاضل في نفس الفترة التي عاش فيها محمد السنوسي الذي يشبهه في العديد من المسائل. فهما يشتركان معا على وجه الخصوص في تلك السياسة المتمثلة في السعي إلى استيعاب قوة كل الطرق الدينية الإسلامية في طريقتيهما. لكن في حين أسس شيخ السنوسية طريقة جديدة جمّع فيها خصال كل الأولياء ودمج فيها مزايا كل الطرق،فإن محمد فاضل اجتذب إليه أتباع الطرق الأخرى ومريديها بإعلانه أن النبي (ص) خوله منح كل الأوراد وتأكيد كل الطرق السابقة التي اتبعها مريدوه. وقد حافظ أبناؤه على ذلك التقليد. لهذا نراهم اليوم يوزعون دونما تمييز أوراد القادرية والتجانية والشاذلية والناصرية،وكل الأوراد الأخرى عند الضرورة مشكلين بذلك استغلالا على نطاق واسع لتجارة وجد فيها الداخلون الجدد في الإسلام سائر الماركات التي تنسجم مع أذواقهم. بل وأكثر من ذلك أعلن محمد فاضل أنه يحق لكل شخص أن ينتمي إلى عدة طرق في آن واحد. وهنا يظهر محمد فاضل كيف فهمت عبقريته المرنة عقلية الزنوج،ونحن نعرف حب الزنوج المفرط للطلاسم فشعورهم الديني القوي ينعكس لديهم باهتمام دائم للاحتماء من المصائب عن طريق وصفة سحرية أو طقس ديني أو حجاب يعلقونه أكثر مما ينعكس بالتضرع إلى الله. فالرجل المكتمل الصلاح منهم وذي الفضائل السامية هو من يملك عددا من الطلاسم لتحميه من كل المصائب. وهذا ما يفسر لجوء العديد من الزنوج الذين اعتنقوا الإسلام إلى التلمذة لأحد شيوخ الفاضلية ليحصل منه على التوالي أو بالتزامن – بحسب حالتهم المادية– على كل الطرق الإسلامية المتبعة في البلد.

وتتوحد شجرة الفاضلية وسلسلتهم الروحية القادرية وصولا إلى الجد الثامن لمحمد فاضل وهو سيدي يحي،وتتفرع بعد ذلك.وهذه هي السلسلة الروحية القادرية كما قدمها الشيخ سعد بوه:

الرسول محمد (ص)، علي، الحسن[43]، السقط السري، الجنيد، الشبلي، الشنبكي، أبو الواقي، عبد القادر الجيلاني، بن هيته، السهرودي، ابن العربي، عبد السلام بن مشيش، الإمام الشاذلي،أبو العباس المرسي، عطاء الله، الإمام الباجلي، محمد، علي بن أوفى، عقبة الحضرمي،زروق، سيدي يحي، (سيدي محمد، الطالب حبيب، الطالب اخيه المختار، الطالب محمد، الطالب خيار، مامين، محمد فاضل .

وبحسب الطرق الأخرى فإن شيوخ الفاضلية يعترفون بأنهم ليست لهم سلسلة روحية . فقد ألحق الأقطاب المؤسسون للطريقة محمد فاضل ،عن طريق بعض المكاشفات الشخصية،بطريقتهم مباشرة وأعطوه الإذن بمنح وردها . ولا تركز الفاضلية كثيرا على هذا الموضوع . وقد دعم محمد فاضل "طريقته"، عندما أسسها بهذه الطريقة على بعض المبادئ الذكية والنفعية، بالكثير من جنودها ممثلين في أشخاص أبنائه الثمانية والأربعين وبناته الخمسين. فقد هاجر عند وفاته الكثير من أبنائه من الحوض في اتجاه السودان [مالي] والسنغال وآدرار موريتانيا معتمدين على بركته[44].

وتـــوفي الشيخ محمد فاضل في نفس السنة التي توفي فيها الشيخ سيديا الكبير وهي 1869م . وكان في حياته ينظر إليه على أنه أحد كبار الأولياء وهب القدرة على إظهار الكرامات ،وعالم من الطراز الأول[45].

وقد أشار الكثير من المتصوفة المشهورين وخاصة الشيخ المؤسس للسنوسية إلى مؤلفاته وثنى عليها واستعملها مصادر في دراساته.

[43] ذكر معروف الكرخي في النظـم مباشرة بعد الحسـن بن علي وقبل السقط السري انظر الملاحق ، الملحق رقم [4](المترجم).

[44] << وشيوخ الطريقة في الوقت الحالي هم أبناء محمد فاضل نفسه وهم:الشيخ محمـد تقـي الله،الشـيخ الحضرمي،الشيخ ملاي عبنينا،والشيخ سعد بوه.وقد توفي اثنان منهم هما محمـد المامون بمكة وسيدي بويـا في ولاته>>: لوشاتلييه،مصدر سبق ذكره،ص 328.
A. Le Chatelier, *opere citato*,p.328.

[45] << لقد ترك من جهة أخرى شهرته باعتباره فقيها شرعيا ومتصوفا لا نظير له ،بلغ من الشـهرة بحيث ذكره الشيخ السنوسي في فهرسته مرات عدة ،واجتهد أبناؤه من بعده في السير على خطاه وألف العديد منهم الكثير من الكتب >>: المصدر نفسه ص 327:
Opere citato,p.327.

ووري الثرى في دار السلام بالقرب من ساقية قرية دياده (التابعة لدائرة گومبو – أعالي نهر السنغال والنيجر)[46]، حيث بنى عليه أبناؤه ضريحا جميلا هو محل تقدير عظيم في كامل الساحل السوداني ويؤمه العديد من الزوار.

3- إخوة محمد فاضل وأبناء عمومته:

قبل أن نستعرض ذرية محمد فاضل الكثيرة، يجدر بنا أن نشير إلى:

- إخوته في الحوض
- وأبناء عمومته في آدرار موريتانيا وأن نحددهم.
- **الجدول الجنيالوجي لإخوة محمد فاضل :**

مامين وابنه الهيبة (انقرضت ذريته)، الشيخ سيدي (انقرضت ذريته)، العباس، محمد فاضل.

ذريتهم : محمد فاضل، الهيبة، محمد الأمين، سيدي محمد، محمد فاضل (ويقيم حاليا لدى الشيخ سعد بوه).

أما الأخوان الأكبران لمحمد فاضل فقد عاشا في الحوض وتوفيا فيه وقد انقرضت ذريتهما الآن ، في حين خلف العباس على العكس من ذلك العديد من الأبناء يشكلون في الوقت الحالي عشيرة من عشائر أهل الطالب مختار (گومبو – الساحل السوداني) ويعيش أحد أحفاده وهو محمد فاضل ابن محمد الأمين في الوقت الحاضر مع الشيخ سعد بوه.

- ونجد في آدرار موريتانيا مخيما من أهل الطالب مختار يحمل اسما خاصا هو أهل الطالب محمود العبيدي وهم أبناء عمومة الفاضلية الحالية وفقا لشجرة النسب الآتية:

[46] توجد حاليا في ولاية الحوض الشرقي بموريتانيا وتقع على بعد 50 كيلومترا تقريبا جنوبي النعمة عاصمة الولاية (المترجم).

الطالب اجيه المختار، فاضل، العبيدي، محمد عبد الرحمن، محمد فاضل والد محمد تقي الله، اجيه المختار، محمد المامون، ماء العينين، سعد بوه.

ومحمد فاضل هذا هو أول من هاجر من الحوض حوالي سنة 1850م.وبعد أن أقام عدة سنوات في شنقيط ،حيث تتلمذ على الأستاذ المشهور أحمد ولد البشير ولد الحنشي، ذهب إلى مراكش ثم فاس وأخيرا استقر به المقام في الجريف بالقرب من وادان وهناك توفي ويشاهد ضريحه، إلى جوار منـــزله ومكتبته وسط واحة النخيل التي تملكها أسرته في المنفقع على بعد 70 كيلومترا إلى الشمال من شنقيط.

أما ابنه محمد تقي الله فقد خلفه بصفته زعيما للتجمع ومقدما للطريقة. غادر الجريف أولا وقدم إلى أطار ليقيم به بضعة سنوات وكانت له علاقات حميمة جدا بسعد بوه الذي تزوج ابنته سعاد.

كان موقفه من المستعمر مسالما على الدوام.وقد لجأ خلال عمليات آدرار في 1908-1909م، إلى الجريف وانتظر نتيجة الأحداث. فدارت الأحداث في صالح الفرنسيين فجاء ليعلن خضوعه واستغل ذلك بذكاء ليسجل على وثيقة الأمان الذي منح له العديد من الأسر التي تنتمي إلى بعض القبائل الخاضعة تقريبا للنفوذ الفرنسي، والتي كان له نفوذ ضئيل فيها أو التي لم يكن يتمتع فيها بأي نفوذ على الإطلاق ! وعندما عاد إلى أهله أظهر للمعنيين الخدمة التي قام بها من أجلهم وبقي في نهاية الأمر شيخا لذلك التجمع، إلا أن بعض الصعوبات قد ظهرت في إدارته في الوقت الحاضر فاستقر بشنقيط.

أما أخوه اجيه المختار، التاجر الكبير، فيعيش معه في آدرار لكن العلاقات بينهما سيئة. فاجيه المختار يجمع حوله المستائين ويشي للسلطة الفرنسية بسوء تسيير أخيه.

أما محمد المامون فقد سافر إلى الشرق منذ سنة 1903م وعند عودته منه استقر بفاس ولا يزال بها حتى الآن.

وأما الأخوان الأصغران وهما ماء العينين وسعد بوه فلم تكن لهما شخصية واضحة ويعيشان في مخيم أخيهما الأكبر.

وقد تطور النفوذ الديني لهذه العائلة التى استوطنت آدرارموريتانيا، بالموازاة مع النفوذ الذي كان يتمتع به أبناء عمومتهم ماء العينين وسعد بوه دون أن يزعج أي منهما الآخر.

ثانيا- أبناء محمد فاضل وتلاميذه:

لكي نتابع دون خوف من الوقوع في الخطأ أبناء محمد فاضل الثمانية والأربعين على مختلف المسارح التي لعبوا فيها أدوارا متنوعة للغاية ولا يزالون يلعبونها، يتعين علينا القيام بترتيبهم بحسب المولد واستعراضهم بعد ذلك تباعا.

محمد فاضل

1- عبد الفتاح	17-محمد المصطفى	33 الشيخ سيدي أحمد
2-سيدي عثمان	18-البشـــــــرى	34- محمد مفتاح الخير
3-سيدي القوم	19-الطالب أبو بكر	35- عبد القادر
4- محمد الحسن	20- محمد أبو الأنوار	36- سيدي علي
5- عبد الصمد العباس	21- محمد الإمام	37- محمد البشير
6- محمد تقي الله	22 محمد المختار	38- عبد الرحمان
7- الشيخ الحضرمي	23- محمد المصلح	39- الطالب صلاح
8- الوني	24- محمد ابراهيم	40- احمدنا
9- الطالب خيار	25- محمد الزين	41- سيدي علي
10- محمد الأقظف	26- محمد الفتاح	42- سيدي سالم
11- محمد الهيبة	27- سيدي المختار	43- تفريج الكروب
12- ماء العينين	28- محمد المعلوم	44- سيدي المهدي

13- القطب	29- محمد الخطاب	45- سيدي يحي
14- محمد الغيث	30- سعد بوه	46- سيدي الأمين
15 محمد عبد الوهاب	31- سيدي منصور	47- سيدي عليّ
16- احيه المختار	32- مصباح الدين	48 الشيخ سيدي الخير

ويجب أن نشير إشارة خاصة إلى الابن الخامس من أبناء سيدي عثمان وهو يب المختار. ذلك الشيخ الذي يبلغ من العمر 45 عاما هو الآن مقيم في نيام سفول في فوتا التكرور (محافظة بوسيا ،دائرة سالدي ديوربفول) وقد خاض مغامرات مختلفة قص بوليه Poulet جانبا منها سنة 1902م [47]. وقد حتمت جولاته لجمع الهدايا بطريقة تعسفية وتصرفاته العنيفة منذ سنة 1899م ترحيله من فوتا.

وفي عام 1906 م ترك الشيخ سعد بوه بعد أن ظن أنه قادر على الاعتماد على نفسه،وذهب ليستقر به المقام في كوناكري حيث عاش بها سنتين لكنه تمكن من العودة إلى فوتا.غير أن عمليات التحايل المتكررة التي قام بها كلفته حكما بالسجن مدة ستة أشهر من محكمة كيهيدي في الأول من مايو سنة 1912م . وبعد خروجه من السجن تصالح مع عمه وقدم إلى مخيمه في خروفة ليأخذ قسطا من الراحة لمدة سنة. ثم عاد خلال عام 1913م إلى نيام سفول وأصبح الشيخ يب خبيرا في شراء الخيول والحمير والمواشي بالدين ثم يصب جام غضبه على مالكها الزنجي عندما يأتي للمطالبة بثمنها فيهرب الزنجي المسكين مذعورا. وكان أيضا يقوم بعمليات شراء للمواشي بوساطة بعض تلاميذه المفلسين ثم يسارع إلى بيعها في حين يقاسي التلميذ بسرور مرارة السجن من أجل أستاذه. وكان

[47] بوليه، البيظان في إفريقيا الغربية الفرنسية، باريس، شلاميل:
Poulet, Les Maures de A.O.F.,Paris,Challamel

الشيخ يب من جهة أخرى منبوذا بشكل صريح من طرف سعد بوه الذي يأخذ عليه القيام بجمع الهدايا باسمه والاحتفاظ بربعها لنفسه.

وهو الآن متزوج بابنة زعيم بوسيا عبدول علي خان وبإحدى بنات عمه من أقارب الشيخ سعد بوه . وقد انهمك في زراعة أراضيه وتنمية مواشيه محفوفا بثلاثين من تلاميذه الزنوج يصلون خلفه ويعلم لهم أبناءهم: ويعمل هؤلاء جميعا لصالحه ويتلقى بعض الزيارات من الداخل.

1- عبد الفتاح:

عاش في الحوض ومات فيه ،ليست له ذرية.

2- سيدي عثمان:

وهو مشهور باسم سيدي بويا وكذلك باسم الشيخ الخليفة . كان لفترة طويلة نائبا لوالده الذي خلفه . عاش في الحوض ومات فيه سنة 1870م بعد سنة من موت أبيه، وهي نفس السنة التي توفي فيها سيدي محمد ابن الشيخ سيديا الكبير وهو مدفون في المباسيط غربي گومبو. وهذا هو جدول ذريته من الذكور:

محمد فاضل (الحوض) الملقب الحبيب وهو الاسم الذي أطلقه إخوته عليه،سيدي بويا (الحوض)، محمد تقي الله (الحوض) محمد العاقب (الحوض) وابنه الحبيب، سعد بوه (المقيم لدى سعد بوه)، محمد المامون، محمد الغيث(الحوض) وابنه محمد فاضل (المقيم مع خاله الشيخ المحفوظ في صيديو)، يب المختار (ديوربفول- فوتا) وابنه محمد فاضل ويلقب ابّوه يقيم مع سعد بوه، آبه، القطب محمد الإمام (الحوض) الشيخ سيدي أحمد (الحوض)، سيدي محمد (الحوض)، محمد المعلوم (الحوض) مات دون أن يعقب ذرية وهو أحد أعوان سيدي عثمان الأساسيين هو رجل من الماندينك يسمى ماتيا ماني يبلغ من العمر 38 عاما منحدر من أسرة من طبقة المطربين في بريكانا (غينيا- البرتغالية) متورط في الصراع بين موسى

مولو والديولا في كازامانس. وقد شوهد هذا المواطن الأصلي يدعو ويجمع الهدايا على ضفتي النهر من دقانا إلى باكل باسم أستاذه.

وله وكيل آخر هو مامادو دمبا ديالو وهو تكروري منحدر من دولول سفري (بفوتا) ومقيم في رالي نيورو (كيدي ماغا). وكان في نيورو (أعالي نهر السنغال-النيجر) عندما حاربنا سنة 1890م. ويتمتع مامادو دمبا ديالو بنفوذ كبير لا في جماعته الأصلية المودي ناالله فحسب ،بل وكذلك في القرية التي يسكنها حاليا وهي قرية رالي نيورو التي يتحكم في زعيمها .

وهو يمنح "الوردين" القادري والتجاني على المجازين بحسب اختيارهم باعتباره الممثل الرسمي لسعد بوه في مقاطعتي التكرور إرلابى إيبابى وبوسيا.

3- سيدي القوم:

عاش في الحوض ومات فيه.

ذريته من الذكور:

محمد فاضل الملقب بوننا،سيداتي،والحضرمي،وقد استقروا جميعا هم وعائلاتهم بالحوض.

4- الشيخ محمد الحسن:

عاش في الحوض ومات، فيه مدفون بالمتبارك.

سلالته من الذكور:

محمد فاضل (والد حسننا)،سيدي عثمان،محمد تقي الله،ماء العينين.

ويعيش محمد فاضل وهو نجل الشيخ محمد الحسن مع معلمه سعد بوه.

وقد تزوج ثالث هؤلاء الأبناء الأربعة وهو محمد تقي الله بلاله بنت سعد بوه ،أما الرابع وهو ماء العينين فقد تزوج بأم الفضل بنت الشيخ ماء العينين.

ولايزال محمد تقي الله يعيش في معية الشيخ سعد بوه، ويبلغ من العمر 34 عاما. وقد استعمله ذلك الشيخ في الماضي لجمع الهدايا باسمه لدى تلاميذه السنغاليين، فاستهوته العملية واكتشف سعد بوه بأنه كان يعمل لحسابه الخاص باستغلال بركته دون إذن منه.

وكان محمد الحسن قد عاش في الماضي فترة من الزمن لدى مع ماء العينين في السمارة. وبما أنه رجل ذكي وعقل منفتح، فقد كلفه الشيخ بالعديد من البعثات المهمة لدى السلطات الإسبانية في فيلا سسنروس (Villa Cisneros)[الداخلة]. وفي عام 1909 م انفصل محمد الحسن عن ماء العينين، عندما غادر ماء العينين السمارة متجها نحو الشمال، وقدم بصحبة زوجاته وأبنائه إلى الشيخ سعد بوه. إلا أن رابع أبنائه، وهو صهر ماء العينين، بقي مع هذا الأخير برفقة زوجته. وحاول محمد الحسن مرات عدة الحصول على الإذن بإعادتهم إليه ولم يحصل بعد على ذلك الإذن بسبب الظروف السياسية .

5- الشيخ عبد الصمد العباس:

عاش في الحوض ومات فيه،ولم يعقب ذرية.

6- الشيخ محمد تقي الله [48]:

عاش في الحوض ومات فيه سنة 1894م، وامتد نفوذه ليشمل بشكل خاص قبيلة أولاد الناصر في الساحل. ومن ذريته الذكور:

---

48 << وقد بقي محمد تقي الله بدوره طويلا في ولاته وله العديد من الأتباع في قبائل مشظوف ذاتها وفي قبائل أخرى . وعلى الرغم من أنه لم تكن له نفس الصعوبات التي عرفها باقي سكان المنطقة مع البكائية،إلا أنه غادرها هو الآخر ليستقر به المقام في الجزء الجنوبي من تكانت ويمثل أكبر نفوذ ديني في المنطقة الواقعة بين آدرار والجوف والحوض وأرض إدوعيش>>، لوشاتليه، مصدر سبق ذكره،ص 328: Le Chatelier ,*Opere citato*,p.328.

محمد فاضل، محمد تقي الله، محمد الأمين، سيدي عثمان، محمد معروف (والد محمد تقي الله) علي الشيخ (وابنه محمد تقي الله)، محمد الغيث، الحضرمي(وابنه محمد تقي الله)، محمد الأمين الملقب "الأدهم" (وابنه محمد تقي الله)، محمد الأقظف، محمد الزين، سيداتي، محمد المختار، محمد المامون. وتشكل هذه الأسرة حاليا في الحوض عشيرة من عشائر أهل الطالب مختار. ونشير من بين أبناء محمد تقي الله، إلى:

أ- رابع [49] هؤلاء وهو سيدي عثمان، الذى كان يعيش في معية ماء العينين، إلا أنه ترك الشيخ حسننا بن ماء العينين في المخيم الذي كانت توجد به خيمته وقدم إلى سعد بوه إثر هجرة ماء العينين إلى الشمال في نهاية عام 1909م،وعاد بعد فترة من الزمن إلى عشيرته في الحوض بعد حصوله على إذن بذلك.

ب- وأما آخرهم [50]،محمد المامون،المقيم في أطار (آدرار) مع ابن عمه محمد تقي الله شيخ تجمع أهل محمود العبيدي -- أهل اجيه المختار.

7- الشيخ الحضرمي [51]:

عاش في الحوض ومات فيه سنة 1894م ودفن في بو الأنوار في ضريح جميل سرعان ما أصبح قبلة للزائرين.وقد تمتع هذا الشيخ بنفوذ كبير لدى قبائل مشظوف الساحل .

ذريته من الذكور:

التراد، وابنه محمد الغيث الملقب بـــ "النعمة"، محمد الأمين الملقب "حد أمين" وابنه سيدي بويا، الحضرمي الملقب "الشبيه"، يب المختار،

---

49 هناك خلل في الإشارة إلى ترتيب الأبناء حيث يشير المؤلف إلى سيدي عثمان بأنه الإبن الثاني في حين أنسه الرابع،ويشير إلى محمد المامون بأن ترتيبه الثاني عشر في حين أنه الرابع عشر والأخير. وبما أن هذا الخطأ يتكرر في مواضع أخرى، فإننا سنعتمد الترتيب المتبع في عرض هؤلاء في المتن (المترجم).

50 في النص الثاني عشر (انظر الإحالة السابقة) (المترجم).

51 (استقر لشيخ الحضرمي بولاته لكن لم يكن له أتباع ولا نفوذ باستثناء أولاد الناصر من أولاد سيدي محمد في الجنوب الشرقي. ويبدو أنه يمثل الاستثناء على تقاليد أسرته باهتمامه القليل بالشؤون الدينية)، لوشاتليه،مصدر سبق ذكره،ص 328: Le Chatelier ,*Opere citato*,p.328.

حمادي، الحضرمي، العباس، التراد، محمد تقي الله، الهيبة وابنه الحضرمي، محمد تقي الله، محمد المامون (متوفى)، محمد المهدي (متوفى)، سيدي محمد، محمد عبد الوهاب،سيدي المختار، الشيخ أحمدنا وابنه الحضرمي، أحمد فاضل، عبد القادر، محمد العاقب والد سيدي محمد، سعد بوه، الحضرمي، اجيه المختار[52].

أما التراد نجل الشيخ الحضرمي البالغ من العمر 40 سنة فهو الزعيم الحالي لعشيرة أهل الطالب مختار في الحوض (دائرة گومبو) وهو يشاطر من جهة أخرى ابن عمه سيدي الخير، آخر أبناء محمد فاضل، النفوذ الديني الكبير في الحوض . ومنذ بداية احتلال قواتنا للساحل قدم التراد خدمات جليلة للسلطة الفرنسية بوضعه لخبرته في القبائل ونفوذه الروحي فيها تحت تصرفنا . ومع ذلك لا سبيل إلى إثبات ولائه الصريح لنا . أما الشيخ احمدنا، وهو الإبن السادس عشر[53] للشيخ الحضرمي فقد استقر به المقام في فوتا التكرور في المدينة (من أعمال تورو-دائرة بودور)،وهو رجل يبلغ من العمر ثلاثين عاما،ذكي،عالم طبعه الألفة. وهو يعيش في خيمة بالقرب من قرية تكرورية مع تجمع شبه بدوي من حراطين قبيلة إيدابالحسن يسمى المرازيق. وكان أحمدنا قد غادر الحوض سنة 1905 م ليستقر به المقام عند سعد بوه وأقام عنده إلى غاية 1910م وقد استخدمه ذلك الشيخ في جمع الهدايا باسمه إلى اليوم الذي تجاوز فيه الحد وأخذ في العمل لحسابه الخاص فتخلى عنه الشيخ. وقد استطاع بأمر من هذا الأخير الإقامة في تورو حيث يمثله هناك. وقد تزوج على التوالي بإحدى بنات سعد بوه وبعدة نساء من التكرور. وهو متزوج في الوقت الحالي بامرأة من المرازيق المشار إليهم. ويحرث أراضيه وينمي ماشيته وينكر قيامه بالـــدعوة الدينية.

[52] من الواضح أن هناك بعض الأخطاء في طباعة هذه الأسماء وذلك نظرا لتكرار أسماء بعض الإخـوة بحيـث يحمل البعض منهم نفس الإسم وهو ما يخالف عادة البيظان ،نجد مثلا تكرارا لاسم الحضرمي مما يعني أن اثنين منها على الأقل أحفاد للشيخ الحضرمي كما نجد أيضا تكرارا لمحمد تقي الله (المترجم).

[53] في النص الثاني عشر (انظر الإحالة السابقة) (المترجم).

أما عبد القادر[54] بن للشيخ الحضرمي فقد رجع سنة 1911 م إلى مخيمات ماء العينين، ثم عاد إلى الحوض.

وأما محمد العاقب[55] بن لليشخ الحضرمي فيقيم تارة في سراليون وتارة في غينيا الفرنسية حيث يمثل فيهما الشيخ سعد بوه. وكان محمد العاقب قد قدم إلى الشيخ سعد بوه في سن الرابعة عشرة عندما كان الشيخ مقيما في تويزكت ولما بلغ سن الرشد تزوج بابنته نفيسة وقد بقيت زوجته وأطفاله في مخيم سعد بوه .

وأم اجيه المختار[56]بن للشيخ الحضرمي فيعيش في معية الشيخ المحفوظ في بناكو (كازامانس) ويستعمله فيها معلما وجامع هدايا.

8- الولي:

عاش في الحوض ومات فيه.

ذريته:

مراد (متوفى) وهو والد الولي،ماء العينين (ولد بآدرار أثناء مرور والده من هناك)،القطب،محمد الغيث.

9- الطالب خيار الملقب آبه:

عاش في الحوض ومات فيه سنة 1905م.

ومن ذريته الذكور:

الشيخ المحفوظ، العباس، محمد فاضل، محمد فاضل مات في صيديو، سيداتي، مامين،سعد بوه، الحضرمي، محمد تقي الله، ماء العينين، القطب.

[54] في النص الثالث عشر (المترجم).

[55] في النص الرابع عشر (المترجم).

[56] في النص الخامس عشر (المترجم).

ويعيش أبناء الطالب خيار هؤلاء كلهم في الحوض باستثناء المحفوظ والحضرمي. فأما الشيخ المحفوظ وهو نجل الطالب خيار فقد استقر به المقام في بناكو مقاطعة بلانتا كوندا (مندوبية صيديو،كازامانس) حيث يشتغل هناك بالزراعة وممارسة الرقيا والتدريس [57]. وكان الشيخ المحفوظ المولود بالحوض حوالي سنة 1865م قد غادره منذ نعومة أظافره إلى الشيخ سعد بوه لغرض الدراسة، وأكملها لدى ماء العينين في السمارة. وبما أنه داعية متحمس في البلدان الإفريقية، فقد اشتهر بقيامه بدور ديني لدى الساموري وموسى مولو.استقر بكازامانس منذ عشرين عاما وتزوج فيها بإحدى بنات الشريف يونس إضافة إلى العديد من النساء الزنجيات من أهل البلد.وتزوج أحد أبناء الشريف يونس بإحدى بنات المحفوظ .وقد تتلمذ اثنان من أبناء المحفوظ على سعد بوه وهما:آبه وهو لا يزال معه حتى الآن، والآخر محمد فاضل وقد عاد لتوه إلى منـــزل أبيه.

وقد كان للشيخ المحفوظ ،الذكي المثقف،نفوذ كبير في جنوب كازامانس وغامبيا المستعمرة الإنجليزية وفي غينيا المستعمرة البرتغالية التي كان مقيما بها في الماضي (في باكو). وتربطه علاقات صداقة على الأقل في الظاهر مع معظم مشايخ المنطقة ويكتتب تلاميذه من المحافظات الثلاث المذكورة[58] آنفا ويحصل على هدايا مهمة من الزنوج الداخلين في الإسلام بل وحتى من الزنوج الوثنيين، وهو الممثل الرسمي لسعد بوه يبعث إليه بمعظم الزكوات التي يحصل عليها. أما موقفه السياسي [من المستعمر] فكان مسالما على الدوام وحتى في السنوات من 1907 إلى 1910م حيث اعتزل في جيبا البرتغالية إثر الصراعات السياسية والدينية والتجارية مع الشريف يونس والشريف سيدي محمد حيدرة.

[57] في النص يعمل مزارعا وبائعا للحجابات ومعلما بمدرستها (المترجم).

[58] اثنتان منها أصبحت الآن مستقلة وهما غينيا كوناكري وغينيا بيساو. أما إقليم كازامانس فيتبع حاليا للسنغال لكنه يطالب بالانفصال (المترجم).

أما أخواه اللذان كانا يوجدان معه فهما محمد فاضل ،وقد توفي في صيديو،والحضرمي ولا يزال معه يستعمله أستاذا وداعية.

10- محمد الأقظف:

عاش في الحوض ومات فيه.

ومن ذريته الذكور:

محمد فاضل، الحضرمي، مامين، الطالب بويا، محمد المصطفى، وهم يشكلون في الوقت الحالي عشيرة من عشائر أهل الطالب مختار في الساحل.

11- محمد الهيبة:

عاش في الحوض ومات فيه ودفن في قصر دلّي (گومبو).

ومن ذريته الذكور:

محمد فاضل (توفي)، وهو والد الهيبة، ومحمد الأمين (توفي)، ومحمد ابراهيم (توفي) والشيخ سيدي علي (توفي) والشيخ سيداتي (توفي) ومحمد المامون. ويشكلون في الوقت الحالي عشيرة من عشائر أهل الطالب مختار في الساحل .

12- ماء العينين:

وهو محمد المصطفى المعروف بماء العينين ،الإبن الثاني عشر من أبناء محمد فاضل. ولد في عشيرة أهل الطالب مختار في الحوض بين گومبو وولاته عام "القحط" ويسمى كذلك عام "الخط المضيء" (ويعتقد أنه نجم الكميت). مات في اكتوبر عام 1910م عن عمر بلغ 73 عاما قمريا وهو ما يحدد عام مولده بسنة 1838 تقريبا.

أمه أصلها من "الطلبة" العتاريس، وهي إحدى العشائر الزاوية في الحوض. ويصفه البيظان بأنه كان متوسط القامة، رشيق القوام، شديد

بياض البشرة، ذكيا، مثقفا، محبوبا عند الناس، معتدل المزاج، وذا أخلاق عالية.

غادر ماء العينين البالغ من العمر 32 عاما الحوض حوالي سنة 1870 م بعيد وفاة والده محمد فاضل، ومر بشنقيط، مركز العلم والمعرفة، حيث درس فيه ودرّس لبعض الوقت وقدم على آدرار موريتانيا باحثا عن الشهرة والمجد. وربما كانت هذه الإقامة في شنقيط – بل بالأحرى عادة المغاربة والمشارقة الإشارة تحت اسم الشناقطة البيظان (الذين هم إيداو علي وحدهم تجانيو شنقيط وغيرها) الذين يحجون إلى البيت الحرام مرورا بفاس– هي التي منحت الشيخ ماء العينين وعائلته لقب الشنقيطي، وجمعها شناقطة وشناجطة،وجناجطة.

لكنه لم يقم بآدرار إلا لفترة قصيرة من الزمن، واتجه صوب الساقية ابتداءا مـــن سنة 1873م. غير أن تلك الإقامة الأولى بالساقية لم تكن سعيدة فجهله بالبلد، وتتالي السنين العجاف، وأعمال النهب التي مارستها قبيلة تكنة وقبائل أخرى،أرغمته على مغادرة الساقية للعودة إلى الجنوب حيث عاش حياة البدو بين آدرار وتيرس مدة عشر سنوات. وهذه هي الفترة التي تأسس فيها بجده نهائيا. ونظرا للحظوة الكبيرة التي يتمتع بها عند أمير آدرار، قام ببسط نفوذه حتى وصل أراضي تكنة، وجاء ليستقر نهائيا في الساقية الحمراء حوالي سنة 1884م بعد أن أصبحت الطريق ممهدة أمامه.

وقد عاش طيلة خمس وعشرين سنة من سنة 1884إلى سنة 1909م في مخيمه تحيط به عائلته وتلاميذه الذين أخذوا في التزايد دون انقطاع، فأصبح مخيمه يقيم تارة في السمارة وتارة في قرزيم — الساقية وتارة أخرى في اسدام أو في الحقونية أو في التوركت. وهناك أمر واحد جدير بالذكر حدث في هذه الفترة من الزمن وهو أن ماء العينين بعد ما حاول اغتيال المسافرين الإسبانيين كيروغا وسرفيرا أو على الأقل السماح بالقيام بتلك المحاولة،أنقذ حياة المستكشف كميل دول Camille Douls معترفا بشكل

قاطع بأن المسمى بعبد المالك المغامر الذي جاء به أولاد دليم الفسقة سنة 1887م، مسلم حقيقي صحيح الإسلام .

فاستقر نهائيا بالسمارة سنة 1899م وبلغ مخيمه ما يربو على خمسمائة بيت تقريبا بعد أن لم يكن يتجاوز في أول الأمر مائة بيت. صحيح أن ذلك المخيم لا يعيش كله مزدحما في حي واحد لكنه موزع بحسب العائلات على طول الساقية وروافدها.

وقد بنا لنفسه سنة 1904 م قصرا في السمارة على الطراز المعروف في القصور المغربية. أما مواد البناء التي لم يكن في الإمكان الحصول عليها من عين المكان فكان يتم شراؤها من التجار المغاربة الذين يأتون ليتحولوا بضاعتهم في الطرفاية أو يبعثها إليه السلطان عبد العزيز.أما اليد العاملة فقد حصل عليها بسهولة من بنائي تكنة، في وادي نون، المهرة في بناء "القصور" (Ksour) والقرى حيث يعيش عدد من عشائرهم حياة الحضر. ولم يكن هذا القصر أبدا سوى مخزن للحبوب،ومستودع للسلاح ومكتبة،ويستخدم عند الضرورة للاحتماء من غارات القائمين بأعمال النهب.دمره العقيد موريه Mouret في الأول من مارس سنة 1913م. وقد كان لماء العينين على الدوام علاقات ممتازة مع الحكومة الشريفية [المغربية]. وفي الفترة الفاصلة ما بين عامي 1890 و1900 م خدم المخزن مباشرة وذلك بخلقه لكل أنواع الصعوبات في وجه البعثة السياسية الإسبانية التي قادها ريو دي أورو Rio de Oro والمؤسسات التجارية الإنجليزية في كاب جيبي (بور فكتوريا). وكان ماء العينين في الكثير من المرات يترك مخيماته في الساقية لزيارة السلطان. ومنذ عام 1890م بدأ يستقبل بحفاوة في مراكش من طرف ملاي الحسن.

وفي عام 1896 م استقبله السلطان الشاب عبد العزيز في مراكش . وقد أهداه السلطان مقابل الهدايا التي قدمها له من العبيد من الجنسين، الكثير من الهدايا ومنحه مكانا ليبني فيه زاوية لطريقته، وهي الزاوية التي أصبحت مدرسة فرنسية منذ احتلالنا للمغرب. وفي حين عاد الشيخ سعد

بوه عن طريق البر، نقل السلطان أهله وأمتعته على متن سفينة تجارية صغيرة من موغادور إلى الطرفاية. وقد تجددت تلك الأسفار وتبادل الخدمات بكثرة عام 1906م في ذلك الوقت الذي أصبحت فيه الساقية مركزا لحياة سياسية وتجارية مهمة نسبيا. وقد أصبحت السفن الشراعية التابعة لجزر الكاناري، ومن حين لآخر بعض السفن التجارية الألمانية الصغيرة، وبعض السفن الشراعية اليونانية، تحط بها، بالإضافة إلى حمولتها العادية من المواد الغذائية شحنات من الأسلحة والعتاد. وكان ماء العينين ينتقل إليها بنفسه مرات عدة لتسلم شحنات من تلك الأسلحة التي منحته السيطرة على المنطقة، وسمحت له بأن يدعم فعليا كفاح القبائل المحاربة ضد الفرنسيين القادمين من السنغال ،وفي الوقت نفسه كانت له علاقات ممتازة مع السلطات الإسبانية التي تمثلها بعثة ريو دي أورو، التي أدت محاصرتها في جزيرة الداخلة (فيلا سنسروس)، إلى جعلها خطيرة شيئا ما. فكان يبعث إليها مرات عدة بوفود يقودها أبناؤه وأحفاده : يجب ألا يكدر تدخلهما بالفعل لدى حاكم جزر الكناري إلى تجفيف مصادر العصابة.

وعن بعد كانت سياسة الحكومة المغربية في الصحراء تبدو في غاية الوضوح،وتعد بدرجة كبيرة من الذكاء. فقد كانت تسعى فقط إلى ضمان سيادتها الإسمية على تلك المناطق النائية والصحراوية – إذ لم يكن في مقدورها القيام بأي عمل بنفسها- باستخدام النفوذ الديني للمشايخ وصد أطماع الأمم الأوروبية عن طريق الثمن الذي كانت تدفعه من خلال بعض الهدايا من القماش الغيني والأسلحة والعتاد، وكان الأمر يؤول دائما إلى نجاح سياسة المخزن في قدرتها على استخدام السلطات المحلية التي كانت تخرج عن سيطرتها المباشرة لصالحها، وفي الآن نفسه تغطي جبهتها الجنوبية وذلك بالقيام بدور شرطة الصحراء بتوظيف القوة الوحيدة القادرة حقيقة على ذلك، وعندها يكون لها حق الاحتجاج بطريقة دبلوماسية ضد كل تعد للنصارى على حقوقها.

وتدل رسالة كتبها السلطان عبد العزيز إلى جماعة قبيلة العروسيين الصحراوية بتاريخ الثالث والعشرين من صفر سنة 1323هـــ (الموافق 1905م)[59]، بوضوح على الأساليب والأهداف السياسية للحكومة الشريفية. وتدعو الأهمية البالغة لهذه الرسالة إلى ضرورة ذكر مقاطع طويلة منها:

<<لقد تناهى إلى سمع حضرتنا أنكم تتذمرون من محاولات قامت بها أمم غربية بهدف اجتياح بلدكم، وأن رأي القبائل المجاورة للملكتنا هو مقاومة هؤلاء الغرباء، وأن ما ينقصهم في النهاية هو إذن خاص وزعيم مطاع،وكذا بعض الأسلحة الحديثة.

وقد سجلنا طلباتكم، ونرى أن سخطكم على أولئك الذين يتربصون ببلدكم، واتفاق قبائلكم فيما بينها للدفاع عنه دليلان على إيمانكم الكامل بالله(...)

ومن جهة أخرى فإن إعلان تعلقكم بحكومتنا الشريفية، التي اعترفتم بها منذ أمد بعيد، لهو دليل يؤكد مطالبكم، ويثبت صدق تعلقكم بنا. وأنتم بذلك الاعتراف إنما تدافعون عن دينكم وتحفظون مكانتكم على الدوام (...)

أما فيما يتعلق بالوسائل التي تنقصكم،والمساعدة التي تنتظرونها منا،وفي الأخير الاهتمام الذي ترغبون أن نمنحكم إياه،فإنه من واجبنا بالفعل أن نهتم بكم جميعا،وإن شاء الله ستحصلون منا على ما تريدون.

وعليه سنبعث إليكم بحاملي هذه الرسالة وهم (...) وستأتي إليكم هذه البعثة للتعرف على بلادكم ودراسة حالتها ،وستتحدث إلى شيوخ القبائل في كل ما يمكن أن يكون في مصلحتكم وفي مصلحة البلد.

---

[59] وقد صودرت الرسالة ضمن وثائق ماء العينين في الأول من مارس سنة 1913م من طرف العقيد Mouret.

وبالطبع سيتم ذلك كله بوساطة الشيخ غزير العلم السيد ماء العينين الذي كتبنا إليه في هذا الموضوع.

وبناءا على ذلك نأمركم بأن تكرموا وفادة رسلنا وأن تسهلوا لهم من كل النواحي إنجاز المهمة الموكلة لهم، والانصياع كما نأمل لكل ما سيأمركم به الشيخ(...)

علاوة على ذلك نأمركم بالطاعة والإخلاص لمن يقع عليه اختياركم من أكابركم وسنبعث إليه في أسرع وقت بمرسوم سلطاني بتعيينه يتضمن ختم القيادة.

وعندما تعملون بذلك سنعتبركم من رعايانا وسيعم الخير بلادكم>>.

وقد قاد البعثة المغربية التي تحمل هذه الرسالة مولاي إدريس بن عم السلطان. وحملت البعثة معها كما يقول ماء العينين، في رسالة وجهها إلى محمد المختار زعيم كنتة في التاسع عشر من جمادي الأول سنة 1323هـ (الموافق 21 أغسطت 1905)، رسائل مختومة بختم السلطان لتسلم لمن يعينهم الشيخ نفسه ممن في مقدورهم أن يعينوا زعماء معترفا بهم.

كما وجه ماء العينين رسالة أخرى إلى ذلك الزعيم نفسه وبنفس التاريخ يشرح الهدف من البعثة يقول فيها <<ليكن في علم حضرتكم أن السلطان أرسل ابن عمه الذي يمثله ليبحث شؤون البيظان وبخاصة تلك المتعلقة بأمر النصارى قاتلهم الله. وقد طلب السلطان من مندوبه الذي سيقدم كل شيء بعون الله الاهتمام بتلك الأمور اهتماما جديا إلى أن تنتصر قضية المسلمين بشكل تام>>.

وكانت هذه السياسة الانتهازية من جانب المخزن تخدم مصالح ماء العينين مباشرة. فبالإضافة إلى المصالح المادية الناجمة عن تلك الأسفار والزيارات واللقاءات، كانت تمنحه وسلة يحكم بها سيطرته بشكل كبير في أعين البيظان الذين يعتبرون السلطان البعيد عنهم سلطانا ذا هيبة وسلطة مطلقة، وفي نفس الوقت شريفا، وخليفة للمسلمين. لكن ماء

العينين كان يحافظ على الأخص على انزوائه مرغما بذلك النصارى على التراجع، وكانت مصلحته من هذه الزاوية مرتبطة ارتباطا وثيقا بمصلحة المخزن.

واستمر الوضع على ما هو عليه دون تغيير حتى عام 1906م وهي السنة التي جرت فيها الأحداث الأكثر خصوبة ذات العواقب بعيدة المدى.

ولما لاحظ المنشقون والمجموعات الموريتانية غير الخاضعة للنفوذ الفرنسي أن جهودهم مجتمعة لن تكون أبدا كافية لتحرير تگانت أحرى عن طرد المستعمر الفرنسي عن بلدهم، قرروا طلب النجدة من سلطان المغرب،فاجتمعت لذلك الغرض بعثة غير عادية مكونة من جميع الزعماء والأعيان في السمارة وتوجهت إلى فاس بقيادة ماء العينين شخصيا،فخصها السلطان عبد العزيز وحكومته بأحر استقبال وأعطاهم وعودا مبالغا فيها. وغادر ماء العينين فاس بعد أن أقام بها عدة أشهر متوجها نحو الجنوب في أوائل سبتمبر سنة 1906م. فكان هذا التجييش الذي قامت به الرباط والدار البيضاء ومراكش هو الذي أرغمنا - بعد أن أدى إلى بعض الحوادث المتفرقة- على تحديد سياستنا في المغرب،ودفعنا إلى احتلاله في نهاية الأمر.

فمن 12 إلى 14 سبتمبر سنة 1906 م كانت عصابات ماء العينين تقوم بنهب التجار المغاربة في ميناء الدار البيضاء، وهو حدث لا يستغرب،إلا أنهم كانوا يعتدون على ممتلكات العديد من الفرنسيين بل وعلى أشخاصهم،وهوأمر مزعج في ذلك الميناء.وقد برهنوا بذلك لسكان الشاطئ بشكل ملموس بأن الروم ليسوا معصومين ولا مقدسين فلم يكن المثال الذي ضربوه ولا النصائح بالكراهية التي زرعوها في الشاوية على طريقهم ليذهب سدى. فبعد مرور عشرة أشهر وبعد عودة البعثة الموريتانية الثانية إلى الشاوية، حدثت مذابح الدار البيضاء وأدت إلى احتلال المدينة في نهاية يوليو سنة 1907م.

ووصل ماء العينين وقومه إلى مراكش في أواخر سبتمبر سنة 1906م، فتكررت نفس المشاهد الفاضحة ولم يسلم منها المغاربة ولا الأوروبيون، وتعرض الكثير من الفرنسيين خاصة الطبيب موشامب والوكيل القنصلي لاسلاس لاعتداءات مسلحة. وقد أدت هذه الفوضى التي أشيعت في المدينة على هذا النحو،والتي كان يرعاها تواجد طال أمده للعديد من تلاميذ الشيخ، إلى اغتيال الطبيب موشامب نفسه، وإلى احتلال وجدة ردا على ذلك.

ولئن كانت الأسباب التي قادت فرنسا إلى احتلال المغرب متنوعة وبعيدة، إلا أن "ذريعة" احتلال شرق البلاد وغربها على حد سواء يمكن أن تعزى بكل تأكيد إلى ماء العينين وعصاباته المكونة من تلاميذه وأنصاره .

وبمغادرته لمراكش،حيث لم تكن لقاءاته مع مولاي الحفيظ وكبار قواد الأطلس معزولة عن تمرد ذلك الأمير، ذهب ماء العينين إلى تيزنيت وسكن في قصر الحكومة ذاته، وبدأ يحلم منذ ذلك الحين في أن يجعل منه مركزا لعملياته ونفوذه. وفوضته حكومة المخزن بصفته ممثلها الرسمي في المنطقة. وبما أنه كان في أمس الحاجة إلى السلاح والعتاد، وبما أنه دحر بقوة نفوذ شريف تازروالت الكبير، فقد جذب إليه ذلك النصر قوى محاربة ،كما جذبت إليه دعوته الدينية ووعوده بالمشاركة في الغنائم معظم القبائل الأمازيغية[60] والعربية من سوس إلى السمارة .

ولم يهمل ماء العينين في تلك الأثناء موريتانيا فقد شن خلال إقاماته الكثيرة والمطولة في السمارة غارات على تگانت مشجعا بأعمال التحريض التي يقوم بها مولاي إدريس ممثل السلطان ذلك المسكين الذي سرعان ما نفد صبره فتاه في المهامه الموريتانية ولم يجن فيها سوى الغدر والإهانة بل وحتى الضرب. فأشرف ماء العينين بواسطة أبنائه على مقاومة

60 في النص قبائل الشلوحة (المترجم).

أمير آدرار وجيشه ومولها بالسلاح والعتاد بشكل مستمر، فحاول إغراء أنصارنا وأصدقائنا وتمكن في الأخير بفضل تكوينه الديني من الجمع بين القبائل المتصارعة منذ الأزل فيما بينها وتوحيدها دون كلل أو ملل.

إلا أن الأحداث تسارعت شمالي قصر السمارة وشرقه وجنوبه حيث دفن الشيخ ماء العينين طموحاته كما دفن الشريف السنوسي مشاريعه الطموحة في واحته بالجغبوب.

ففي الشمال أدى احتلال الشاوية إلى تمرد ملاي الحفيظ وسقوط عبد العزيز. ولم يف السلطان الجديد بوعود سلفه، وتعاهد بدوره مع النصارى فاجتاحت المغرب موجة من التعصب والعاطفة الدينية. ومثلما قيض الله ، قبل ثلاثة قرون عائلة من الشرفاء الفلاليين، خرجت من أقصى الجنوب للإطاحة بسلالة السعديين الحاكمة، صديقة البرتغاليين والخائنة للإسلام ولأرض الأجداد ؛كذلك ظهرت عائلة جديدة من الشرفاء في وادي درعة تفاخر بصحة نسبها وورعها الصحراوي للإطاحة بهذه السلالة الفلالية المثقلة على الدوام بالمعاهدات مع النصارى والعاجزة عن صد الفرنسيين الغزاة .

تلك أحلام راودت ماء العينين منذ سنة 1900م، وهي الفترة التي جلب فيها الحكم الفردي للسلطان عبد العزيز كراهية عميقة جدا في قلوب رعاياه. فكانت طموحات ماء العينين في هذا الصدد تنسجم مع سير الأولياء التي ترويها الروايات الشعبية والتي تقول بمقدم الشريف المصلح للملكة الشريفية من الجنوب. ولما رأى ماء العينين أن الفوضى قد ضربت أطنابها مع مولاي الحفيظ المحاصر في فاس،وأن أدعياء الملك قد ظهروا من كل حدب وصوب، أدرك أن الوقت قد حان للدخول إلى مسرح الأحداث.

من جهة أخرى وإلى الجنوب من ذلك ،في موريتانيا،كانت معارك آدرار واحتلاله،والتي أعقبها توغل العقيد غوروGouraud في اتجاه سبخة

الجل،قد ضمنت خضوع جميع القبائل تقريبا للنفوذ الفرنسي فحرمت بذلك ماء العينين من أقدم وأهم معقل ديني له.

وفي الشرق ،في الجزائر،منحنا احتلال بودنيب السيطرة النهائية على القبائل التي تمارس النهب وهي : دوي منية وأولاد جرير الذين لا تحصى الغارات التي شنوها على الساقية الحمراء وجنوبي وادي درعة .

لقد أصبح بقاء ماء العينين في السمارة مستحيلا بسبب ذينك الاحتلالين بعد أن وقعت قواته وقومه وزاويته تحت رحمة غارة قمنا بتدبيرها في الوقت نفسه من جنوب وهران ومن آدرار موريتانيا،ونحن نعرف أن تلك الغارات في مقدورها أن تحدث أشد المفاجئات وتحقق أعظم النتائج بفضل جرأتها التي لا تصدق وشساعة تلك الأراضي الصحراوية مترامية الأطراف. هكذا إذن غادر ماء العينين السمارة — في نفس اليوم (من سنة 1909م) الذي التحق فيه ابنه الشيخ حسننا، الزعيم الديني لمقاومة سكان آدرار بالطرف الخاسر، زاوية الأب — ليستقر به المقام نهائيا في تيزنيت في أواخر سنة 1909م .

وردا على أوامر صادرة من المخزن الذي أمر قواده في الجنوب وخليفته في أغادير — بعد الاحتجاجات الحادة من الحكومة الفرنسية — بالقضاء بقوة على التهريب واعتقال المهربين في فبراير سنة 1910م، قام ماء العينين بإزاحة القناع عن وجهه نهائيا وأعلن رسميا في مايو سنة 1910م أنه هو السلطان الذي اختاره الله لحكم المغرب. ودون أن ينتظر طويلا قام بجمع تلاميذه ورجاله المتحمسين النهِبَة من قبائل الرقيبات وأولاد دليم وأولاد بالسبع وتكنة والشلوحة وجمع في طريقه كل المغامرين والمتعصبين المناهضين للأطلس وسوس وزحف على فاس للمطالبة بحقوقه في عرش المغرب مستعيدا ذكرى الملحمة المرابطية في القرن الحادي عشر أو الفلالية في القرن السادس عشر الميلادي.

ومعروفة هي النهاية التي آلت إليها تلك الأحداث. فبعد أن سحق جيشه في تادلا خلال شهري يونيو ويوليو سنة 1910م من طرف الجنرال موانييه Moinier، الذي جنب بذلك المغرب حقبة جديدة من الفوضى الحادة، وجد ماء العينين نفسه، وقد تجرع كأس المحن، وأعياه المرض، وأصبح عرضة للنهب من طرف قبائل سوس، مضطرا إلى بيع مواشيه وأسلحته بل وحتى كتبه للحصول على لقمة العيش، فعاد إلى تيزنيت ليقضي نحبه فيها في أواخر اكتوبر سنة 1910م.

دفن بتزنيت نفسها في ضريح جميل مقبب،وبني على ضريحه مسجد جميل سرعان ما أصبح قبلة للزائرين.

****

ونؤكد على أن ماء العينين قد حج بيت الله الحرام مرتين أو ثلاث مرات عن طريق البر. وكان كإخوته يحب أن يروي عنه أتباعه حصول كرامات وأمور عجيبة على يديه. وإن كان قد اكتسب بذلك شهرة في أعين الجماهير بأنه ولي صالح، إلا أنه سرعان ما تحول في أعين الأوروبيين إلى ساحر، وسفيه مراوغ في نظر بعض كبار مشايخ البيظان الآخرين [61].

وعلى كل حال كان ماء العينين رجلا عالما ألف العديد من الكتب صغيرة الحجم في الدين والتوحيد، والفقه والتصوف، وعلم الفلك وعلم التنجيم، والنحو وغيرها،توجد نسخ البعض منها في فاس وفي مراكش[62]. وكان يشتغل بالتعليم بالسمارة قبل الانخراط في العمل السياسي لكن في الوقت الذي كان يعمل فيه على القيام بتكوين علمي عالي لمعلمي زاويته،يمكن القول بأنه كان يحب تعليم الأطفال الصغار على ألواح الخشب . إلا أن بيظان الجنوب يأخذون عليه أنه كان <<عندما يتوغل في البادية فإن

61 لا يخلو هذا القول من مبالغة وتجريح لشخص العلامة المجاهد الشيخ ماء العينين. ومن الواضح أن المؤلف يشير إلى الخلافات المعروفة والخصومات ذات الطابع الإيديولوجي بين زعماء الطرق الصوفية (المترجم).

62 انظر فهرسة هذه الكتب في "مجلة العالم الإسلامي" المجلد I، 1907م،ص ص 349-350.

الناس يغنون له ويشدون كما تشدو العصافير>> فيتحول المعلم والمفكر إلى رجل سياسي وقائد حربي.

****

أما نساؤه الأحب إلى نفسه فهن:

أ- ميمونة بنت أحمد عليون من البرابيش. والبرابيش هي أسرة من أسر زوايا أهل تشفاغة الخطاب منحدرة من آدرار تبعت ماء العينين.وميمونة هي أم الشبيه والطالب خيار والأقظف والهيبة ومربيه ربه.

ب- الفنت بنت يوسف من برابيش آروان، قدمت مع زوجها من الحوض وهي أم الولي.

- السالكة بنت درْجة، وهي من العروسيين وهي أم محمد فاضل.

****

وكان لماء العينين واحدا وعشرين ابنا بلغوا سن الرشد وثلاثين بنتا.

أما ذريته من الذكور فهي على النحو الآتي:

محمد فاضل (المتوفى) وابنه ماء العينين، سيداتي، الشبيه وابنه ماء العينين، ومحمد فاضل، سيدي بويا، سيداتي (متوفى) وابنه ماء العينين، المامون، حسننا، سيدي عثمان، الشيخ حسننا وابنه ماء العينين، سعد بوه، الشيخ الطالب خيار، الأقظف، الطالب بويا، أحمد الهيبة، الولي وابنه محمد فاضل، الشبيه، ومربيه ربه، النعمة، محمد عبد الوهاب، اجيه المختار، محمد أبو الأنوار، محمد المصطفى، الطالب بويا، محمد تقي الله (متوفى) وابنه محمد فاضل، محمد الإمام، محمد ابراهيم، محمد الزين، محمد المعلوم، سعد بوه .

وقد توفي نجل ماء العينين وهو محمد فاضل بالجدري منذ سنوات ودفن في الملاية الواقعة بين وادي درعة ونون، وكان قد تزوج امرأة من العروسيين.

أما الشبيه البالغ من العمر 45 عاما وهو شقيق الهيبة فقد تزوج خدجتنا بنت سعد بوه وتوفيت عام 1910 م بتزنيت. وكان نائبا لوالده ردحا من الزمن لكن نجمه أفل أمام تفوق الهيبة عندما بلغ سن الرشد، ويوجد أبناؤه معه في تيزنيت .

أما سيداتي فقد توفي ودفن في الساقية.

وأما الشيخ حسننا فقد انتدبه الشيخ بصفته ممثله الديني في آدرار لمرافقة ابن عم السلطان مولاي إدريس في الفترة الفاصلة ما بين 1906 و1908م. وكان عندما غزا الفرنسيون البلاد عماد مقاومة أهل آدرار ومستشارا لأمير آدرار أحمد ولد عيدّه الذي كان غالبا ما يأخذ برأيه. وعند احتلال آدرار عاد إلى السمارة وذهب إلى الحج بعد حدوث مشكلات داخلية فيها، واستقر عند عودته من الحج في إحدى الزوايا بفاس، وأعلن خضوعه للسلطة الفرنسية في المغرب، ويبدو أنها قد استعملته في مفاوضاتها مع الهيبة سنة 1913م. تزوج سعدنا ابنة الشيخ سعد بوه، وقد عاشت سعدنا في الآونة الأخيرة مع أولادها في مخيمات الساقية. وقد كلف المحفوظ ابن سعد بوه بإعادتهم إلى المدرذرة إذا أمكن ذلك.

أما الطالب خيار البالغ من العمر 36 عاما،وهو شقيق الهيبة، فليس له شأن في الوقت الحالي.

أما محمد الأقظف البالغ من العمر 36 عاما وهو شقيق الهيبة فهو متزوج من امرأة من تندغة (أبو تلميت). وكان قد تزوج خدجتنا وهي حفيدة سعد بوه من جهة أمها سهلة،وقد توفيت الآن من غير أبناء. ومحمد الأقظف هو ممثل الهيبة الرسمي في موريتانيا،ونائب الملك على نحو

ما في أقصى الجنوب يحكم القبائل باسمه.وقد انطلقت بأمر منه حملات النهب التي جاءت لتغير على القبائل الخاضعة للنفوذ الفرنسي والهجوم على مراكزنا. ويبدو أنه هو الذي قاد الفرق العسكرية الكبيرة التي اشتبكت مع لواء موريه Mouret عند عودته من السمارة وهزمها في وادي التاقليات في يومي التاسع والعاشر من مارس سنة 1913م.

أما أحمد الهيبة البالغ من العمر 34 سنة تقريبا فهو خليفة ماء العينين الروحي ووريث طموحاته السياسية . و منذ سنة 1905م استعمله أبوه، الذي لا حظ قدراته الفائقة،مساعدا له مفضلا إياه على الشبيه الذي كان يتمتع بلقب الخليفة . وشيئا فشيئا أصبح يساعده بشكل فاعل في إدارة تلاميذه وفي مهامه لدى القبائل، وانتهى به الأمر إلى تعيينه رسميا خليفة له ووريثا للمشيخة من بعده .

وكان الهيبة قد رافق والده عندما زحف على فاس سنة 1910م . ونقل أباه المريض إلى سوس بعد هزائم تادلا وقضى على الحرْكة (*Harka*)[63]، ومر إثر الموت المفاجئ لماء العينين في اكتوبر سنة 1910م بأزمة ثقة دامت أكثر من سنة.إلا أن محادثاته مع قواد الأطلس الكبير، ومشاوراته العديدة مع بعض القبائل عززت ثقته في نفسه، فقرر أن يعلن نفسه، في السادس من مايو سنة 1912م وقت الصلاة، سلطانا للمغرب. واندفع "مولاي الهيبة" بسرعة إلى الأمام واحتل سوس بسهولة ودخل مراكش في أوائل أغسطس سنة 1913م .

إلا أن خيبات الأمل تتالت عليه دون تأخير. فقد احتلت قواتنا مراكش ابتداءا من سبتمبر ففر الهيبة إلى جنوب الأطلس واعتصم بسوس وجعلها مركزا لعملياته بعد أن تم طرده من حوز مراكش. إلا أن الحرْكة الشريفية أرغمته مرة أخرى على الفرار بعد أن اجتاحت سوس وأخضعتها واستولت على تارودانت (في 23 مايو سنة 1913)، وعلى

[63] مصطلح يطلق على جيش المتطوعين أيام الانتداب الفرنسي، وهو هنا يطلق على الجيش الملكي (المترجم).

أغادير(في 31 مايو 1913م) وهو الآن لا جيء لدى الشلوحة المناهضين للأطلس . وقد أصبح في حال يرثى لها بعد أن عزله القواد والشرفاء الموالون للمملكة في المنطقة عن اتصالاته بالجنوب.

وفي الجانب الموريتاني لم يعد هناك نجاح يذكر. ولئن كانت بعض الغارات الناجحة قد استطاعت أخذ بعض الغنائم من القبائل الخاضعة لنا، وأن تكبد بعض الخسائر لقواتنا، إلا أن معظمها كان يتم إحباطه والقضاء عليه.وكانت القبائل الخارجة على السلطة الاستعمارية مضطرة إلى العيش في الأودية المعزولة في الساقية والحمادة بعد طردها من أراضيها.

ولم يفض المجهود الكبير الذي بذله الأقظف لتجميع قواته في مطلع سنة 1913م إلى أيه نتيجة. فقبل أن تتجمع قواته للانقضاض على موريتانيا،حمل العقيد موريه Mouret بسرعة على السمارة ودمر القصر وزحف على التجمع وكبده أفدح الخسائر في وادي التاقلية.ويبدو أن مغامرة المدعي الهيبة قد انتهت في الوقت الحالي اللهم إلا إذا عاد إليه النفوذ مجددا وهو أمر لا يستبعد. فقد قضى أفضل المحاربين من تلاميذ ماء العينين معه،وقتل الكثير منهم مع ابنه في جنوب المغرب من سنة 1910 إلى 1913م في الغارات على موريتانيا. وفي أثناء ذلك قضى وباء كبير هو مرض الجدري على عشر القبائل المتجمعة حول الساقية ووادي درعة ووادي نون، وسرعان ما بدأ الانقسام يدب وسط تلك القبائل التي تجمعت بشكل مصطنع خارج المجال الجغرافي الذي اعتادت أن تتواجد فيه. وأدى الاحتكاك المطول بينها إلى إيقاظ العداوات الشديدة التي فرقتها منذ قرون، والتي لم يسكتها سوى التعصب وأمل الحصول على غنائم وفيرة في المستقبل.

واستطاع النجاح – وهو مجرد نجاح عابر – الحفاظ على تلك اللحمة إلا، أن الإخفاق كان دائما حليفها . ثم تلا ذلك قحط شديد ناجم عن انقطاع العلاقات التجارية مع الشمال والجنوب، وانفرط عقد ذلك التجمع القسري للعديد من القبائل على أرض قبيلة واحدة منها.

هكذا أخذ ذلك التحالف للمرابطين الجدد يتفكك بشكل كامل، فبقيت تكنة في قصور وادي نون، ولن يتحركوا من مكانهم طالما بقيت الأمور على حالها، واقترب أولاد دليم وأولاد بالسبع من مراعيهم في الجنوب، باحثين من خلال الغارات المتبادلة عن علاج مهدئ لخيبة أملهم.

أما الرقيبات، الغاصبون الذين لا يمكن ترويضهم، فقد تركوا المكان منذ عدة أشهر آخذين معهم مواشي جيرانهم، وهم في انتظار الخضوع للنفوذ الفرنسي.

ويبدو أن كنفدرالية قبائل الصحراء، التي كان الهيبة يستمد منها حرسه من الرجال الأشداء والنواة الصلبة لعصابته، قد تلاشت.

وللهيبة العديد من الزوجات البيظانيات وأشهرهن:

فاطمة بنت سيدي محمد العربي شريف غلميم، و لم تنجب له أطفالا، وهي الآن معه هي وأمة له في جنوب المغرب .

امرأة من أهل اتفاغة الخطاب من آدرار، وقد بقيت مع طفليها في قصر وجّان في كدية باكلة.

والهيبة رجل متوسط القامة قوي البنية. وهو رجل ذكي وعالم بشهادة الجميع. ويتمتع علاوة على ذلك بشهرة كبيرة بالتدين والبسالة. واجتماع هاتين الخصلتين فيه هو الذي منحه الاعتراف به خليفة لماء العينين وسلطانا محتملا دون اعتراض كبير من جانب إخوته الأكبر سنا.

وقد حافظ على عوائد الحياة البيظانية، فكان يلبس من القماش الغيني الأزرق، ويحمل على رأسه، شعرا كثيفا مجعدا لا يحلقه وهي عادة إخوانه في الصحراء .

ولا يبدو من بين أبناء ماء العينين لحد الساعة من له شخصية متميزة باستثناء مربيه ربه البالغ من العمر 30 عاما وهو زوج إحدى بنات ملاي

عمر ولد مولاي إدريس شريف آدرار، واجيه المختار والولي وثلاثتهم وخاصة أولهم قواد نشطون للهيبة في مغامرته المغربية.

****

ويجدر الإشارة،من بين بنات ماء العينين وأصهاره،إلى:

الأمجد ولد العالم من أولاد ابييري عشيرة أولاد خادجيل (أبو تلميت) وهو يقيم مع ماء العينين منذ عشر سنوات.وبما أنه منحدر من قبيلة الشيخ سيديا،فقد حاول ماء العينين إقناعه مرات عدة بالخروج من حلف الفرنسيين. وهكذا أرسل إليه في إبريل سـنة 1906م بتقرير أعده بطريقته الخاصة عن مؤتمر الجزيرة [64]، يقول فيه:

<<إنك لا تجهل أن الألمان، وهم قوم أولوا بأس شديد، أصدقاء للسلطان منذ سنة 1323هـ (الموافق 1905م)، وقبل هذه الأمة كان الإنجليز أصدقاء لأبيه.

وقد جرت العادة في المغرب على الدوام بأن يوكل السلطان شؤونه إلى أمة قوية لكي تدافع عنه ضد الأمم الأخرى. ولا يعني ذلك أنه بحاجة إلى المساعدة للقيام بالجهاد بل هي مجرد عادة. فهو يطلع الأمة التي اتخذها صديقة له على ما يمكن أن يقوله أو يفعله أعداؤه. وقد قدم الألمان خدمات جليلة إلى السلطان، فقد زادوا مداخيل البلد بخلقهم لحقوق يجب أن يحصلوا عليها من البضائع التي تدخل الموانئ. علاوة على ذلك يجب أن يدفع سائر سكان البلد مسلمين كانوا أو نصارى أو يهودا مبلغا من المال كل عام.

وقالوا له إنه إن ثبت لديهم أن ثمة اعتراضا على ملكه في البلد فسيتولون الأمر هم بأنفسهم إذا لم يرد الفرنسيون التخلي عنه.وقد

[64] رسالة كشف عنها الشيخ سيديا وترجمها أبو المقداد.

وافقت كل الأمم على هذا في خطب ممثليها. فكانت أول أمة تحدثت في هذا الشأن هي إسبانيا وآخرها فرنسا.

وقد قمنا من أجل دعم دعاوى السلطان باستقدام مندوبي القبائل المذكورة آنفا وأعلنوا ولاءهم للشيخ ماء العينين وللسلطان، وأعلنت تلك القبائل إذن أنهم كانوا دائما من الرعايا المغاربة، وأنهم قد وجدوا في كتبهم بأن مولاي اسماعيل قد هبط حتى وصل إلى سنت لويس وهي حدود بلاده.

فإذا لم نكن قد كتبنا إليكم مثلما كتبنا إلى المسلمين كافة، فما ذاك إلا لأننا نعرف أن ذلك غير ضروري .

وعليه فإني آمرك بأن تذهب أنت بنفسك إلى خليفة السلطان عندما يكون بآدرار، أو أن تبعث إليه شخصا نيابة عنك، وأن تكتب إليه كتابا في الآن نفسه. ولا تتهاون في شيء في أمر النصارى، وعليك أن تقوم بكل شيء ليصدهم الله عنا، فقد أحدثوا أذى كثيرا، وهم أخطر من السم، وإذا دخلوا أرضا قضوا على الدين وقتلوا شيوخها جميعا، وأخذوا أموال أهلها ولا يتركون سوى النساء والأطفال. ولا ينبغي للرجل العاقل أن يفعل كما يفعل الأرنب يترك الصياد يقتله وعيناه مفتوحتان (مثل حساني) فيجب القيام بالجهاد. فالمسلمون أقوياء بدينهم،والكفار ضعفاء بكفرهم.

وقد روي لنا الكثير عنكم : بل إنه قيل لنا إنكم بقيتم أصدقاء للكفار على الرغم من أنه في إمكانكم إنقاذ أنفسكم منهم والهجرة كما هاجر الرسول (ص) من بلده وقومه لكي لا يقعد مع الكفار>>.

أما أهم أصهار ماء العينين الآخرين فهم:

– ماء العينين ولد الشيخ أحمد من قبيلة أولاد بالسبع ،وهو في ذات الوقت ابن أخته الرابية بنت محمد فاضل،وصهره باعتباره زوج ابنته ميمونة.

– الحضرمي،شقيق السابق،والذي تزوج سعدنا بنت الشيخ.

– القطب،شقيق السابق، الذي تزوج ابنة أخرى من بنات الشيخ.

– محمد فاضل ولد محمد نافع،وهو في الوقت ذاته ابن أخت ماء العينين،حفيد الحجة بنت محمد فاضل،وصهره باعتباره زوج ابنته منى.

– محمد محمود ولد محمد فال ولد الطالب،من أهل حبيب الرحمان،إحدى عشائر تندغة.

علاوة على ذلك ترك ماء العينين في الحوض قبل هجرته إلى آدرار والساقية ابنتين هما:

– خديجتنا،وقد تزوجها أحد أبناء عمومتها

– أم الفضل، وتزوجها محمد بن محمد الحسن أحد أبناء عمومتها ،وقد غادرتا معا الساحل إثر حدوث جائحة حيوانية قضت منذ سنوات على عشر الماشية،واستقر بهما المقام عند سعد بوه،بعد أن قضيا فترة مع ماء العينين.

****

ويمتد نفوذ ماء العينين الديني بالمعنى الدقيق للكلمة،– الذي ورثه أبناؤه في الوقت الحاضر– إلى أقاصي الحدود المغربية الموريتانية لدى قبائل الرقيبات وأولاد دليم ومواليهم : أولاد التيدرارين، ولدى العروسيين وخاصة لدى تكنة الذين يشكلون كنفدرالية وادي نون. وفي الجنوب امتد نفوذه بشكل محسوس في آدرار وخاصة لدى قبائل الأقلال وأهل آجوير، والطرش، والسماسيد، لكن ليس له نفوذ جنوبي خط العرض المار بانواذيبو. فلا يوجد في تلك المنطقة التابعة لدائرة الترارزة سوى بعض الشخصيات من عشيرة إداو الحاج تنتمي إلى فاضلية الشمال. وأبرز تلك الشخصيات : محمد ولد محمدن فال، المشهور باسم الشيخ أحمد ولد

الشمس وهو من عشيرة أهل بابا شمس الفرعية. درس في الساقية، وكثيرا ما مثل ماء العينين في محكمة فاس، بل إنه فتح فيها مدرسة لتعليم القرآن.

وإلى الشمال من وادي نون، يمثل ضريح ماء العينين بتيزنيت مركزا دينيا للفاضلية يجتذب الكثير من الناس.ويبدو أن نفوذهم يشمل تجمعات الشلوحة في المنطقة.

13- القطب:

عاش في الحوض ومات فيه ودفن في صوتا (گومبو).

ذريته من الذكور:

الشيخ محمد الأقظف،محمد تقي الله،الحضرمي.

14- محمد الغيث:

ويلقب بالنعمة، عاش في الحوض ومات فيه، ودفن مع أبيه محمد فاضل بدار السلام (گومبو).

ذريته من الذكور:

محمد فاضل (متوفى) المحفوظ، آبه، سيدي محمد ،محمد تقي الله، ويعيشون جميعا في الحوض في أهل الطالب مختار باستثناء ثالثهم آبه، فقد غادر آبه المولود حوالي 1874م الحوض حوالي 1894م للبحث عن الشهرة لدى سعد بوه. فلما زار الشيخ المحفوظ في صيديو، الذي بقي معه عدة سنوات، عين في دمبا أواند (وهي مقاطعة تابعة لصاندوغو- أعالي غينيا الإنجليزية) فاشتغل فيها بالتدريس بإحدى المدارس وبالزراعة وجمع الزكوات. وهو متزوج من إحدى نساء البلد التكروريات .

15- محمد عبد الوهاب:

يلقب بعبداتي، عاش في الحوض ومات بالجدري في آدرار خلال أحد أسفاره .

ذريته من الذكور:

محمد فاضل، سيدي عثمان، محمد الأمين، محمد فال .

أما محمد فاضل الملقب بفضيلي، وسيدي عثمان الملقب ببويا، فقد أقاما منذ صغرهما لدى سعد بوه. وقد تزوج أكبرهما إحدى بنات الشيخ وهي عزة الأمينة، أما أصغرهما فتزوج إحدى بنات عمه.وقد استعملهما سعد بوه في البداية في جمع الهدايا باسمه، ولكن بما أنهما استغلا وضعهما أصبح يشتكي منهما. وتم فتح تحقيق في القضية فاعترف فضيلي أنه زور في كولخ لدى صانع تقليدي من أهل المدينة ختما شبيها بختم الشيخ، واستعمله لجمع بعض الهدايا ومنح بعض "البركة". وكان ابنا محمد عبد الوهاب هاذين، اللذين تربيا عند سعد بوه، واللذين اعتبرا بمثابة ولديه، عرضة للغيرة من طرف أبناء الشيخ. أما الثالث فقد تربى لدى ماء العينين ومات سنة 1907م . وأما أصغرهم سنا فيعيش في أسرته مع الحوض.

16- اجيه المختار:

عاش في الحوض ومات فيه.

ذريته من الذكور:

محمد فاضل، محمد الإمام، محمد الهيبة، المصلح، القطب، محمد المامون، سيداتي الملقب سيدي القوم، محمد البشير، الشيخ سعد بوه، محمد الأقظف، البشرى.

وقد قدم تاسعهم (سعد بوه) لزيارة عمه سعد بوه سنة 1912م في مخيماته بالخروفة .

17- محمد المصطفى:

عاش في الحوض ومات فيه و لم يعقب ذرية.

18- البشرى:

عاش في الحوض ومات فيه و لم يعقب ذرية.

19- الطالب بوبكر:

ترك أسرته في الحوض في سن مبكرة لكي يعيش لدى سعد بوه.مات في سنت لويس ودفن في انجاكو.

ذريته من الذكور:

محمد فاضل، محمد الأقظف، مفتاح الخير،ماء العينين، محمد تقي الله،سعد بوه، محمد المامون، سيدي محمد ، الحضرمي، آبه، محمد الأمين .

أما محمد فاضل الملقب خويا، صهر الشيخ سعد بوه سابقا، ومحمد الأقظف، فيعيشان مع الشيخ في الخروفة .

وأما مفتاح الخير فقد كان في صغره مقيما عند سعد بوه،ثم ذهب بعد ذلك لاستكمال دراساته لدى ماء العينين وأصبح من أفضل تلاميذه وتزوج إحدى بناته. وهو رجل شديد التعصب، ومحارب صلب حاربنا بقوة في النيملان، وامينان وعوينات الرفايق والرسلات وقصر الطرشان. ومع ذلك فقد أعلن خضوعه في إبريل سنة 1911م وعاش لدى سعد بوه.لكنه عاد مرة أخرى سنة 1912م للبحث عن زوجته وأبنائه كما يزعم، ولم يعد من الشمال بعد. ومع ذلك يبدو أنه لا ينبغي اعتباره منشقا فأهله ومصالحه يوجدان هنا. ويتولى سعد بوه ضمانته بشكل أكيد وهو أمر غير معهود.

أما ماء العينين فقد استقر به المقام لدى عمه الذي يحمل الإسم ذاته المقيم في الساقية منذ سنوات طويلة.

وقد قدم محمد تقي الله منذ سنوات من الحوض إلى سعد بوه وقضى عنده ردحا من الزمن، ثم عاد إلى عشيرته في الحوض.

أما سعد بوه فيعيش منذ طفولته لدى عمه الذي يحمل الإسم ذاته المقيم في الخروفة . وقد اشتهر بمشاركته في المفاوضات السرية بين سعد بوه وماء العينين خلال الفترة الفاصلة ما بين عامي 1907 و1908م .

أما محمد المامون ، المقيم لدى سعد بوه، فقد تزوج حفيدة هذا الأخير مريم سهلة ابنة سيدي بويا .

أما سيدي محمد وآبه فيعيشان منذ عدة سنوات في مخيمات ماء العينين.

20- محمد أبو الأنوار:

عاش في الحوض ومات فيه و لم يخلف ذرية.

21- محمد الإمام:

عاش في الحوض ومات فيه ودفن في دار السلام مع والده.

ذريته من الذكور:

محمد فاضل الملقب المهابة،اجيه المختار،سيدي بويا.

فأما اجيه المختار فقد تزوج فيما مضى الحجة بنت سعد بوه وطلقها لكنه استمر في العيش مع الشيخ. أما سيدي عثمان الملقب سيدي بويا فهو مقيم أيضا لدى الشيخ.

22- محمد المختار:

عاش في الحوض ومات فيه.

ذريته من الذكور:

محمد المختار، المحفوظ.

23- محمد المصلح:

عاش في الحوض ومات فيه ولا تزال أسرته هناك.

ذريته من الذكور:

محمد فاضل،محمد الإمام،آبه،محمد الأقظف.

24- محمد ابراهيم:

عاش في الحوض ومات فيه ولا تزال أسرته هناك.

ذريته من الذكور:

محمد فاضل، محمد الأقظف، الهيبة، مامين.

وقد قدم هذا الأخير (مامين) إلى الشيخ سعد بوه سنة 1911م وبقي عنده عدة أشهر ثم عاد إلى الحوض .

25- محمد الزين:

عاش في الحوض ومات فيه ودفن مع والده في دار السلام.

ذريته من الذكور:

محمد تقي الله،القطب(متوفى)،محمد سالم.

26- محمد الفاتح:

عاش في الحوض ومات فيه و لم يخلف ذرية.

27- الشيخ سيدي محمد:

الملقب يب المختار عاش في الحوض ومات فيه ولا تزال أسرته هناك.

ذريته من الذكور:

الشبيه، عثمان، الحضرمي، سيداتي.

28- محمد المعلوم:

عاش في الحوض ومات فيه ولا تزال أسرته هناك.

ذريته من الذكور:

محمد الأمين (متوفى)، سيدي بويا، ماء العينين، محمد الحسن، محمد تقي الله(متوفى)، محمد فاضل، الحضرمي .

29- محمد الحطاب:

عاش في الحوض ومات فيه و لم يخلف ذرية.

30-الشيخ سعد بوه [65]:

أولا– حياته:

ولد الشيخ سعد بوه (ومعناه "سعادة أبيه") في الحوض حوالي سنة 1850م في عشيرة أهل الطالب مختار في مسكت الراس. ودرس على والده محمد فاضل الذي منحه مع الورد القادري الإذن بمنح كل الأوراد الأخرى. أما أمه فهي مريم بنت أحمد لولي من عشيرة إيدادهس التي يعيش معظمها في الوقت الحالي مع أولاد ابييري في أبي تلميت.

هاجر من الحوض إلى تگانت في نفس السنة التي توفي فيها والده مرفوقا بعدد من أتباعه. أما الرفيقان اللذان ظلا متعلقين به حتى النهاية فهما:

محمد الأمين ولد عيسى ،وقد توفي الآن لكن أبناءه يعيشون في مخيم الشيخ ودفن مع الطالب بويا شقيق سعد بوه.

[65] انظر حول الشيخ سعد بوه:لوشاتلييه، مصدر سبق ذكره، ص ص 328-336؛وكذلك ن.بوفا، الشيخ سعد بوه وحاشيته من خلال مخطوط غير منشور في "مجلة العالم الإسلامي"، المجلد 17،سنة 1912، ص 185 وما بعدها.

ابراهيم ولد عبد الله،وهو صانع تقليدي انتهى به الأمر إلى الاستقرار في سنت لويس وتوفي هناك سنة 1913م. أما أبناؤه فهم الآن مع سعد بوه.

محمد الأمين وهو من قبيلة تجكانت، مات و لم يعقب ذرية.

وقرر الشيخ سعد بوه القيام بالحج إلى بيت الله الحرام بعد أن جاب تگانت وآدرار وزار أبناء عمومته أهل محمد العبيدي ولهذا الغرض سافر إلى سنت لويس وأقام بها عدة أشهر. غير أن الإفراط في مظاهر التدين أثناء الليل أدى إلى حدوث خلافات بين الشرطة المحلية وأتباع الشيخ فتخلى سعد بوه عن نيته في الحج حوالي سنة 1872م، وجاء ليستقر به المقام في زيرى لدى زنوج التنابة في المثلث الواقع بين المحيط الأطلسي والسنغال وفرع مارنغوين النهري. تزوج في زيرى وأقام بها ردحا من الزمن، ومنذ ذلك الحين بدأ في بناء شهرته باعتباره شيخا،على الكرامات أكثر من بنائها على العلم والتدين. ثم صعد نحو الشمال فأقام مخيمه على التوالي في بوجاية بين الخروفة والمحيط الأطلسي، ثم في تويزكت،وعاد من جديد إلى بوجاية، ثم النيمجاط وأخيرا في آكنيت ممضيا عدة سنوات في كل مكان من تلك الأماكن. وتجدر الإشارة إلى أن نقاط المياه هذه تميز الطريق الرابط بين سنت لويس وآدرار، وأن سعد بوه تعلق بهذه الطريق التجارية عن قصد .

وتلقى أثناء وجوده في بوجاية زيارة من أخيه محمد المامون، الذي كان في طريقه إلى الحج إلى بيت الله الحرام وتوفي في طريقه. وتلقى بعد ذلك زيارة أخويه عبداتي والطالب خيار الذي توفي في سنت لويس ودفن بها. تلك هي بداية الهجرة التي تزايدت منذ ذلك التاريخ : فلا أحد من أبناء إخوة الشيخ سعد بوه في الحوض لكم يأت لزيارته، بل إن الكثير منهم بل والكثير من أخواته مثل سعاد، بقوا معه في مخيمه .

وقد شيد الشيخ سعد بوه لنفسه في تويزكت بإنشيري قصرا صغيرا هو الآن مهجور. وسعد بوه البالغ من العمر 64 عاما تقريبا هو الآن رجل ضعيف، يعاني من السمنة، عاجز، ويبدو أنه مصاب بالربو، وذا صحة معتلة. فلم يعد في مقدوره الانتقال من مكان إلى مكان، وانعدام التواصل هذا هو أمر يثير القلق على مصالحه .

ثانيا– تجمع أهل الشيخ سعد بوه:

يوجد مخيم الشيخ سعد بوه حاليا غير بعيد من المركز العسكري القديم بالخروفة عند ساقية آكننت. ويتكون من مائة خيمة مبعثرة دون نظام حول الساقية في شعاع يتراوح طوله مابين 500م إلى 2 كليوميتر، ويتنقل في معظم الأحيان على مدى يبلغ بضع عشرات من الأمتار. أما الأحياء الأخرى فقد استقرت حول الآبار المجاورة .

ويمارس الشيخ سعد بوه حاليا السلطة الإدارية لعشيرته الزاوية المعروفة باسم "أهل الشيخ سعد بوه" (التابعة لدائرة الترارزة – مندوبية المذرذرة) وتتضمن تلك العشيرة 1200 نسمة ، وتنقسم إلى العشائر الفرعية التالية:

1- أهل الشيخ أو عائلة الشيخ نفسها.

2- أهل آغ الدبياي

وأهل محمد عمر وتنقسم هذه العشيرة الفرعية إلى ثلاث عائلات هي:

– أهل المصطفى ولد عبدي

– أهل باهنينا

– أهل الصفالين

وينحدر هذان الفرعان من الركاكنة.

3- أهل أحمد الفضيل:وهم من "التياب" أو حسان المحاربين المنحدرين من أولاد أحمد بن دمان التائبون.

4- أهل الشريف : وينحدر هذا التجمع الأسري من أحد السكان المحليين يدعى سيدي محمد الشريف من أصل مصري استقر به المقام في الترارزة منذ مائة عام وخلف ذرية فيها تتمثل في أبنائه الثلاثة : محمد مولود، الملقب اباه الشريف، ومحمد محمود الملقب بدي، ومريم . وتتجمع ذراريهم التي تشكل الآن عشيرة من الشرفاء يصل عدد أسرها إلى ثلاثين أسرة في آمندور وتنغوَن، وتربطهم علاقات روحية ببعض قرى التكرور في فوتا تورو (بالسنغال)، وصلات قرابة فعلية مع بعض السكان المحليين من قبيلة مدلش ومنهم على وجه الخصوص قاضي القبيلة:الشريف ولد اكبار.أما أهم شخصيات أهل الشريف هؤلاء في الوقت الحالي فهو محمد فال ابن عابدين ابن محمد مولود البالغ من العمر 40 سنة ،والذي شغل منصب القاضي عدة مرات،ويشتهر بأنه عالم كبير.

ثالثا– أسرته:

للشيخ سعد بوه سبعة أولاد وعشر بنات:

ذريته من الذكور:

سيدي بويا وابنه سعد بوه،أتقانا، الحضرمي، أتقانا وابنه سعد بوه الملقب "الزاوي"، محمد فاضل،سيدي بويا، الحضرمي [66](المتوفى سنة 1910)وابنه الولي (المتوفى سنة 1913م)،سيداتي، الولي، المحفوظ (وابنه سعد بوه)، محمد فاضل، محمد ماء العينين، الطالب بويا، بوننا محمد فاضل.

وسيدي بويا البالغ من العمر 41 سنة هو نجل الشيخ وأمه مارومنا (أم رمانة) ابنة أحمد ولد لما وهي بوحبينية من تندغة. أما زوجته فهي سعداني

[66] في النص تكرار لهذا الإسم (المترجم).

ابنة عمه عبداتي . درس على والده وأكمل تعليمه على يد عمه ماء العينين من سنة 1896 إلى سنة 1898م، وتزوج إحدى بنات ذلك الشيخ وطلقها بعد ذلك .

اختير سيدي بويا عند إعادة تنظيم الترارزة [67]، وتشكيل زعامات كبرى لعشائر الزوايا سنة 1906م زعيما لقبيلة تندغة، فظهر في ذلك المنصب دون سلطة ودون قوة، ومتهم بالاختلاس، فأعاد الضريبة التي اختلسها من تلقاء نفسه وعزل من زعامة القبيلة في يوليو سنة 1909م .

ويستعمله أبوه في الوقت الحالي مبعوثا إلى السنغال لممارسة الدعوة. وهو من الناحية الرسمية الخليفة الذي عينه الشيخ سعد بوه ليخلفه في منصبه،لكن لا يبدو أنه يتمتع بخصال تؤهله لأن يكون شيخا كبيرا في المستقبل.

أما أتقانا، واسمه الحقيقي محمد تقي الله ، فيبلغ من العمر 40 سنة، وهو شقيق الحضرمي والولي . رافق أخاه الأكبر إلى ماء العينين وعاد إليه مرات عدة، وتزوج إحدى بنات ذلك الشيخ لكنه طلقها منذ مدة، وهو الآن متزوج من امرأة من أولاد ابييري . ويعيش أتقانا ذي الروح المستقلة وحده حياة البداوة الحقيقية إلى الشمال الشرقي من نواكشوط. سافر عدة مرات إلى سنت لويس وآدرار في أعماله التجارية وأعمال أبيه.

أما الحضرمي وهو ثالث أبناء سعد بوه، الذي تزوج امرأة من قومية النتابة الزنجية فقد توفي. أما سيداتي وهو شقيق الطالب بويا،البالغ من العمر 36 سنة، والذي تزوج بإحدى بنات عمه،ابنة الطالب خيار، والولي البالغ من العمر 35 سنة، فليست لهما شخصية متميزة ويعيشان في مخيم أبيهما. وقد تزوج المحفوظ البالغ من العمر 33 سنة ابنة عمه آمنة ابنة عبداتي، وهو أكثر من حاز على ثقة سعد من أبنائه جميعا. وكان على الدوام في مهمة تجارية أو دينية سواءا في السنغال أو في آدرار. ويرافق

[67] الذي أشرفت عليه السلطات الاستعمارية (المترجم).

الشيخ عادة في جولات الزيارة التي يقوم بها . وقد أسدى خدمات متميزة للبعثة التي قادها شيدو وغريفيل Chudeau-Gruvel (في يناير- مايو 1908-1909م). ويوجد الآن ومنذ سنة شمالي وادي درعة لمحاولة الحصول من الهيبة على تعويض عن إبل للشيخ سعد بوه اختطفها بعض المنشقين سنة 1913م.

أما محمد ماء العينين البالغ من العمر 31 عاما ، الذي تزوج فاطمة بنت الزمراقي الأمين من أهل بارك الله ؛ والطالب بويا زوج ياسين ؛ ومحمد فاضل الملقب بوننا (أبونا، وبونا هو اللقب الذي أطلقه أبناء محمد فاضل عليه) البالغ من العمر 27 سنة، والذي تزوج على التوالي امرأة من تاشدبيت وإحدى بنات عمه من الحوض، فيعيشون جميعا في مخيم أبيهم.

وهم يذهبون من حين لآخر إلى الحوض في الشؤون التجارية والدينية للشيخ.

وهناك اثنتان من بنات سعد بوه هما خدجتنا وسعداني تزوجتا اثنين من أبناء العينين :الأولى تزوجت الشبيه والثانية تزوجت الشيخ حسننا. أما الأخريات فقد تزوجن بأبناء عمومتهن المنحدرين من الحوض أو من آدرار والمقيمين لدى سعد بوه،كما تزوجن أيضا من بعض الشرفاء والمشايخ المحليين من قبيلتي إيديقب وتنواجيو .

رابعا- زاويته:

يعد مخيم الشيخ سعد بوه أحد مراكز الدراسة المهمة،وهو يتضمن عدة مدارس ابتدائية يتعلم فيها القرآن ستون من الأطفال والفتيات والشباب تحت الخيمة بطبيعة الحال.

وعندما يكملون حفظ القرءان الكريم [68] يواصل عدد منهم تعليمه فيدرس التوحيد في كتب "الخازن" و "الجلالين" وتفاسير بعض السور التي قام بها الشيخ سعد بوه نفسه،كما يدرسون الفقه في "الرسالة" و"التحفة" و "ابن عاشر" و "الأخضري" و "مختصر خليل"؛كما يدرسون الأدب لدى الشعراء الجاهليين ،والنحو في "ألفية بن مالك" والسيوطي.

ويتم اكتتاب هؤلاء الطلاب من قبائل الزوايا المجاورة، ويوجد من بينهم أيضا بعض الولوف من سنت لويس وكايور، وبعض الفلان من فوتا تورو، وبعض الصوص من كازامانس وغامبيا، وطالب واحد أو اثنين من البمبارا.

ومن أشهر أساتذة الزاوية : الحاج ولد عبد الله من تشمشة، ومحمداً ولد لمن من إيديقب إيدا تشفاغةنوالحسن ولد المختار الحسن ولد محمد فاضل، ومحمد المختار ولد أحمد زايد الملقب خطري (وتعني "أنا") والشريف التناجيوي. ولهذا الأخير وهو زوج بنت السعد ابنة أخت الشيخ،خمسة أولاد كلهم منشقون في الساقية، وهو معروف بأنه فقيه فذ، لكنه لا يكاد يخفي مشاعر العداء للفرنسيين .

ولم يكن الشيخ ولا المقربون منه يتمتعون بشهرة كبيرة بالعلم . فليس لهذه الزاوية من القيمة العلمية ما يجعلها أعلى من مخيمات الزوايا الأخرى في بلاد الترارزة والبراكنة، فهي بعيدة عن بلوغ الشهرة العلمية التي بلغتها زاوية الشيخ سيديا أو شهرة مخيمات أهل محمد سالم في غرب آدرار.

68 في النص "الكتاب" .

خامسا— نفوذه:

يمتد نفوذ سعد بوه، الضعيف شمال النهر،خاصة إلى البلدان الإفريقية في السنغال وغينيا.وهو يعتمد على شهرته في إظهار[69] الكرامات من كل نوع أكثر من اعتماده على علمه وورعه.

وهذه هي أهم الكرامات التي حصلت على يديه [70] وقد رواها المقربون منه ومبعوثوه بشيء من التفصيل الرائع الممتع لسائر أتباعه والداخلين الجدد في الطريقة :

إثر إقامته الأولى بسنت لويس، سيق أتباعه إلى السجن بعدما أثاروا انتباه الشرطة بطول قيامهم ورفع أصواتهم بصلاتهم أثناء الليل. إلا أنهم حاولوا الهرب في طريقهم واشتبكوا مع وكلاء الأمن وهو ما أدى بالطبع إلى تعقيد وضعهم. فلما أخبر الشيخ بتلك الوقائع صلى صلاة مطولة وأعلن في الصباح أن الله قد كشف له بأنه سيدعى في الغد ليسلم إليه أتباعه. وبناءا على ذلك رفض الذهاب من محل إقامته مع أبي المقداد [71] والذي كان يريد منه الخضوع لتحقيقات الشرطة. وبالفعل، وبعد مضي ساعات استدعاه الوالي واستجوبه باحترام وأطلق في الحال سراح الجميع.

وبعد ذلك عندما استقر الشيخ في الترارزة أراد الأمير سيدي امبيريكة(1861-1879م) أن يعاقبه بشدة بسبب عمليات الشعوذة الكثيرة التي عابها عليه المشايخ المجاورون. فشكل بناءا على ذلك لجنة من القضاة والفقهاء وأحضر الشيخ للمثول أمامهم لمحاكمته. إلا أن ذلك المثول انقلب ضدا على منتقديه وقدم سعد بوه، مؤيدا من الله على ما يبدو،إجابات في غاية الروعة أربكت اللجنة على الرغم مما تسلحت به من كتب فقهية قيّمة.

69 في النص صنع الكرامات (المترجم).
70 في النص استطاع إنجازها (المترجم).
71 دودو سك المترجم (المترجم).

ونزل مرة من سفينة، أثناء سفره في النهر من سنت لويس إلى بودور، ليتوضأ ويصلي الظهر في الزورق المربوط في مؤخرتها إلا أنه لم يمسك الزورق بشكل جيد فوقع في النهر ولم يره أحد في بداية الأمر،لكن أحد الأتباع لاحظ بعد ذلك غياب الشيخ فبحث عنه في كل مكان فرآه أخيرا خلف السفينة بعدة مئات من الأمتار ساجدا على ركبتيه على سطح الماء ومع ذلك سارع الناس لإنقاذه من هذا الوضع الغريب .

وكان يوما مسافرا في بلاد صحراوية فنفد الماء عند القافلة، وعانى الناس من العطش فسأل الشيخ : "هل هناك من بقي عنده القليل من الماء؟ " فأجابه رجل من أهل اتفاغة الخطاب قائلا: "لا يزال لدي بقية ماء في قعر قربة" فقال له "ائتني به"، فأمسك الشيخ القربة بيده ودعا الناس ليشربوا فشربوا جميعا حتى ارتووا وأخذوا الماء معهم أيضا لإعداد الطعام. وبعد ذلك أعاد القربة إلى صاحبها الذي لاحظ أن كمية الماء لا تزال كما هي .

ومرة أخرى وبينما كان في طريقه يصلي في إثر قافلة مهمة لإيدا وعلي والسماسيد وقبائل أخرى، لحقت به عصابة من أولاد دليم وأولاد اللب جاءت لتأخذ ضريبة العبور. فقال لهم عندما مروا به في طريقهم إلى القافلة : "دعوا هؤلاء القوم وشأنهم فإنهم معي" فلم يبالوا بما قاله وتابعوا طريقهم للحاق بالقافلة . إلا أن الأرض تمددت أمامهم فاضطروا إلى العودة من حيث أتوا دون أن يتمكنوا من إرواء جشعهم .

وسافر قبل ثلاثين عاما إلى باول وكان الزعيم الإحيائي الوثني بي بايار يسيطر على تلك المنطقة في ذلك الوقت، وكان يمنع أي مسافر من أن يحط رحاله بأرضه إلا بإذنه . بيد أن الشيخ أقام بها دون الحصول على ذلك الإذن . فقال الزعيم عندما أخبروه بذلك "دعوا هذا الرجل وشأنه" وأمر عبيده فحملوا إليه الكثير من الطعام . وفي الصباح طلبه واستقبله في حلل من الذهب جالس على عرش مرفوع، وقد أحاط به شبان مردة يخدمونه. فأجلس الشيخ إلى جانبه وأكرمه.فلما حدث الشيخ سعد بوه

الزعيم في موضوع الأصنام أجابه قائلا: "لقد ورثناها عن آبائنا"، واستمر الحوار على هذا النحو:

- "إنكم بذلك تعبدون ما لا يمكن أن يفيدكم أو ينفعكم"
- "إن هذا الخشب الذي نعبده ينفعنا تارة ويضرنا تارة أخرى"
- "فهل تأذن لي، بأن آمر أحد أتباعي فيكسره ويجعله ركاما"
- "وهل يستطيع ذلك " ؟!
- "بلى"
- "إذن فليفعل" !

وهو ما حدث بالفعل وبعد قليل جاء المريد يجر الشجرة وراءه، فاستشار الزعيم المذهول قومه، ثم التفت إلى الشيخ قائلا:

- "ماذا نعبد إذن ؟ "،فرد عليه:
- "اعبدوا الله"
- "إذن فعلمنا ما يجب أن نؤمن به"

وبعد هذا اللقاء تلقى الزعيم تعاليم الشيخ ،وخلع ملابسه الفخمة واعتنق الإسلام هو وقومه جميعا . ولما سمع أن الشيخ جميل جدا، وأن له على وجه الخصوص شعرا جميلا قال له - "اكشف عن رأسك لأراك" فقال له :

- "لن تستطيع"فرد عليه :
-"بلى أستطيع" فقال له:
- "انظر إذن" قالها الشيخ وقد حسر عمامته عن رأسه إلا أن رأس الزعيم انحنى فوق صدره و لم يستطع رفعها لرؤية الشيخ : وهكذا قال له هذا الكلام مخلصا إياه من محنته :" يمكنك التمييز بين ملوك هذه الدنيا

والملوك الحقيقيين في العالم الآخر" فقدم له الزعيم هدايا قيمة وظل إلى الآن تلميذه الوفي .

ويحصل الشيخ سعد بوه في الوقت الحالي على هدايا قيمة يقدمها له الداخلون الجدد في الإسلام لقاء تعليمهم وتكوينهم . وهكذا يأتيه من أقاصي إفريقيا الغربية زوار من الزنوج يجهلون كليا أمور الدين ولا يميزون بين الركوع والسجود فيمنحهم تعاليمه ويخرجون بعد مرور سبعة أيام وقد تعلموا الإسلام بشكل كامل على يديه، وجديرون بأن يكونوا شيوخا،هداة للنفوس.

وفي الوقت الذي كان فيه العبيد البيظان المحيطون به يستغلون فرصة وجود الفرنسيين ونظمهم الجديدة لاستعادة حريتهم، ظل أهله متعلقين به بإخلاص .

وقد تعاقب على زيارته إخوته جميعا وأبناء إخوته من الساحل باحثين عن خيرات تلك البلاد أو سعادة الدار الآخرة ،وهو وحده الذي لم يذهب أبدا لزيارتهم في الحوضَ . تلك هي نتيجة السلطة العليا والمنـزلة الدينية السامية التي منحها له أبوه محمد فاضل عندما لف رداءه على رأسه [72] .

وفي الأخير لم يطلب منه الفرنسيون، الذين فرضوا بعض الضرائب على البيظان الذين كانوا يأتون بتجارهم إلى سنت لويس، أبدا دفعها تقديرا لصلاحه .

بيد أن هذه المزاعم بوجود قدرة خارقة ينسبها طلاب سعد بوه إلى أستاذهم تنقلب إلى سخرية لدى المشايخ الآخرين . لهذا فإن نفوذه ضعيف في بلاد البيظان باستثناء المقربين منه مباشرة .

72 ذلك هو رمز الاستخلاف على الطريقة كما يعبر عنه شيوخ المتصوفة عندما يريدون نقل كرسي المشيخة إلى خلفائهم . وقد يعبرون عن ذلك بوسائل مختلفة كأن يمنح الشيخ لخليفته سبحته أو سجادته أو أي شـيء آخر من متعلقاته (المترجم).

ولا يتمتع الشيخ سعد بوه بنفوذ كامل في منطقة الترارزة إلا لدى التنابة الزنوج ولدى أهل آغ دبياي وهي عشيرة من تندغة-الركاكنة.

ونفوذه محدود جدا لدى لبيدات،وأبرز تلاميذه فيهم هو ابراهيم ولد الشرقي ،وأهل بوحبيني:عشيرة أهل محم ولد اعمر،وأبرز تلاميذه فيها هو الشيخ عبد الله ولد الصلاحي وعشيرة أهل شعبان وأبرز تلاميذه فيها أحمد حيمّه ولد محمد النيه، وهو أحد الوجهاء مسموعي الكلمة في القبيلة، شارك في البعثة إلى فاس سنة 1905م ؛تاكونانت- أولاد مولود الذي تزوج ابنته،وإيدا غفوجه وأبرز تلاميذه فيهم هو محمد ولد المصطفى الملقب بابوك وهو شيخ القبيلة ذاهّا؛وأهل بارك الله ،وإيديقب وأخيرا تاشدبيت.

وكان للشيخ سعد بوه في تاشدبيت (المذرذرة) في السابق واحدا من أكثر الدعاة وجامعي الهبات في الدول الإفريقية حماسة وهو عبد الله ولد أحمد سالم ولد الجكني، إلا أن هذا التلميذ حاد الذكاء لم يتأخر في استغلال دروس أستاذه الرائعة بعد توسيعها. وقد اقتصر تجارته الخيرية في بادئ الأمر على السنغال بعد أن استقر في اللوكَة، ونسج علاقات تجارية مع مستوطنة أولاد بالسبع بسنت لويس، ومع الولوف المتواجدين حول السكة الحديدية،وبعد أن تزوج امرأة من تلك القومية وتعلم لغتها. وفي عام 1911م وسع حقل عملياته ليشمل كازامانس وغينيا.

وقد قام عبد الله مع محمد الأمين ولد سيد احمد من أولاد نغماش (البراكنة) ومغامرة تدعى محجوبة ،التقوا في فوتا جالون، بتشكيل قافلة خيرية تدّعى أنَها من الشرفاء تجوب تلك المستوطنات لتبيع على وجه الخصوص الحجابات (amulettes) ووصفات الزواج. ويجب أن يقوم العاشق ،الذي يعلق هذه التمائم في البداية على جسمه،بتذويبها عند أول فرصة في شراب الشخص الذي يرغب في الزواج منه أو في طعامه ونجاحه مضمون. وكانوا يزعمون عند الضرورة وخاصة عندما يكون الوسط معاديا للفرنسيين، بأن محمد الأمين هو قاتل كبولاني .

اعتقل عبد الله في مطلع سنة 1912م بعد أن أبلغ عنه الشريف يونس في صيديو فاقتيد تحت الحراسة إلى أبي تلميت، وحكمت عليه محكمة المقاومة بالسجن ستة أشهر في الثاني عشر من يوليو سنة 1912م، وهو الآن مسجون في قبيلة تاشدبيت. وقد استبعده الشيخ سعد بوه نهائيا من عداد تلاميذه بعد قيامه بتلك المغامرات المقززة.

ولا نكاد نجد نفوذا يذكر للشيخ في قبائل تجكانت ومدلش وأولاد تشفاغة حبيب الله.

وقد كانت علاقات أمراء الترارزة بالشيخ جيدة على الدوام فقد تحرر هذا الأخير من الالتزامات التي تقضي بها العادات لحسان (القبائل المحاربة)، في حين لم يتجاوز هؤلاء أبدا في الغرامات التي فرضوها الحد المعقول نظرا لتعظيمهم للشيخ وخاصة الأمير الحالي، الذي كان قد وجد مأوى في مخيم الشيخ سعد بوه بعد اغتيال الأمير أحمد سالم الثاني سنة 1905م، فكانت علاقاته به قوية للغاية. ومع ذلك تجدر الإشارة إلى برود طفيف اعترى تلك العلاقات منذ السنة الماضية عندما أقدم أحمد سالم الثالث على خطب ود زوجة الشيخ الشابة مستغلا غيابه على ما يبدو في جولة لجمع الهبات، و لم ترفض ذلك .

أما في منطقة البراكنة فللشيخ سعد بوه بعض التلاميذ لدى إيداغجملّة، وأهم تلاميذه في هذه القبيلة هو محمد فاضل ولد محمد زايد البالغ من العمر 38 سنة الذي تربى في مخيم ماء العينين، وقد حاربنا بشدة حتى إبريل من سنة 1911م، وهو التاريخ الذي أعلن فيه خضوعه. أما أهم تلاميذه في تگانت فهم السيخ عبد الرحمان ولد عمر ربان ولد الطالب أحمد ويبلغ من العمر 46 عاما، وهو أستاذ له نفوذ كبير في قبيلته بل وفي قبيلة تركزْ وفي أهل الشيخ ولد ميني ؛ والشيخ سيدي عبد الرحمان ولد المعلوم البالغ من العمر 40 سنة الذي يتنقل كثيرا لا في منطقة البراكنة فحسب وإنما أيضا بين شرفاء گورگول وإيدوعيش في تگانت التي يمتلك فيها العديد من التلاميذ.

أما في دائرة ݣورݣول (كيهيدي) فلا يشمل نفوذ سعد بوه سوى بعض البيوتات من قبيلة لمتونة نذكر منها:

1- أولا في عشيرة إيدغبانْبرة : اعل ولد محمد المختار ولد ابراهيم البالغ من العمر 47 عاما، وهو معلم مدرسة وأحد الأعيان المهمين. ويسافر في بعض الأحيان من خاي إلى سنت لويس وحتى إلى كايور. وكان أبوه قاضي القبيلة ؛ والمختار ولد الشيخ النعمة البالغ من العمر 37 عاما، وهو رجل عادل وعالم ؛ والإمام ولد الإمام ويبلغ من العمر 35 سنة وهو معلم مدرسة مزدهرة .

2- أما في عشيرة إيدا تشفاغة فنجد عبداوة ولد بينا البالغ من العمر 47 عاما، والذي تتلمذ على ماء العينين أيضا .بدأ حوالي سنة 1900م رحلة حج لم يكملها.

أما في منطقة آدرار فيوجد أهم تلاميذ سعد بوه في قبيلة السماسيد، وممثلوه في أوجفت هم : عبد الرحمان اللمتوني ومحمد المختار السباعي، وكان هذا الأخير مكلفا بتسيير واحات الزاوية وغيرها من الزراعات التابعة لها، وفي أطار رجل يسمى محمد مولود.

وليس للشيخ سعد بوه شخصيا في الحوض والساحل، وفي الساقية ووادي درعة، أتباع في تلك المناطق،إن اسمه يلقى فيها تقديرا كبيرا لدى أهل الطالب مختار جميعا، ولدى تلاميذهم وأتباعهم .

ومع ذلك ونتيجة للعداء الدائم بين الفاضلية وكنتة ،تذمر الشيخ سعد بوه من تعرضه لوشايات من طرف هؤلاء.وهكذا التقى يوما حينما كان يقوم بزيارة لآدرار الخليفة ولد عابدين ولد الشيخ سيدي المختار، وهو ابن عم شيخ كنته ومبعوثه فذهب هذا الأخير إلى الأمير ولد عيدّه وقال له : "إنك لتعظم هذا الشخص من أهل الطالب مختار الذين يدعون كذبا أنهم شرفاء، في حين أنك لا تكاد تستقبلني أنا الكنتي بشكل يليق بي" فلم يعر الأمير- يضيف سعد بوه — أي اهتمام لهذه الشتائم المضادة، بل إنه

أراد أن يقطع رأس المغتاب.إلا أن هذا الأخير لم يعتبر نفسه مهزوما، وجاء ليقذف سعد بوه ثانية حتى في الترارزة ، إلا أن الأمير في ذلك الوقت علي جمبت ابن محمد الحبيب (1873م المتوفى سنة 186م)، طرد الكنتي، الذي يغار بالطبع من نفوذ يمارس على حساب نفوذه الخاص، من بلاده دون أن يستمع إليه .

أما في بلاد السودان [73]، فإن نفوذ الشيخ على العكس من ذلك أكثر استقرارا، ولم يساهم في الدعاة الذين نصبهم محمد فاضل في تلك البلاد بالشيء القليل . فهو يجمع تحت رايته الروحية في الضفة الموريتانية من النهر في شمامة بالترارزة معظم تكرور مقاطعة انتيكان (التابعة لمندوبية المذرذرة)، ويعد رجل الأعيان الشيخ محمدُ كانْ ممثله المفضل.

وللشيخ سعد بوه في السنغال آلاف الأتباع في كل مقاطعة من مقاطعات فوتا، وديولف وكايور وباول، وفي غامبيا وكازامانس.

وله في خاي في أعالي نهر السنغال، العديد من التلاميذ المهمين وأشهرهم الشيخ بكاري كمارا في كنيوكوتا ويبلغ من العمر 50 سنة، تلقى دروسه في الساحل، ويعلم القرآن لاثني عشر تلميذا (في مندوبية *المدينة*).

وقد انتقلت فوتا التكرور التي كان منذ سنوات، قادرية تابعة للزعامة الروحية للشيخ سيديا الكبير إلى التجانية مع الحاج عمر. ويبدو أن تعلقها بهذه الطريقة الدينية، أصبح ميزة وطنية لها. وقد نقل الشيخ سعد بوه جهوده الدعوية في هذا الاتجاه بشكل ممنهج وعنيد،وحاول تمرير تجانيته في المنطقة لملئ الفراغ الذي تركه أبناء الحاج عمر وخلفاؤه.

أما أبرز ممثليه هناك فهم :

---

[73] ويقصد بها هنا الدول الإفريقية ومنطقة شمامة الموريتانية الواقعة على الضفة الشمالية لنهر السنغال (المترجم).

في دائرة باكل : شيخو مامادو،توفي في الآونة الأخيرة وهو والد عبد السلام كانْ الزعيم المحلي للمقاطعة. وفي دائرة ماتام الشيخ سليمان وهو مزارع ومعلم مدرسة في هوريفونديه ؛ ومامادي آلفا، والشيخ حامدُ كانْ قاضي ماتام، والشيخ موسى كامارا الگوركي في گانگل (دمغا). ويشرف هذا الأخير البالغ من العمر 51 عاما، وهو ذكي وعالم،على مدرسة قرآنية، ويدرس مبادئ الفقه الإسلامي. وهو في الوقت ذاته مقدم في القادرية والتجانية وله نفوذ كبير، ولديه خمسون طالبا يعملون لصالحه، ولا يتجاوز نفوذه دمغا، ولا يتمتع إلا بنفوذ جزئي خارجها.

وفي دائرة سالدى ديوبيفول:

الشيخ البخاري في قرية نيرى الواقعة على النهر غربي كيهيدي (مقاطعة بوسيا).

والشيخ لابا لدى الفلان البدو : الفافابي والدياوابي والديك واليالابيه والساندرابي ؛ وفي ديابا (مقاطعة أرلابس أبيابس) مامادو الألمامي الحاج وهو تاجر من أعيان البلدة وحاج لبيت الله الحرام ،وسيرى عباس صوه من ديابا بالقرب من هوريفوندى (مقاطعة آرلابس)، وهو فقيه وعالم أنساب مشهور [74] .

وفي دائرة بودور:

الحاج ممدو عبد الكريم المقيم في بومبا (البحيرة الشرقية) وهو تلميذ الألمامي السابق مامدو بيرام الذي توفي بمكة المكرمة أثناء الحج سنة 1893م.

وهؤلاء التكرور جميعا تجانيون وينمحون الورد باسم الشيخ سعد بوه باستثناء سيرى عباس فهو قادري.

[74] سيرى عباس هو مؤلف العديد من الحوليات ذات الأهمية البالغة حول فوتا السنغالية جمعها جمعها الحاكم غادان وترجمها م.م.دولافوس، وظهرت في "مجلة العالم الإسلامي" في عددي سبتمبر وديسمبر 1913م، وفي عدد مارس 1914م.

ويعد نفوذ الشيخ كبيرا جدا في جنوب نهر السنغال من سنت لويس إلى داكار. ففي سنت لويس لا يزال يحظى بالاحترام والتقدير العام وخاصة في حي اندر توته الذي هو معقله. لكن له أيضا مستوطنات مهمة من المريدين سواء في گت اندرْ أو في شمال جزيرة سنت لويس ذاتها، ويمثله فيها المقدمون الآتيون،الذين هم بدورهم شيوخ لزوايا صغيرة:الشيخ امبارك ديوب، والشيخ بيرام كومبا واد، والشيخ مالامين ديي في گت اندرْ، والشيخ آمادو ديوب فس اندرْ توت، والشيخ آمادو فال في صور،وأخيرا الشيخ مصطفى گيْ في الجزيرة،ويقيم في الحي الشمالي.

وقد غادر الشيخ آمادو دجينغ ،أحد مقدميه المقربين في اندرْ توت،سنت لويس منذ ثلاث سنوات تقريبا ليعمل عند الشيخ المحفوظ في صيديو.

ويمكن أن نقدر العدد الإجمالي لطلاب سعد بوه في سنت لويس بـ 1200 طالبا. أما ممثلوه الأساسيون في محطات السكة الحدية فهم :

- مادمبا سيلا في اللوگة

- الشيخ امبولو مارام في گومبو - گوول

- مصطفى ديوب والشيخ مامامدو ديمبيرى وكلاهما في كبَمر

- إبراهيم كودو، وهو مطرب تحول إلى شيخ في تيفاوان. ويعد نفوذ الشيخ في تيفاوان في تزايد مطرد. فعند إقامته في تلك المحطة في مارس 1913م، احتفل الأهالي احتفالات كبيرة تكريما له، وبعيد مغادرته تم توزيع أراضي البلدية وعرضت في المزاد العلني من أجل توسعة المدينة، فوصلت الرقعة التي نصب فيها الشيخ خيمته هي ولواحقها قيمة أعلى بعشر مرات من قيمة الأراضي المحيطة بها .

- علي انقير،وهو زعيم قبلي سابق بتييس.

- ما صال في بو

- انديوبو سي في سبي كوتان
- مودي سيسي،نجار تحول إلى شيخ،وآمادو آو والشيخ دوغو وكلهم في رفسك
- الشيخ آمادو علي وهو فلاني والشيخ مامادو انجاي في باول
- الشيخ عثمان بارو في سالوم
- جبريل كدى في سين

ويمكن تقدير عدد طلاب الشيخ بداكار بـــ 300 طالب تقريبا من البيظان والزنوج.فأما البيظان فقد وضعوا تحت الزعامة الروحية للشيخ أحمد الأجود بن حمود وأصله من أهل الحاج الغربي في الترارزة ،وسكن في حي هوك.وكان فيما مضى يمارس التجارة في سنت لويس ،لكنه استقر منذ أشهر بداكار.

أما شيوخ الزنوج الروحيين فهم:

1- الحاج مامادو والأمين دم وهو تكروري ومعلم مدرسة قرآنية،يمنح الورد القادري باسم سعد بوه، والورد التجاني والقادري معا باسم المشايخ الآتيين:

أ- تيرنو آمات كان،زعيم الطريقة المريدية المحلية التي اختفت الآن تقريبا مع موت زعيمها.

ب- الحاج مالك من تيفاوان، وهو شيخ التجانيين في كايور

ج- أحد أبناء الحاج عمر،المنافس التكروري

2- آلفا ديول لبو،الزعيم المحلي قرية من السكان الأصليين بداكار،وهو مقدم الشيخ يشرف على مصالحه الروحية والزمنية.

3- يوسف با عمر گي، وابنه إبرا گي، وهو مزارع من الليبو.ولا يمنحان سوى الورد القادري، ولا يذهب هاذان التلميذان إلى مخيم الشيخ

في موريتانيا، بل إن هذا الأخير هو الذي يأتي لزيارتهما كل عام، أو يبعث إليهما بأحد أبنائه وغالبا ما يكون سيداتي وأحيانا المحفوظ، أو بصهره الحاج والعالم البشير ولد المباركي من إيدا تشفاغة في الترارزة. أما تنقلات الشيخ شخصيا فكانت أكثر نفعا، فلم يكن طلابه وحدهم هم من يأتيه بالهدايا، بل أتباع سائر الزعامات الروحية الأخرى أيضا، وقد تصل الهدايا في النهاية إلى مبلغ كبير. هكذا وصل ما جمعه سعد بوه في شهري فبراير ومارس سنة 1913م مبلغا قدره 70000 فرنكا بحسب إحصاء تم بأقصى دقة ممكنة. علاوة على ذلك هناك 40 بعيرا محملا بالبضائع انطلقت من سنت لويس ووصلت منذ أيام قليلة إلى مخيماته، وإبلا يصل عددها إلى 600 ناقة منها 200 ناقة اشتراها سيداتي في اللوگة سلكت نفس الطريق مع عدد كبير من الخيول المهداة .

صحيح أن الرقيبات أبناء العصاة [75] لن يتأخروا في لعب دور ما في تحقيق العدالة الطبيعية، وذلك بشنهم لبعض الغارات بعد مرور أسابيع من ذلك التاريخ، نهبوا فيها الجزء الأكبر من تلك الإبل. ومن جهة أخرى لا تتضمن تلك العطايا أي وعد بالوفاء للشيخ من طرف الزنوج. فهم يعتـــبرون ورد الشيخ نوعـــا من التكفير التام (Indilgence plénière) عن ذنوبهم، وعملا من أعمال التقرب الروحي لنيل بركته. ويلاقي كل شيخ له شهرة معينة يمر بالبلاد نفس النجاح في توزيع البركة والحصول على هدايا.

وتعتبر غامبيا وكازامانس والغينيتان:البرتغالية والفرنسية منذ سنوات عرضة لدعوة إسلامية مكثفة من جانب الشيخ سعد بوه. وقد مثله فيها العديد من أبناء إخوته (انظر أعلاه). ويلاحظ وجود تبادل دائم للرسل والمراسلات والتعليمات بين الشيخ ودعاته.

ففي غينيا الفرنسية يمكننا الإشارة وخاصة في دائرة دينگراي، مقاطعة تامبا، إلى الحاج مامادو مصطفى، البالغ من العمر 54 سنة في سكوبولي

[75] في النص "أولاد الحرام" (المترجم).

ووأصله من فوتا ينحدر من أسرة من التكرور قدمت إلى فوتا جالون مع الحاج عمر. وينعت هذاالشيخ الذي يتمتع بنفوذ كبير في منطقة دينگراي بأسرها، والذي تربطه علاقات مع معظم الزعماء والشيوخ المحليين الآخرين، بأنه قادر على خلق غليان سياسي.

وفي دائرة كانكان مقاطعة باتي الحاج مامادو كابا دياكيتيه وأصله من المالنكيه في الخامسة والأربعين من عمره ويقيم في كانكان. كان تاجرا في السابق، قدم أثناء جولاته التي لا تنقطع التي جاب خلالها السودان والسنغال، إلى سعد بوه وأمضى معه ثمانية أشهر وحصل منه على الوردين القادري والتجاني، بالإضافة إلى سلطات المقدم، وهو الآن معلم مدرسة ويكتتب تلاميذه من خاي إلى غامبيا.

وفي دائرة لابي، مقاطعة كومبا الشرقية في قرية فتيمبي، الكاراموغو صوري، وهو من قومية دياكانكيه، ارتبط بتيجانية سعد بوه عن طريق أستاذه ومعلمه كاراموغو آلفا. وينتمي هذا الشيخ قليل الشهرة، ورئيس بلدة فيتمبي الصغيرة إلى عائلة دياخابيه النبيلة. وللشيخ سعد بوه علاقات قوية جدا مع الحاج مالك سي في تيفاوان، ومع أحمدُ بمبا في ديوربل. وفي حين لا يزال فيه الأول من هاذين الشيخين الزنجيين مرتبطا بالزعامة الروحية لتجانية إيداو علي، يرتبط الثاني بقادرية الشيخ سيديا. وكان مبعوثو الشيخ سعد بوه يزورونهما بانتظام عندما يمرون بالسنغال، حاملين إليهما تبريكاته وبعضا من هداياه الصغيرة، ويحصلون منهما في مقابل ذلك على زكوات كثيرة .

سادسا– علاقاته مع السلطة الفرنسية :

للسلطة الفرنسية معرفة قديمة بالشيخ سعد بوه. لكن في حين كان أخوه ماء العينين، الذي استقر بالساقية وتجنب أي اتصال بالنصارى، يفضل العناد المطلق، أقام سعد بوه مخيماته ومركز عملياته في الترارزة.

وقد أرغمه قربه من الفرنسيين،وضرورات التعامل التجاري معهم، والرغبة في إطلاق اليد في عمليات الدعوة الإسلامية وجمع الهدايا في أوساط الزنوج في منطقة شمامة وفي السنغال، على التصرف بشكل سليم إزاءنا .

وقد قدم لنا في العديد من المرات خدمات مهمة . ففي سنة 1880م قام بإنقاذ حياة المستكشف الشجاع صوليلي Soleillet ورفاقه بالتدخل لدى أولاد دليم الذين كانوا قد أسروه لتوهم.

وفي سنة 1887م أدى تدخل أعوان سعد بوه في ريب (السنغال) إلى انفصال عدد من أنصار بيرام سي، زعيم الثوار، عن حزبه [76] .

ونجح في الفترة الفاصلة ما بين عامي 1891 و1894م، من خلال مساعيه لدى الأمير أعمر سالم، في إطلاق سراح الرحالة فابير Faber ورفاقه، وسعى في إقامة علاقات بينه وبين أمير آدرار ولد عيدّه، واستضاف الرحالة الفرنسي الذي اشتد عليه المرض في قصره بتويزكت طيلة المفاوضات التي استمرت عدة أسابيع.

كما سهل في 1899-1900م إنجاز مهمة بلانشيه Blanchet، وأرسل ابنه الحضرمي لمرافقتها حتى في آدرار. ولما حوصر بلانشيه ورفاقه بعد ذلك بوقت قصير في آدرار من طرف خصوم الأمير المختار ولد عيّده، طلبت الحكومة الفرنسية من سعد بوه (وكذلك من الشيخ سيديا) التدخل لدى الزعماء المحليين لتحرير رعايانا. وتوصل سعد بوه إلى ذلك الهدف لكن ليس دون عناء، فاستطاع بتوسطه في الفدية، أن يأتي ببلانشيه ورفاقه سالمين إلى سنت لويس.

وكان ابتداءا من سنة 1901م يشجع توسعنا المباشر في موريتانيا، وذلك بمساعدته لكبولاني Coppolani ومرافقته له شخصيا في جولاته في

[76] لوشاتلييه، الإسلام في إفريقيا الغربية، ص 332.
Le Chatelier, L'Islam en Afrique occidentale ,p. 332.

سهيوة الماء والخروفة ونواكشوط. بعد ذلك قدم على التوالي العديد من أبنائه لمرافقة مختلف البعثات والحملات العسكرية نذكر منها: بعثة كبولاني إلى تكّانت، وغريفيل-شيدو Gruvel-Chudeau إلى السواحل الأطلسي، وحملة غورو Gouraud على آدرار، وفي كل مـرة يطلب منه ذلك.

وقد استطاع سعد بوه وصولا إلى سنة 1907م ، أن يحافظ على حياده بين ماء العينين والفرنسيين. وعلى الرغم من حدوث خلاف بسيط بين الأخوين يتعلق بالتحالفات بين أبنائهما من سنة 1896 إلى سنة 1900م، إلا أنهما لم يتوقفا عن إقامة علاقات ممتازة بينهما وتقديم الخدمات المتبادلة.

وابتداءا من سنة 1907م ازدادت عداوة ماء العينين العائد من المغرب للفرنسيين، وتمت ترجمتها من خلال اعتداءات قام بها بعض محاربيه على تكّانت، وتزايدت بالتناسب مع مشاريعنا التوسعية في أدرار، فأصبح وضع سعد بوه حرجا شيئا فشيئا. وعلى الرغم مما يقوله فقد ظلت علاقاته الأخوية مع أخيه على حالها. ولا يزال حتى الآن وفي أكثر من مرة، يتواطؤ معه وذلك بإيصال معلومات متنوعة إليه عن أخبارنا وتصرفاتنا ؛ وبنشر شائعات مغرضة حول مخيماته، الهدف منها نشر الفوضى في الترارزة، وأحيانا يتحقق ذلك الهدف.

وكان في الوقت ذاته يحاول إعطاءنا بعض الأدلة على ولائه، إما باستقباله اللافت لأهل الطالب مختار الذين كانوا يعيشون في مخيم ماء العينين والذين، بعد أن حاربونا في آدرار، لا يريدون الاستمرار في الكفاح الذي كان شيخ الساقية سيواصله ضدنا حتى النهاية، ويرغبون في أن ينسب إليهم عاليا فضل العودة والخضوع ؛ وإما بكتابة رسالة مطولة ومعقدة [77] إلى أخيه الغرض منها إعادته إلى جادة الصواب. ولا يمكن أن يكون لهذه الرسالة، التي أعدت لتطبيب الخاطر، أي نتيجة مفيدة.

[77] وقد قدمت "مجلة لجنة إفريقيا الفرنسية" ترجمة لها في عددها لشهر نوفمبر 1909.
Bulletin du Comité de L'Afrique Française, N° novembre 1909.

ومع ذلك لا يجوز القول بأن الشيخ سعد بوه لم يرغب في أن يرى أخاه يعلن خضوعه ويضع حدا لذلك الوضع الخطير الذي وضع نفسه فيه. فمما لا شك فيه أن مساعيه اتجهت في الغالب نحو ذلك الهدف. وكان سيكون سعيدا لو استطاع أن ينسب إلى نفسه أمامنا فضل ذلك الخضوع. هكذا سعى في سنة 1912م إلى الحصول على إذن بالمرور لبناته وأصهاره وأبناء ماء العينين، فرفض طلبه إذ كان يتعين أن يعلن المعنيون بأنفسهم مع طلب الأمان، عن خضوعهم الفعلي. وكان في مقدوره أن ينجح في الإتيان بالهيبة في مارس سنة 1913م، فلم يظهر عروضا مغرية بل انطوى على نفسه بصمت وبعدم اكتراث واضح.

وصفوة القول هي أنه يجب أن نشكر للشيخ سعد بوه خدماته الحقيقية التي قدم لنا، ونواياه الطيبة، ومساعيه نحو الحياد الإيجابي قدر الإمكان تجاه قضيتنا.

ومن جهة أخرى بما أن تعاليمه النفعية على وجه الخصوص، لم تكن تشكل أي خطر، وأن التجمع الديني الذي يسيره سيتشتت بعد موته بين أبنائه الكثيرين وأحفاده الذين لا يبدو أي منهم قادرا على خلافته، فيمكننا القول بأنه لا يوجد أي ضرر في بقاء الأمور على حالها، شريطة استمرار ممارسة رقابة يقظة مع ذلك بل وربما أكثر يقظة، على أفعال الشيخ وتصرفاته هو وحاشيته.

31- سيدي منصور:

عاش في الحوض ومات فيه.

ذريته من الذكور:

محمد فاضل، محمد تقي الله.

32- مصباح الدين:

عاش في الحوض ومات فيه.

ذريته من الذكور:

الشيباني،سيدي بويا، اجيه المختار ، آبه، سيدي محمد، محمد عبد الوهاب، الحضرمي، محمد الأقظف، ماء العينين، الطالب محمد.

ويقيم الحضرمي البالغ من العمر 34 عاما في كيرلاب ديولف (دائرة اللوگة بالسنغال). وبعد مغادرته الحوض سنة 1910م أقام لمدة سنتين لدى سعد بوه الذي استعمله لجمع الهبات باسمه في السنغال، لكنه سحب منه تلك السلطة بعد ان استغل وضعه، فذهب سنة 1912م بأمر من الشيخ ليستقر في ديولف حيث أسس بها قرية كيرلاب التي يعيش فيها ويشتغل بالزراعة وتنمية المواشي. ويعيش معه إخوة ماء العينين.

أما محمد الأقظف فجاء بعد مغادرته للحوض ،ليستقر لدى سعد بوه،ثم التحق بابن عمه الهيبة بالشمال ولا يزال معه حتى الآن.

أما الطالب محمد فيعيش في مخيمات سعد بوه.

ويجد باقي أبناء مصباح الدين في الحوض مع عائلاتهم.

33- الشيخ سيدي محمد:

عاش في الحوض ومات فيه.وقد جاء أحد أبنائه وهو محمد فاضل، مؤخرا لزيارة سعد بوه.

34- محمد مفتاح الخير:

جاء ليستقر في أعالي نهر السنغال على بعد مسيرة يوم تقريبا من خاي. ويعيش من تنمية المواشي والزراعة بمساعدة تلاميذه من الزنوج.

ذريته من الذكور:

محمد فاضل،سيداتي،سيدي بويا،آبه.

36- سيدي علي:

عاش في الحوض ومات فيه.

ذريته من الذكور:

محمد فاضل.

37-محمد البشير:

عاش في الحوض ومات فيه.

ذريته من الذكور:

آبه، مصباح.

38- عبد الرحمان:

الملقب عبداتي،ولد في الحوض وهو الآن لدى الشيخ سعد بوه وقد قدم إليه منذ سنة 1909م ،وهو التاريخ الذي عاد فيه من مخيمات ماء العينين،ويبلغ عمره 50 عاما تقريبا.سافر سنة 1911م لقضاء عدة أشهر عند ابن أخيه الشيخ المحفوظفي صيديو(كازامانس).

ومن ذريته الذكور:

الحضرمي،محمد فاضل،محمد الأمين الملقب "الجدود".

39- الطالب صلاح:

عاش في الحوض ومات فيه،ودفن مع والده في دار السلام.

ذريته من الذكور:

محمد فاضل الملقب بوننا.

40- أحمدنا:

عاش في الحوض ومات فيه.

ذريته من الذكور:

محمد الأمين،محمد تقي الله،محمد الحطاب.

وقد توفي محمد الحطاب خلال السنوات القليلة الماضية لدى ماء العينين.أما الباقون فيعيشون في الحوض مع عائلاتهم.

41- سيدي علي:

الملقب يربه، عاش في الحوض ومات فيه،ودفن في دار السلام.

ذريته من الذكور:

محمد فاضل، الغالي.

42- سيدي سالم:

وهو شقيق سيدي علي ،عاش في الحوض ومات فيه ودفن بدار السلام،و لم ينجب أبناءا.

43- تفريج الكروب:

عاش في الحوض ومات فيه، لم يخلف أبناء.

44- سيدي المهدي:

عاش في الحوض ومات فيه، لم يخلف أبناء.

45- سيدي يربي:

عاش في الحوض ومات فيه، لم يخلف أبناء.

46- سيدي الأمين:

يبلغ من العمر 51 عاما، يعيش في الحوض مع أسرته. رافق كبولاني Coppolani في مهمته إلى آروان وآزواد سنة 1899م. جاء سنة 1912م ليقضي أشهرا عند سعد بوه.

ذريته من الذكور:

سيدي عثمان، القطب، الحضرمي.

47- سيدي عليّ:

ولد في الحوض، ثم التحق بماء العينين منذ فترة طويلة جدا . وهو الآن يعيش مع أسرته في مخيمات الساقية وتيزنيت.

48- الشيخ سيدي الخير:

وهو آخر أبناء محمد فاضل ويبلغ من العمر 42 عاما وهو ابن جارية والده أم الخير. يعيش في الحوض في عشيرة أهل الطالب مختار التي يتولى قيادتها السياسية ابن أخيه التراد ابن الشيخ الحضرمي. يحظى الشيخ سيدي الخير بنفوذ ديني كبير في قبيلة أهل الطالب مختار، ويمتد ذلك النفوذ ،من جهة أخرى، ليشمل القبائل المحاربة والزاوية المجاورة. وتربطه علاقات قوية للغاية مع سعد بوه الذي سبق أن تتلمذ عليه. وقد قدم خدمات مهمة عندما استخدمه كبولاني في مهمته في شمال تمبكتو.

وقد نأى الشيخ سيدي الخير بنفسه بعناية عن المقاومة التي دشنها أخوه ماء العينين وعصاباته في الساقية ضدنا. وهذا الموقف الموالي قد أملته عليه الضرورات الظرفية أكثر مما أملاه عليه تعاطفه مع القضية الفرنسية.و لم يسلم من جهة أخرى من منح اللجوء إلى مخيماته أو السماح به مرات عدة لمنشقين أو متمردين [على السلطة الفرنسية].

الخاتمـــة :

وفي النهاية ثمة فكرة تراودنا تتعلق بمقارنة بين الفاضلية في إفريقيا الغربية والسنوسية في شرق إفريقيا اللذين يفصلهما بالكاد الحاجز المزدوج الذي يمثله الطوارق المأسلمون جـــزئيا (semi-islamisés).

ولا يخلو مجال هاتين الطريقتين القويتين، وكذلك نشاطهما الدعوي،وطبيعة نفوذهما من أوجه شبه كثيرة. إلا أن تلك المقارنة لا تصبح ممكنة في الحقيقة ومفيدة إلا عندما نعرف كلا الطريقتين على نحو أفضل.

وفي انتظار ذلك وبما أن كل أجزاء امبراطوريتنا الإفريقية الصحراوية والسوداء موحدة، فإن إفريقيا الغربية الفرنسية، حالها حال إفريقيا الاستوائية الفرنسية، معنيتان أيضا بتنسيق دراساتهما وتوحيد جهود سياستيهما.

ومن جهة أخرى لا ينبغي الاعتقاد أن نفوذ الزوايا الإسلامية هذا، وحتى في مجالها الجغرافي الخاص بها، أي في بلاد البيظان،كان مطلقا وكاملا. إنه يشبه في جزء كبير منه نفوذ الرهبان على النبلاء ورجال الحرب في القرون الوسطى. فقد يحدث أكثر من مرة أن تخضع القوة الشرسة والعنف، وروح الغصب والنهب التي نجدها لدى هؤلاء لتجربة قاسية من الصبر والكياسة واللين لدى الآخرين. ومع ذلك فمن النادر ألا يسترجع الزوايا، عاجلا أو آجلا ممتلكاتهم، وينتهي الأمر بالمحاربين إلى "التوبة إلى الله" إما بشكل فردي وإما العشيرة بأسرها: في الحالة الأولى يندمج التائب في العشيرة الزاوية ويتحول إلى رجل علم وصلاة،وفي الحالة

الثانية يرتسم الجهاد في الأفق وتصبح القبيلة المحاربة "التائبة" مؤقتا أداة لعمليات الانتقام أو لسياسة شيخها الكبير. وقد مثل ماء العينين مثالا على تلك الظواهر الاجتماعية على أكمل وجه.

هذه الدراسة المفصلة للفاضلية ليست سوى محاولة بسيطة فيها العديد من المآخذ. وكانت تهدف إلى أن تضع بين أيدي حكام موريتانيا[73] والسنغال وغينيا والسودان [مالي] ملخصا لمعارفنا الراهنة حول هذه الأسرة المهمة، وهذه الزاوية التي لعب العديد من أفرادها، ولا زالوا يلعبون في المغرب دورا أساسيا رياديا لم ينته بعد، والذي يعمل القائمون به، بطريقة منهجية وناجعة تحت مظلة السلم الذي فرضه الفرنسيون، على نشر الإسلام في البلدان الإفريقية.

وسيكون على قواد الدوائر العسكرية والمندوبين السامين، بوجههم هذا الخيط الذي لم يكن موجودا حتى هذه اللحظة، واجب أسهل من الآن فصاعدا يتمثل في متابعة هذا البحث بعناية،وتقديم مساهماتهم في دراسة عنصر من العناصر الأساسية في سياستنا الإسلامية في إفريقيا السوداء.

الملحق [1]:

رسالة ماء العينين إلى إيدوعيش:

الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

أحباؤنا الأكرمون وأصدقاؤنا الأقربون الأحمدون الأطهرون الأطيبون لأسياد جماعة إيدوعيش عموما وخصوصا وطررا ونصوصا كل واحد منكم باسمه خالص وسمه لا سيما أهل الحل والعقد منكم كآل اسويد احمد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ما دام الكون وحركاته أما بعد:

[73] وهو يقصد بطبيعة الحال السلطة الاستعمارية الفرنسية (المترجم).

فليكن في كريم علمكم أن السلطان نصره الله وجه إلينا ابن عمه خليفته نائبا عنه في كل ما أهمكم الآن وقبل من الأمور كلها سيما أمر النصارى دمرهم الله، لأنه ولله الحمد أرسله بالوقوف على ساق الجد حتى تعلو كلمة الإسلام ويقضي بحول الله كل مرام والآن لا بد من إتيان ولاة الأمر منكم لتقع المشافهة مع الخليفة على أيدينا، كما أن السلطان نصره الله، كتب إلينا بذلك ليحصل بها لكم كل غرض فيما مضى وما عرض لأننا كتبنا لأمير المومنين نصره الله أنكم في تلك البلاد أنتم أهل شوكتها وأهل حلها وعقدها، ونراكم تفوزون بهذه السبقية إن شاء الله تعالى، كان الله لنا ولكم وليا ونصيرا وعلى سائر الأعداء ظهيرا، وبلغكم أقصى المرام بالتمام وعلى خالص المحبة والسلام، لإحدى عشر بقيت من جمادي الأولى عام 1323هـ .

عبيد ربه ماء العينين بن شيخه الشيخ محمد فاضل ابن مامين غفر الله لهم وللمسلمين آمين.

الملحق [2]

مقتطفات من المراسلة بين الهيبة وعمه الشيخ سعد بوه:

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه:

(...)(هنا ختم الهيبة)

إلى سعادته ووحيد زمانه، وجوهرة زمانه ومكانه إلى مربي المؤمنين لعامير ويهديهم إلى الطريق القويم، قطب كل العارفين بالله، شقيق

والدنا وخليفته، الشيخ سعد بوه أدام الله صلاحه وتولى حفظه سلام الله وبركاته عليكم:

وبع أقول لكم : إن أخانا الفاضل الشيخ المحفوظ [79] قد جاء إلينا وفرحنا كثيرا باستقباله شاكرين الله على ما أنعم به عليكم من صحة جيدة، أطال الله شرفكم وأمد في عمركم وهدى بكم العالم جميعا ونوره...

لقد أبلغنا المحفوظ حفظه الله مشافهة وقدم لنا النصائح القيمة التي كلفتموه بنقلها إلينا، نصائح جعلتنا نفهم مدى وفاء الحكومة الفرنسية لحلفائها، وكيف أن علاقاتها ممتازة مع سائر المسلمين، دون أن نذكر الاحترام والتقدير الذي تكنه لعائلة أهل الشيخ محمد فاضل حيثما وجدت.

وفي الأخير أطلعنا المحفوظ أن رأيكم هو أنه من مصلحتنا السعي إلى هدنة سلمية وأنكم تعولون عليها بشكل كامل وأن لديكم شخصيا ضمانات على وفاء الفرنسيين بها وعلى استقامتهم في كل ظرف إلخ.. ونحن نعرف مدى إخلاص نصائحكم وصدق أقوالكم .

فمن غيركم يستطيع قول الكثير من الحقائق وأن يسوس الناس في طريق قويم أكثر منكم ؟ وبناءا عليه فقد شجعتنا نصائحكم في هذه القضية. والآن ليعلم سيادتكم أننا قد بعثنا في الأيام الماضية ردودا على رسائل وجهها إلينا بعض وجهاء الغرب الذين وافقت عليهم الحكومة [80] وقد تضمنت، ردودنا عليها الشروط والقواعد التي كانت تسمح بالوصول إلى الهدف الذي تسعون إليه إذ أنه هو ما يتعين القيام به.

وسيحدثكم المحفوظ عنها شفويا علاوة على ذلك .

نسأل الله بجاه بركتكم أن يهدينا سواء السبيل

[79] المحفوظ هو أحد أبناء سعد بوه، انتدبه أبوه في مهمة لدى ماء العينين . وقدأشار إليه الهيبة بكلمة "أخينا" من قبيل المجاملة،وهما في الحقيقية أبناء عمومة.

[80] إشارة إلى المفاوضات الدبلوماسية التي قامت بها الحكومة المغربية في نهاية سنة 1913م لإقناع الهيبة بالخضوع للسلطة الفرنسية،ولم تنجح تلك المفاوضات.

ونرجو منكم صالح الدعاء دائما.

والسلام .

في الواحد والعشرين من ذي الحجة سنة 1331هـ ،30من نوفمبر سنة 1913م.ترجمها إلى الفرنسية أبو المقداد .

الملحق [13]:

شجرة نسب الفاضلية [81]:

باسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على خير الأنام :

قال شيخنا الشيخ سعد بـــوه   بيض الله وجهه يوم نبيض وجـــوه
وجدود شيخنا المكـــــــبير   فحصت بقوة اليقـــــــــــين
بشيخي محمد الأمــــــــين   قوينا أساس كل ديـــــــــن
بالطالب خيار الـــــــولي   على مقامه وعلـــــــــــي
ومحمد أبيه الطالـــــــب   نعزنا بغلب كل غالـــــــــب
بأخيه ذي العلم والإنفـــــاق   صف قولنا من النفـــــــاق
بالطالب الحبيب خير الأوليـــا   نور بسر عظموت سربــــــــا
فالطالب على خير من تقدمـــا   كن لي نصيرا حافظا مقدمــــــا
بسيدي محمد وسيـــــــدي   يقي فنا كل ظلوم جنعـــــدي
بسيد عالي مع شمس الديـــن   يحي الكبير الملقـــــــمي الأمين
هذه الثلاث فاقض حاجـــــي   وحاجة الأتباع للسهــــــاج
بسيدي محمد وسيـــــــدي   عثمان بالأولاد فـــــــرج أودي
مولاي أبي بكر وسيدي يحـــي   شر دين نعيـــــت على بغيا
بعابد الرحمان مــــــــع آرا   أتلاف مع أنه أجمـــــــــلان
تاهم وجاه إبراهيــــــــم   فنا كيود المارد الرجيـــــــم

[81] ترجمة هذه المقطوعة والمقطوعتين الموالتين مأخوذة من الذاكرة وهي كلها من وضع الشيخ سعد بوه.

ملاي مسعود وباه عيســــى   فينا هوى النفوس مع إبليســــا
مولاي عثمان وإسماعيـــــلا   فبدل الذنوب لي تبديـــــلا
بعابد الوهاب نجل يوســــف   نج قلوبنا من التأســــــف
بعمر وبأبيه يحـــــــي   فليت ذا بعد الممات يحـــــي
إدريس مع سمية أبيــــــة   يوم يفر المرء من أخيــــــه
بسيد أبيهم للعلى علــــــي   محمد لنا من جدنا الأفضــــل
بعبد الله وأبيه أحمـــــــد   اجعل ذنوبي كجفاء الزبـــــد
بسيدي عبد الإله الكامـــــل   والخمس المثنى ذاك الفاضـــل
صلى عليه الله ما تم الحســـن   بجاه أهل الفضل من بني الحســـن
واختم لنا خواتم الإحســــــــان   بخاتم الرســــــــــل
صلى عليه الله حمــــــل   مع السلام ما الدعا كمل

شجرة نسب الفاضلية 1

الملحق [4]:

السلسلة الروحية للفاضلية:

قال شيخنا الشيخ سعد بيض الله وجهه يوم تبيض وجوه:

قال أبو عبد العزيز الأمثـــل   مستغفرا من كل ذنـــب أزلي   سعد أبيه الفاضلي القـــلقمي
مبتدئا باسم الإله الأعظـــم   حمده ثم على الهدى هداني   ثم على طريقة الجيـــلاني
من شيخنا الأفاضـــل   قطب الأواخر مع الأوائـــل
وبشيخي مامين النبيـــــه   وذاك من عند أبيه الطـــالب   اختيار وهو مقصد الطـــالب
وذاك عن والده الحســـــيب   عمدة من يقصـــد عـــنبه   وذاك من عند ابيه الطالـــب
محمد قدوة كل طالــــب   وذاك من والده الحبيـــــب   من كان للقلوب كالرقيـــب
عن أبيه الطالب عن الأكـــمل   عن أبيه محمد الشـــــجي   عن أبيه وشيخه يحي الصـــغير
من كان في كل المحامد كبير   عن شيخه دمه يكـــن أباد   زروق من كل الخنا ابعـــاد
وذا عن ابن عقبة الحضرمـــي   عن شيخه عمي القدر السامي   عن شيـــخه علي ابن أوفى
من شيخه محمد قال العصـــي   والده وذاك   الباجلي الأنـــسام
عن شيخه نجل عطــــاء الله   من علمه فيض عطـــاء الله   من قوم الذي على التواكـــل
موسى   وذاك من أبيه الإمام الشاذلي   من قدم الدين على البواطـــل
عن شيخه عبـــد الســلام بـــن مشيش   وذاك من ابن العـــربي ســـاقي الجيوش   من النجيب الســــهروردي أخذ
وذا من بن هيتا كان متـــخذ   وذاك الجيلي عبد القـــادر   وذاك من أبي الوفاء القـــادر
وذاك من أبي الهداة الشبـــكي   وذا من الشبلي إمام الســـلك   وذاك من أستاذه الـــجنيد
إمام من تصدقوا بالأيـــدي   وذا من السقط السري اي الحسن   خال الجنيد من فـــاز بالحسن
وذاك من معروفنا الكرخـــي   قدوته بالحسن البـــصري   وذاك من سيده عـــلي
وذاك من سيدي النـــبي   صلى عليه الله ثم سلـــما   وذاك من جبريل من رب السما
ومثل ان مأخذ البصـــري   في الحسن السبي بلا علي

تمت

الملحق [5]:

رسالة الشيخ سعد بوه إلى العقيد غورو [82]:

باسم الله الرحمان الرحيم وصل الله على خير الأنام

إنه سلام بل ألف ألف سلام ومثل ذلك من التحايا والإكرام إلى أمير بلاد البياضين كلنل موجيه ولا يحصر على بعضه نقتصر أن تعلم أن المسلمين عامة ونحن خاصة حمدنا الله ولكم بما جعلتم من العافية في الأرض حتى أمنت الأنفس والأموال من الغارات والنهب والقمش فحق لعامة المسلمين الحمد والشكر على هذه العافية التي سببها غلبتكم للمحاربين واللصوص إننا لو سمعنا قدومك قبل فواتك لنا لركب أبناؤنا وكل رؤساء جماعتنا للتلقي لك ولكن فرحة القلوب كائنة وحمدنا الله على رجوعك سالما وظفرك بمرادك كائن أيضا لتعلم أني أريد منك الإيصاء

---

82 وقد ارتأينا أن ندرج فيما يلي ترجمة النص الفرنسي للرسالة لوضوحه وشموليته.وسنلاحظ أنه يتضمن الكثير من الأمور التي لم ترد في النص الأصلي للرسالة:
رسالة الشيخ سعد بوه إلى العقيد غورو:
باسم الله الرحمن الرحيم،والصلاة والسلام على أفضل الخلق (محمد):
من الشيخ سعد بوه إلى العقيد أمير بلاد البيظان:
ألف تحية:
هدف الرسالة هو أن تطلعك على أن المسلمين كافة يشكرون الله وإياك،ويشكرونا نحن خاصة على السلم في البلاد حيث يتنقل الأشخاص والممتلكات بكل أمان دون خطر النهب من طرف القائمين بأعمال النهب الذين حاربتموهم وطردتموهم ولا من طرف المشايخ المزيفين.
اعلم أننا لو كنا علمنا بمروركم في الوقت المناسب لبعثنا إليكم بأبنائنا وزعمــــاء الجماعــة للســلام عليـكم والترحيب بك وتمنيتك على العودة سالما وهو ما نشكر الله الكريم عليه. وفي الأخـــير نخـبرك بأننــا جميعـــا مطمئنون.
والآن أطلب منك تزكيتنا لدى الناس هنا أنا وأبنائي وتلاميذي حتى يكون لنا مكانة خاصة محفوظة هنا إذ أننا أول صديق لكم.
أود كذلك الحصول منك على كتاب يحمل طابعك واسمك ليذهب معي محمد ولد احمد مسكة إلى القضاء في قضية معتى أو أن يرضيني دون المثول أمام القاضي. أود كذلك الحصول على وثيقة موجهة إلى ولـــد الخليـــل زعيم الرقيبات في موضوع إبلي اللهم إلا إذا كنتم قد تركتموها له ،وفي هذه الحالة سأقبل بقراركم،مع العلم بأنكم تعرفون أمور رعاياكم وشؤونهم بشكل أفضل.
أبعث إليكم بكتاب كتبه أحمد بما بخصوصكم (نصائح موجهة للمسلمين بحسن التصرف تجاه الفرنســيين)، آمل منكم أخذها في عين الاعتبار وأن تشكروا كاتبها الذي يستحق أفضالكم عليها.
والسلام — سنت لويس في العشرين من ديسمبر 1910م، 18 من ذي الحجة 1328هـ.
ترجمها إلى اللغة الفرنسية
أبو المقداد.

علي وعلى أبنائي وعيالي وأن يجعل لنا مكانا أو أمكنة في من هنا منكم لا يجعل لغيرنا لسبقيتنا للناس كلهم لكم وفيكم .واعلم أني لا بد لي من كتاب لابن خليل الرقيبـــي بشأن إبلنا التي عنده إلا أن تكونوا أنتم تركتموها له فأمركم عندي ماض لحمله كله على الصواب ولأنكم تأمرون عيالكم من الفد في شأنكم ويختار أن...

رسالة الشيخ سعد بوه إلى العقيد غورو 1



المصادر والمراجع:

1-Bulletins individuels des cercles du Trarza et de l'Adrar.

2-Renseignements founis par M.l'Administrateur en chef Gaden, par M. l'Administrateur Antonin et M. l'adjoint des Affaires indigènes Chapuis.

3- L'Islam en Afrique occidentale, par A.LE Chatelier [83]

4- Revue du Monde Musulman, passim .

5- Bulletin du comite de l'Afrique française.

[83] وهذا الكتاب هو أول مصدر يتحدث عن الفاضلية ,وقد خصص لها المؤلف فصلا كاملا من الصفحة 326 إلى الصفحة 336، فصل حرر بالكامل بناءا على معلومات أخذها صاحب الكتاب في سنت لويس أثناء مقابلات متعددة أجراها مع نجل الشيخ سعد بوه.

الفصل الثالث:

إيداو علي: شرفاء التجانية في موريتانيا

أولا- تاريخهم:

تنتشر التجمعات الصغيرة للشرفاء في موريتانيا،كما هو الشأن في إفريقيا الصغرى.فلا يوجد مخيم للمحاربين أو الزوايا إلا وبه ثلاث أو أربع أسر من الشرفاء لا يعرف في معظم الأحيان من أين قدموا . وغالبا ما يشكلون عشائر مستقلة صغيرة، ترتبط من الناحية الشكلية بقبيلة معينة من قبائل الزوايا وتدور في فلكها . ووحدها قبيلة إيداوعلي تتقدم اليوم في شكل ثلاث عشائر كبيرة ضمن قبيلة واحدة من الشرفاء لكل واحدة منها في منطقتها حياتها الاجتماعية والاقتصادية والإدارية الخاصة بها، على نفس القدر مع العشائر والقبائل المجاورة .

ويجمع إيداوعلي سواء أكانوا من الترارزة أو تگانت أو آدرار على اعتبار أنفسهم شرفاء.كما أن معظم زوايا البيظان، يعترفون لهم بتلك الصفة . إلا أن هناك من الزوايا البيظان من لا يعترف لهم بها لكنه يقر بالفعل أنهم علويون، ويقبل فقط بأنهم من ذرية علي (كرم الله وجهه) من زوجته الحنفية وليسوا من ذرية فاطمة ابنة الرسول (ص).

وقد عرضت دعاوى إيداوعلي في كتيب صغير بعنوان : "صحيحة النقل في علوية إيداوعلي وبكرية محمد قلي"([84]) ألفه العلامة [سيدي] عبد الله ابن الحاج ابراهيم ابن الإمام عبد الرحمان العلوي الشنقيطي،وهو مؤلف العديد من الكتب القيمة، في العشرية الثانية من ربيع الثاني سنة

[84] *Transmission authentique des origines alides des Ida Ou Ali et bekrides de Mohamed R'ell.*

1205هـ الموافق شهر ديسمبر سنة 1790م. وهذا الكتيب ذائع الانتشار في قبائل العشيرة الثلاث، وقد أصبح فيها بمثابة الوثيقة الحاسمة التي تثبت، دون أي اعتراض ممكن منذ ذلك الحين، صحة أصولهم الشريفية المحلية.

وهذا بحسب ماترويه الروايات، وبحسب ما يذكره ذلك الكتيب الخالي من المحسنات اللفظية في اللغة العربية،هو تاريخ إيداوعلي والأدلة على أصلهم:

في البداية لا ينبغي أن يبقى ثمة شك حول صحة الأصول العلوية لهؤلاء الشرفاء.فقد صح بالفعل أنهم أبناء يحي بن علي ابن بالاحمر، ومن خلاله ينتسبون إلى "سيف الله" علي ابن أبي طالب صهر النبي (ص) [وابن عمه].ثم إن مختلف علماء القبيلة الذين قابلهم صاحب "صحيحة النقل" وعلى الأخص عالم الأنساب الطالب عبد الرحمان انبابه،يؤكدون بأنهم من نسل الطيب ابن زكريا،ابن محمد ابن الحنفية.وفي الأخير فإن الروايات العامة كانت دائما تنظر إليهم على ذلك النحو.

هذه الشهرة على وجه الخصوص،التي هي الدليل الوحيد الذي يمكنه كافة علماء الأنساب العرب في نهاية الأمر،هي شيء عزيز على صاحب "صحيحة النقل" الذي يؤكد :" أننا لا نعرف شيئا يتعارض مع هذا الموضوع سواءا من جانب المتمسكين به حرفيا أو من جانب الذين يتابعونه بعقولهم".

وقد اتضح حتى الآن أن إيداوعلي ينحدرون من نسل علي (كرم الله وجهه) لكن من خلال إحدى زوجاته وهي الحنفية وليس من خلال فاطمة ابنة النبي (ص). وبما أن فضل الشرف ينتقل من النبي (ص) عن طريقها إذن يتعين السير بالبحث قدما إلى الأمام .

فقد قام الدليل على صحة هذه الأصول بشهادة مختلف مشاهير العلماء.فهناك أولا شهادة الفقيه ،وحيد زمانه المسمى القاضي،الذي لا

تطلق عليه الزوايا في منطقة البراكنة اسما آخر سوى "قاضي شنقيط" وهو والد محم جد إيداوعلي تگانت.

وقد عثر فيما بعد ابن آخر من أبنائه هو خيار على مخطوطين لوالده بخط يده يحتوى أحدهما على أسماء ذرية فاطمة والآخر على أسماء ذرية الحنفية . وقد تمت المصاهرة بين الذرية المنحدرة من ذينك الفرعين ومنحت بذلك الحق في صفة الشرف للذرية التي خرجت منهما.

وتؤكد شهادة الشيخ سيدي المختار (1811م) شيخ كنتة الأكبر صحة هذه الشهادة ،كما تؤكدها شهادة سيد أحمد بابا الديماني وهو "رحالة الشرق والغرب الذي لا يكل" وهو على اطلاع كامل بتراث إيداوعلي المشتتين في سائر الأمصار.كما تؤكدها أيضا شهادة الشيخ المنتدى ،شمس مصر، ومؤلف أحد شروح القاموس [المحيط]، وكذلك شهادة عالم غير معروف من إيدا بالحسن ، ويؤكدها في الأخير علم أنساب قبيلة إيدا تشفاغة إحدى قبائل تشمشة في منطقة الترارزة بموريتانيا .

وصفوة القول [85] أنه في مقدورنا أن نسلم ، إذا أردنا، مع الروايات والكتاب بأن إيداوعلي هم في ذات الوقت علويون وشرفاء على الأقل من جهة الأم : فهم علويون بواسطة جدهم محمد ابن علي (كرم الله وجهه) والحنفية ؛ وشرفاء عن طريق زواج أحد أبناء محمد هذا مع إحدى بنات عمه بنت الحسن ابن فاطمة ابنة النبي (ص) .

وهم يعلنون أن هذه الأدلة إنما وضعت لغيرهم، فالسلسلة الجنيالوجية التي قدموا والتي ترتبط بفاطمة (رض) بواسطة أبنائها الذكور،كما سنرى فيما يلي، هي من وجهة نظرهم دليل كاف على تمتعهم بصفة الشرف الكامل .

[85] يجب ألا ننسى أن هذا الدليل وهذه الخلاصة هما من وضع إيداوعلي، وليست لهما قيمة كبيرة من منظور النقد العلمي.

وينهي صاحب الكتيب المذكور[سيدي]عبد الله ابن الحاج ابراهيم حديثه بذكر بعض التفاصيل - المستمدة من السيرة النبوية – عن الحنفية وعن ابنها محمد قائلا :

واسم الحنفية هو خولة ابنة جعفر ابن القيس وتنتمي إلى قبيلة بني حنيفة،وكانت من نصيب علي حينما قسمت غنائم غزوة اليمامة . وتروى رواية أخرى أنها كانت أمة سوداء يملكها رجل من قبيلة بني حنيفة يسمى أبو القاسم،وأن النبي (ص) قد أخبر عليا بولادة محمد بن الحنفية قبل أن يولد، وأخبره علاوة على ذلك بأنه سيحمل اسمه ولقبه "أبو القاسم". وقد ولد يقول المؤلف في السنة الثانية من عهد الخليفة عمر بن الخطاب سنة 15 هـ الموافق 636م ، وتوفي سنة 81 هـ الموافق 700م . وكان مثل أبيه علي سيف الله، فارسا كبيرا سواءا في الحروب الداخلية التي قسمت العرب فيما بينهم أو في الحروب ضد المشركين .

وتربط شجرة النسب الآتية بين علي صهر النبي (ص) [وابن عمه] وبين علي بالاحمر، الجد الذي تسمت القبيلة باسمه، والذي أصبحت ذريته في الأزمنة الحديثة، قبيلة إيدوعلي:

علي

(فاطمة) (الحنفية)

الحسن الأول

الحسن الثاني

عبد الله الكامل

أبو علي

يحي

القاسم

زكريا

رحمون

أبو زي

عبد المومن

سعيد

خالد

عبد الكريم

عزون

سالم

عبد الرحمن

سعيد

عمر

عبد الدائم

عبد الواقي

عبد النعيم

زيد

يوسف

محمد

إدريس

ابراهيم

عبد الله

عبد الرحمان

جابر

كنبان

بنقافير

يمجة

علي

هكنبل

بالاحمر

علي

وقد مر أجداد علي بعد مغادرتهم للشرق على التوالي بالمحطات التالية:

الكوفة، مصر، تلمسان حتى وصلوا تبليلات وهي واحة وقرية يوجدان على بعد 150 كلم إلى الجنوب الغربي من بني عباس (في أقصى جنوب وهران). وهذه هي الطريق التي تروي روايات إيداوعلي أن أجداد علي سلكوها للتوغل في أقصى الغرب. ثم تقدموا خطوة جديدة في اتجاه الغرب أوصلتهم إلى آبير الواقعة إلى الشمال الغربي من شنقيط، واستقروا بها، وكانت آنئذ مدينة مزدهرة. وقد حدث ذلك الاستقرار في بداية القرن الرابع عشر تقريبا. وتتوضح الرواية قليلا في هذا الموضع : فقد عاش العلويون في آبير من 1350سنة إلى سنة 1500م تحت سلطة أجداد علي المباشرون، ثم علي نفسه الجد الذي تسمت القبيلة باسمه ويضيف المؤلف قائلا : "ونحن نعرف أن كل قبيلة يبدأ اسمها بـــ "إيدا" هي قبيلة زاوية، وأنها خرجت من آبير. وقد كان عدد العلويين في ذلك الحين 40 أو 60 عشيرة بما في ذلك العشائر ذات العصبية الخالصة أو تلك التي لا تربطها بهم سوى قرابة دموية". وكانت هذه القبائل وأشهرها : إيدغجلمة، وإيدوعيش، وإيدغبامبرة،- وهي عشيرة من عشائر لمتونة- وإيدا غزيمبو، وإيديشلي، وإيداغماجاك، وإيدا بالحسن،كلها تدفع الجزية لإيداو علي، وقد بسط هؤلاء الأمن في كامل المنطقة .

وقد تزوج علي بن بالاحمر امرأتين :عربية وزنجية. انحدر من الزنجية تجمعا إيداوعلي "الكحل" (في آدرار والترارزة)، ومن العربية تجمع إيداوعلي "البيض" (تكانت). وبعد حدوث الحادث المزعج الذي سيؤدي إلى خراب ابير، قام يحي ابن علي من عشيرة إيداو علي الكحل بقتل أحد أبناء عمومته. إلا أن علو منـــزلته و أصوله النبيلة قد حفظا له حياته لكنه أجبر على الهجرة. وبعد أن هام على وجهه في البلد،جاء ليستقر به المقام في شنقيط (في نهاية القرن الخامس عشر) وكان يومها قرية صغيرة عديمة الأهمية يعيش فيها عمر ييني، وهو جد إيدايجر التي هي حاليا من عشائر تجكجة، فعرفت شنقيط -- ومعناها "عيون الخيل" بحسب تفسير [سيدي] عبد الله بن الحاج ابراهيم- منذ ذلك الحين أياما مزدهرة. فقد قدم الكثير

س أهل يحي وأصدقائه إليه في إقامته الجديدة وسرعان ما شكلوا تجمعا كثيفا. فتراجعت آبير، واستعادت كل العشائر التي كانت تدفع الجزية حريتها [86].

وبعد مرور سنوات من قدوم يحي،حوالي سنة 1525م،أصبحت شنقيط أهم مدينة من مدن الصحراء الغربية، وكان بها أحد عشر مسجدا منها الجامع العتيق الذي لازلنا نراه قائما حتى اليوم ، ومائة بئر، وذلك بحسب ما يرويه الشيخ الكبير سيدي المختار الكنتي،وأصبحت شنقيط بامتياز واحدة من المدن السبع المهمة في العالم الإسلامي [87].

وكان الحج منها إلى بيت الله الحرام منتشرا بكثرة . وروايات إيداو علي سعيدة بالإشارة إلى أنه بفضل هذا التدفق لأهل شنقيط إلى الشرق، تم إطلاق اسم الشناقطة (والشناجطة والجناجطة) في نهاية الأمر على كل البيظان المنحدرين من المناطق الصحراوية أو السودانية في غرب إفريقيا. ومن جهة أخرى ساهم ورع بعض الشخصيات في انتشار عادة الحج بين الناس. ويروي [الحاج سيدي] عبد الله ابن الحاج ابراهيم أن الحاج محمد أحمد جد أهل بوكسا من إيداوعلي تگانت قد اصطحب معه إلى مكة أربعين حاجا، وأنه دفع بدلا عنهم كل النفقات أثناء السفر.

---

[86] ويقدم كتاب "مطرب العباد" الذي اكتشفه الحاكم غادان Gaden، وترجمه إلى اللغة الفرنسية م.حامت M.Hamet في "مجلة العالم الإسلامي" في عددها ليونيو سنة 1912م، رواية مختلفة شيئا ما لتأسيس مدينة شنقيط. ويروي الكاتب، بعد أن شرح بأن يحي قد تم نفيه بالفعل من آبير لقتله رجلا كان يقوم بعمل مشين في أحد أحياء المدينة،أن المنفي توقف عند الولي الصالح محمد قلي ،الذي كان يوجد عريشه في نفس الموضع الذي بنيت فيه شنقيط فيما بعد،فالتحق بهما اثنان من سكان الوادي الأصليين هما عمر جد أمقاريج (وهي إحدى العشائر الحالية في إيدوعلي آدرار) وإيدايجر،جد أولاد مولود بن أحمد، وشرعوا هم الأربعة في تأسيس المدينة في سباق مع الظروف العجيبة.
ونوجد نفس الأسماء في الكتيب الذي بين أيدينا ("صحيحة النقل") لكن عمر بن ييني هنا هو جد إيسدايجر، ومحمد قلي "الأبيض" هو جد قبيلة الأقلال الحالية،في حين يذهب الأقلال (وتنطق لدى البيظان بنوع من الترخيم) إلى أنه لم يظهر إلا بعد ذلك بوقت قصير.
وبناءا عليه -- ويحتمل أن تكون تلك هي الحالة العامة لسائر الروايات المكتوبة أو الشفوية التي يرويها الأهالي -- يبدو أن الأحداث صحيحة في مضمونها إلا أنها تشوهت بمرور الزمن واندمجت في التراث وأصبحت جزءا لا يتجزأ منه،فامتزج الخيال الخصب لعلماء الأنساب والرواة،بروح التنافس والتفاخر بين القبائل والعائلات مضيفا بسرعة إلى الكل تنميقاته المعهودة.

[87] وهذه المدن السبع بحسب روايات إيداو علي هي:مكة المكرمة، والمدينة، والقدس، وبغداد،والقاهرة،وتونس،وشنقيط.

وقد استمر ذلك الازدهار والوئام أكثرمن قرن من الزمن (من سنة 1500م وحتى سنة 1635 م تقريبا) ،ولم يلاحظ خلال هذه الحقبة من الزمن سوى حادث واحد مزعج ألا وهو خروج السماسيد من شنقيط. وكان إيداوعلي، بدافع من التقوى، لا يتخذون أبدا إمامهم من قبيلتهم وإنما كانوا يختارونه من السماسيد . إلا أنهم بعد أن حكموا أنه من المناسب أن يقع الاختيار على الأقلال، الذين ينتمون من خلال جدهم محمد قلي الذي تسمت القبيلة باسمه، إلى الخليفة أبي بكر الصديق (رضي الله عنه)، وبالتالي فهم أبناء عمومتهم، فأغاظوا بذلك الإجراء السماسيد الذين سرعان ما هاجروا من المدينة. فلم يتناقص ثراء البلد لأن شنقيط كانت قادرة بعد ذلك على تسيير قوافل مكونة من 2200 بعير محملة بالملح إلى الظهر، وهو ما جعل الناس يتساءلون: "أي هاتين المدينتين أثرى، أهي تلك التي استطاعت أن تسير عيرا بهذا الحجم أم تلك التي تستطيع شراءها ؟!".

إلا أن الصراعات الداخلية التي اندلعت بين إيداوعلي البيض وإيداوعلي الكحل في الفترة الفاصلة ما بين عامي 1630م و1640م تقريبا، أدت إلى وضع حد لحالة الازدهار تلك. ويبدو أن تلك الصراعات كانت مشهدا من مشاهد حرب شرببّه المشهورة أو نتيجة من نتائجها، وهي الحرب التي دارت رحاها للمرة الأخيرة حوالي منتصف القرن السابع عشر، بين العرب الغزاة والبرابرة سكان موريتانيا الأصليون. وقد أدت تلك الحرب إلى التقسيم الحالي للمجتمع الموريتاني إلى قبائل محاربة وقبائل الزوايا، وإلى فرض العرب الحسانيين المنتصرين أنفسهم على القبائل الصنهاجية المعربة المغلوبة على أمرها. إلا أن تلك الصراعات الداخلية، كما تقول قصص إيداوعلي، ظلت حروبا نظيفة أي أنها لم تعرف النهب، وتخللتها فترات سلم دامت أربعين عاما.

وخلال تلك الفترة حوالي سنة 1675م تقريبا، توجه عبدي ولد المختار بصفته زعيم إيداوعلي الكحل والإمام عبد الرحمان زعيمهم الخاص

ومعظم إيداوعلي البيض، وكما تقضي العادة في قافلة تجارية إلى ديافونو (نيورو) الذي كانت تحكمه سلالة صديقة للماسا [88] فاستغل إيداو علي الكحل غيابهم للتخلص من أولائك الإخوة الأعداء وقاموا بإبادة كل من بقي منهم باستثناء شيخ ضرير يدعى الطالب أحمد.فلجأ الطالب أحمد إلى أصدقائهم الأقلال.وعلى الرغم من أنهم أبناء عمومة ،إلا أنهم ظلوا محايدين في تلك المأساة،فوضعوا ذلك العجوز في طريق قافلة إخوته.وبما أن هذه القافلة لم ترد العودة إلى شنقيط حيث كان ينتظرها أسوأ الأقدار، واصلت سيرها تحت قيادة الأعمى بحثا عن موطن جديد. وكانت تتوقف كل مساء وتقدم حفنة من التراب إلى الطالب أحمد ليتحسسها ويرد عليهم قائلا : "تابعوا المسير"، فساروا حتى وصلوا وادي الرشيد فقال لهم: "إنها أرض جيدة للزراعة ،لكن سيسيل الدوم على الدوام بين سكانها "، فتجاوزوا الرشيد بناءا على ذلك،ووصلوا إلى الموضع الذي توجد فيه الآن مدينة تجگجة (تگانت) حيث أوقفتهم نصائح الدليل نهائيا [89] سنة 1680م تقريبا.

وفي تلك الأثناء قامت عشيرة من إيداوعلي "الكحل" في شنقيط ذاتها بالاحتجاج بشدة على إبادة إخوانهم ، فقضى الأمر الواقع بعدم الاستمرار في العيش مع مجرمين يبثون الرعب في قلوبهم وفي الوقت ذاته بالنجاة من حقدهم فغادرت تلك العشيرة المدينة تحت قيادة زعيم يسمى أبيجه (1675 – 1680م) وهبطت في اتجاه الجنوب الغربي واستقرت في الترارزة.

ذلك، بحسب التاريخ المحلي، هو سبب انقسام قبيلة إيداوعلي إلى ثلاث عشائر كبرى تعيش في آدرار و تگانت والترارزة.

وقد واصل فرع آدرار العيش والازدهار في شنقيط على الرغم من أنه تناقص إلى حد كبير. أما زعيمه فهو عبدي ولد المختار الذي كانت

88 ماسا هو الإسم الذي أطلقه م.دولافوس M.Delafosse في كتابه "أعالي نهر السنغال والنيجر/ الجزء الثاني" على ملك الماندينك . ويؤكد المصدر الذي حدثني أن الأمر يتعلق فعلا بسلاطين ديافونو.

89 يروى دولافوس قصة مماثلة لتأسيس مسنة لمدينة تشيت في كتابه ،أعالي نهر السنغال والنيجر/ الجزء الثاني.

إحدى بناته قد تزوجت شيخا من شيوخ إيداوعلي البيض جاء بتلك الذريعة ليتخاصم مع أهالي تجگجة إلا أن هؤلاء قاموا بصده.

وبعد ذلك بوقت قصير سنة 1689م - إذا ما صدقنا روايات الكتاب العرب [90]- والرواية المحلية التي لا تزال قوية، فإن السلطان مولاي اسماعيل مر بشنقيط في رحلته إلى تشيت و تگانت ولقي ترحيب القبائل الموجودة في المنطقة.

ثم امحت الذكريات السيئة مع مرور الزمن . ومن جهة أخرى أرغمت ضرورة البحث عن حلفاء لمواجهة كنتة وإيدا الحاج في آدرار — اللتين كانت دائما تشنان حربا على العشيرة بل اللتين انتزعتا منها واحة تانوشرت التابعة قديما لشنقيط — تلك العشيرة من إيداو علي على التقارب مع أبناء عمومتها المهاجرين والتعايش معهم في وئام كبير.

أما في تگانت فقد عاش إيدا علي "البيض" ،أصحاب القافلة، في بادئ الأمر حياة البدو في المناطق المحاذية لماء تجگجة، إلا أن أحد شيوخهم وهو الأقرع ولد حروش اضطر إلى بناء منـــزل ليحمي فيه طبله ،وهو الرمز الدال على القيادة،وأحد أدوات الدعوة إلى الحرب وإلى الاجتماعات العامة، من حرارة الشمس، فقلده أصحابه ولم يتأخر بناء القرية وأصبح هؤلاء إيداو علي شيئا فشيئا زعماء المنطقة دون منازع .

أما العشيرة التي هاجرت إلى الترارزة فقد استطاعت بسلاحها انتزاع موطأ قدم لها وواصلت تلك المهمة بنجاح منقطع النظير على مدى قرنين من الزمن،فتصدى لهم إيدا بالحسن على وجه الخصوص بمقاومة شديدة وأزاحوهم بعد معركتين كبيرتين إلى لغبيري وإيرزيك مع بداية القرن التاسع عشر تقريبا.

وقد قام إيدا بالحسن حوالي سنة 1840 م تقريبا على إثر اغتيال إيداو علي الساخطين لعالم شاب وشيخ من شيوخ إيدا بالحسن يسمى بابال

[90] أحمد السلاوي،كتاب الاستقصاء ؛ وأحمد الزياني،ترجمان المعرب.

وتلميذه، بالهجوم على إيداو علي المتحصنين هم وحلفاؤهم الحسانيون أولاد أحمد بن دمان في غابة بوطريفية (المذرذرة) ومزقوهم شر ممزق. عندها تدخل أمير الترارزة محمد الحبيب لوضع حد لتلك الصراعات المتبادلة بين القبائل المحاربة وقبائل الزوايا في إمارته إلا أن محاولته لم تجد نفعا. فاستنجد المهزومون بتجگجة، وشنقيط فساعدهم أبناء عمومتهم بقوة ودمروا إيدا بالحسن في معارك تين اجمارة وبل الحنوشة وغورط وتين دوجة في الفترة الفاصلة ما بين عامي 1850 و1860م وفي سائر مناطق الترارزة. وقد قتل في هذه المعركة الأخيرة مع عدد كبير من إيدا بالحسن شيخ من شيوخهم هو عبد الله الأحول الذي لا زالت قصائده يتغنى بها تحد الخيام .وقد أدى انتصار إيداو علي إلى تكريس نجاحهم النهائي.

وقد ظلت ذكرى هذه المعارك حية للغاية ولا تزال حتى أيامنا هذه العديد من الصراعات تندلع بين أفراد القبيلتين لأتفه الأسباب.

وخلاصة القول هي أن إيداو علي آدرار والترارزة هو إيداو علي "السمر" ،أما إيداوعلي تگانت فهم إيداو علي "البيض"،ولا يعني هذا الأمر أي تمييز في لون البشرة لأن هذه التسمية جاءتهم فقط من زوجتي جدهم علي الذي تسمت القبيلة باسمه.

وتعيش هذه العشائر التي نسيت صراعاتها القديمة في الوقت الحالي في علاقات طيبة،ويتزاورون بكثرة،وينسجون علاقات تجارية فيما بينهم،وتجمعهم مصاهرات عديدة من ناحية الأم،وهم على وجه الخصوص أتباع لنفس الطريقة التجانية [91].

[91] توجد بعض الفوارق في التقاليد التاريخية تميز إيداو علي الترارزة.

ثانيا– الحالة الراهنة:

1– إيداو علي الترارزة:

تتضمن عشيرة إيداو علي الترارزة القاطنة بمندوبية المذرذرة تسع عشائر فرعية،شكلت بحسب إحصاء 1912م مجموعات قدر عددها بـ 2286 نسمة.وهم يرتبطون بيحي ابن علي عن طريق شجرة النسب الآتية قدم كل اسم فيها تقريبا إلى التجمع الحالي مجموعة من الأبناء:

علي
يحي
ايديبيجة
حمد الله
إيديبيجة
محم
حبيب
الطالب محم
القاضي

ونصل انطلاقا من القاضي إلى الأسر المعروفة حاليا،ولكل منها شجرة نسبه الخاص.وقد انقسمت العشائر على النحو الآتي:

اسم العشائر الفرعية	كبيرها	عددها
أهل عبد الرحمان	السالك ولد باب	371 نسمة
أهل محم	محمد عبد الله فنال	529 نسمة
أهل أحمدُ ولد خيار	بدي ولد محمود	152 نسمة
إيجبوان	المختار ولد الفاللي	123 نسمة
أهل الحاج	محمد الحبيب ولد أحمدُ	200 نسمة
أهل الحر	السالك ولد الاعور	71 نسمة
أهل أحمدُ	المختار ولد محمد امبارك	256 نسمة
إيدابجة	المصطفي ولد محمد حرمة	276 نسمة
السماسيد	محمد عبد الله ولد لولي	308 نسمة

ولا ينفصل إيجوبان عن أهل أحمدُ ولد خيار. أما السماسيد، وكما هو واضح من الاسم، فليسوا من أصل علوي صرف وإنما يعيشون معهم منذ عدة قرون.

وتقع المنطقة التي تسكنها العشيرة إلى الشرق من المذرذرة وتمر بها الطريق إلى المركز العسكري بأبي تلميت. وفي فصل الخريف يخيمون في منطقة النبيكة، أما في فصل الصيف فيقتربون من بحيرة الركيز(بحيرة كايار الزنجية). أما آبارهم الرئيسية فهي : الجرارية (وعمقها 3 أمتار) العين (4 أمتار) و تين بوبيعلي (4 أمتار) وتويفجار (3 أمتار) و بير الدربان (12 مترا) وتين قادوم (3 أمتار).

ويمارس إيداو علي الزراعة في أراضي الركيز.وقد كانت تلك البحيرة على الدوام سببا لكثير من النـــزاعات ومسرحا لها بين عشائر إيداو علي وتجكانت وإيدا بالحسن الذين يستغلون مياهها الغنية بالأسماك، والأراضي الزراعية التي تغمرها مياهها بشكل دوري. ففي الوقت الذي كان يتعين فيه توجيه تلك الخصومات إلى القبائل المحاربة إلا أنها لم تتسبب في شيء آخر سوى تسميم الأجواء بين تلك القبائل الزاوية الثلاث، بل إن إيداو علي المنطقة وصلوا فيها إلى حد التملص من ضريبة الحرث (*bakh*) التي تقدم للمحاربين. ولم يسلم إيدا علي وتجكانت وإيدا بالحسن منذ سنة 1902م من سنّة الانقسام التي عمت الجميع،فأصبحت النـــزاعات على أشدها بين القبائل وذلك في انتظار أن تصبح بين العشائر الفرعية ثم بين الأفراد أنفسهم. وتمت تسوية تلك النزاعات في الآونة الأخيرة عن طريق الصلح بالاتفاق بين "الجماعات"برعاية المندوبين الفرنسيين في المذرذرة و أبي تلميت،وتحت رئاسة قائد دائرة الترارزة (اتفاقية الثالث من ابريل سنة1911م بخصوص موضوع ممارسة حق الصيد بين إيداو علي وإيدا بالحسن – اتفاقية الخامس من ديسمبر سنة 1991م في موضوع الأراضي الصالحة للزراعة بين القبائل الثلاث المذكورة آنفا).

2- إيداو علي تگانت :

يقيم إيدا علي تگانت بحجگجة ذاتها حيث يشغلون المقاطعة بكاملها تقريبا،ويمتلكون القسم الأكبر من واحاتها.وهم أكثر عددا من أبناء عمومتهم في الترارزة وفي آدرار.

وتنقسم عشائرهم إلى ما يلي:

تميلة

أهل محم

أهل الإمام

أهل بو بكر

أهل أجوَن

أهل بوكسا

أهل العلوي

أما شجرة نسبهم ابتداءا من علي الجد الذي تسمت القبيلة باسمه، والتي ساهم كل فرد فيها تقريبا في بناء العشيرة الحالية، فهي كالآتي:

علي

يحي

انداموغي

يعقوب

أحمد

الإمام محمد أحمد

الإمام عبد الرحمان (القرن الثامن عشر) والذي انبثقت منه العائلات المعروفة حاليا.

وقد عارضت هذه العشيرة من إيداو علي احتلالنا لتگانت معارضة شديدة ،إلا أن دبلوماسية كبولاني Coppolani قد نجحت أكثر من مرة أمام مداهنتها التي لا حد لها. وبعد موت كبولاني[92] في الثاني عشر من مايو سنة 1905م، سارعوا إلى الكفاح وانتقل عدد منهم بقيادة سيديا ولد الشيخ ولد محمد الأمين، وهم من عشيرة أهل محم الفرعية،إلى صف العدو وانضموا إلى منشقي آدرار وبايعوا ابن عم السلطان وممثله مولاي إدريس (1906-1907م)، لكنهم حالما أدركوا عدم جدوى الكفاح، طلبوا الأمان وعادوا ثانية إلى موطنهم خلال 1907-1908م.

3- إيداو علي آدرار:

لا يزال إيداو علي آدرار مقيمين في أول مكان استقروا فيه وهو شنقيط . وعملهم هو إنشاء الواحات، وقد اعتاشوا من العناية بها وأثْروا منذ أربعة قرون . وقد أعطى إيداو علي آدرار مؤسسي مدينة شنقيط، والتي لا يزالون حتى الآن يمثلون أهم عشيرة فيها، لتلك المدينة المقدسة طابعها الديني، وجعلوا منها أشهر مركز للدراسات في غرب إفريقيا .

ويتكون إيداوعلي آدرار من 3000 نسمة تقريبا، موزعين على أربع عشائر فرعية هي:

أهل عبدي

أهل الشيخ

آمقاريج

أحمد بابا

[92] مقتله على يد بطل المقاومة سيدي ولد مولاي الزين . ويذكر بعض المؤرخين أن فكرة اغتيال كبولاني قد نبعت من الزعيم الروحي للطريقة الغظفية الذي وجه تلميذه سيدي الصغير بن العربي بن مولاي الزين لاغتيال الحاكم العام لموريتانيا. انظر بهذا الخصوص حماه الله ولد السالم، تحقيق الرسالة الغلاوية، للشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار الكنتي ،الفصل الرابع، الهامش رقم 286 (مخطوط) . وهذا الأمر يفسر في نظرنا على الأقل بصفة جزئية وصف بول مارتي للطريقة الغظفية بالتعصب (المترجم).

وهم ينحدرون من علي الجد الذي تسمت القبيلة باسمه عن طريق إحدى حلقات السلسلة الآتية:

علي

يحي

إيديبيجة

حند الله

إيديبيجة

حبيب

الطالب

أحمد	عبد الله
الفاغة محم	عبد الله محمد (القرن الثامن عشر)

ومنهما جاءت العائلات الحالية في العشيرة.

وقد رافق عبد الله محمد ابن عبد الله [93] المذكور آنفا، وهو شاعر مشهور ومؤلف غزير الإنتاج بصفته قاضيا ومستشارا دبلوماسيا، أمير الترارزة علي شنظورة في زيارته التي قام بها في السنوات الأولى من القرن الثامن عشر إلى سلطان المغرب مولاي اسماعيل ليطلب منه المساعدة والحماية ضد أولاد رزق الذين اضطهدوا شعبه.

وقد أعلن إيداو علي شنقيط الذين كانوا قد استقبلوا في البداية مولاي إدريس بالتأييد سنة 1906م، وذلك بالطبع لعدم قدرتهم على التصرف

[93] ولد رازكة (المترجم).

على نحو آخر،دون أية صعوبات بإعلان خضوعهم للفرنسيين عندما ظهروا في آدرار.

ثالثا– تجانية إيداو علي:

1- أصولها:

قادت رحلة العودة من الحج إلى الأراضي المقدسة شيخا ورعا اسمه محمد الحافظ الملقب بدي ابن المختار ابن الحبيب ابن كريش ابن الحسن، حوالي سنة 1780م إلى المرور بفاس. فتعرف فيها على الشيخ أحمد التجاني الذي كان يومئذ في أوج شهرته، فانضم إلى "طريقته" بعد أن استهوته فضائل مؤسس التجانية وتعاليمه. فأعطاه أحمد التجاني نفسه الورد، ومنحه لقب خليفة الطريقة في بلاد البيظان، وأمره بنشرها في أوساط سكان الصحراء في أقصى جنوب المغرب.

وقد قام محمد الحافظ في طريق عودته إلى بلاده عن طريق شنقيط وتجكجة بدعوة قوية للطريقة التجانية واستمر فيها طول حياته، وهو ما مثل نوعا من النــزعة الوطنية المحلية تمثل في الجهد الدائب الذي دام خمسين عاما لخلق رابطة روحية تؤسس لأخوة دينية أعمق بين سائر عشائر إيداو علي في غياب الوحدة الترابية التي باتت مستحيلة منذ ذلك الحين.

وحوالي سنة 1830م وهو التاريخ التقريبي لوفاته، كان محمد الحافظ مطمئنا بأنه ترك قبيلة إيداو علي بكاملها وقد انخرطت في الطريقة الجديدة.

ولم يتوقف ذلك التعلق بالطريقة التجانية عن الازدياد تحت الزعامة الروحية لابنه وخليفته الشيخ أحمدُ، الذي توفي في سن مبكرة سنة 1907م. وقد أخذ ذلك التعلق طابعا من الخصوصية المطلقة بحيث أصبح أفراد تلك

القبيلة أنفسهم يقولون بأنه "ليس لأحد من إيداو علي أن يكون إلا تجانيا". وفي الآن ذاته كان تقليد الحج إلى بيت الله الحرام، القوي عندهم، يزداد تعقيدا بسبب القيام بسفر إلى فاس لزيارة ضريح مؤسس الطريقة سيدي أحمد التجاني .

وتمتاز تجانية إيداو علي في الوقت الحاضر بالخصوصيات الثقافية التالية:

أ- قراءة الورد التجاني الرسمي عقب كل صلاة وخاصة صلاتي الظهر والمغرب وهو:

"اللهم صل وسلم على سيدنا محمد ، الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق، ناصر الحق بالحق والهادي إلى الصراط المستقيم، وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم. استغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم .

لا إله إلا الله

وصلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[94] آمين".

ويزداد عدد هذه الأذكار تبعا للمرتبة الروحية للمريد،ولا يسمح له بقراءها جميعا إلا عندما يصل هرم التدين. وكل شيخ هو المشرف الروحي لتلميذه في هذه المسألة.

ب- يستحب في قراءة الأدعية المفروضة في الطريقة التجمع في جماعات صغيرة من الإخوة بمعزل عن باقي المريدين. وتصطف الجماعة في صف واحد في أقصى درجة ممكنة من درجات الطهارة البدنية،وهو ما يقتضي منهم خلع سرابيلهم عندما يكون قد مضى على استعمالها أكثر من ثمانية أيام وتركها خلف الصف.وتتم الأدعية برئاسة أحد المريدين الذي يقود الحركات بذكر كلمة "الله".

[94] القرآن الكريم،سورة الصافات،الآيات من 179إلى 181.

ج -كان يتعين بصورة شبه إجبارية تكملة الحج إلى بيت الله الحرام بزيارة مؤسس الطريقة في فاس.

وكان حجاج العشيرة في الترارزة قديما يتجمعون في تجگجة بحجاج العشيرة الموجودين في تگانت ثم يتوجهون جميعا إلى شنقيط التي كانت هي مكان التجمع العام ويصلون إلى فاس عن طريق الباطن وتيرس وكدية الجل والعوسات والزمور ووادي نون وتيزنيت ومراكش. أما اليوم فيمكن سلوك طريق أسهل وهو طريق البحر حيث يؤدى الاضطراب في وادي درعة إلى قطع المواصلات مؤقتا،كما أن ذلك التنظيم قد بدأ يميل إلى الاضمحلال. وأصبح الحجاج يركبون السفن من داكار إلى طنجة ويقومون بالسفر من طنجة إلى فاس ذهابا وإيابا ثم يصلون بعد ذلك مباشرة إلى جدة مع الحجاج المغاربة. ويبدو أن حركة الحج قد تباطأت قليلا منذ قدومنا إلى موريتانيا.

أما السمة الأوضح في التجانية لدى إيداو علي فهي طابع الخصوصية المحلية الذي يبالغ فيه أفراد القبيلة الأصليون. فهم أنفسهم يعترفون بأنهم كانوا حتى نهاية القرن الثامن عشر، إما منتمين إلى الطريقة القادرية أو مستقلين غير تابعين لأي من الطرق الدينية. وقد تبنوا الورد التجاني، كما يقولون، لأن هذا الورد هو أقصر الأوراد وأقلها انتشارا. فهل هو في الحقيقة أقصر الأوراد ؟ لا يوجد فرق كبير بينه وبينها في ذلك ولا في الحرارة الدينية.فهل هو أقل انتشارا ؟ ذلك صحيح،ويبدو إيداو علي فخورين جدابطريقتهم التجانية الوطنية الصغيرة وسط عائلة القادرية الهائلة في بلاد البيظان.

وتربطهم علاقات حميمة بزاوية فاس (سيدي محمد العبدلاوي والعربي بن محمد والطيب السفياني، ومحمد البناني، ومحمد بن العابد) الذين يحمل إليهم الحجاج كل عام بانتظام، بالإضافة إلى الزكوات التي يجمعها "خلفاء" الطريقة، رسائل شكر وطلبات تعيين في كرسي المشيخة. وهذه الزاوية بالنسبة إليهم هي الزاوية الرئيسة للطريقة لأنها تحتوى على ضريح

المؤسس، ولأنها هي المكان الذي حصل منه شيخهم محمد الحافظ الذي أدخلهم في الطريقة، على الورد. ويعرف معظم المشايخ والحجاج أيضا فرع الطريقة في الرباط (سيدي أحمد كنسوس)، وسلا (سيدي محمد بن المكي الزواوي)، ومراكش (سيدي الحاج العربي كنسوس)، وفي المقابل لا يعرفون أبدا زاويتي التجانية الكبيرتين بالجزائر في عين ماضي وتماسين .

2- الشيوخ الأساسيون:

تتركز السلطة الروحية لتجانية إيداو علي في الوقت الحاضر في أيدي الشيخين الآتيين:

- الشيخ محمد سعيد
- الشيخ محمدي

وكلاهما حاصل على لقب "الخليفة" من زاوية فاس ويتبعانها مباشرة . فأما الشيخ محمد سعيد، وهو من عشيرة أهل محم الفرعية، فهو حفيد محمد الحافظ عن طريق شجرة النسب الآتية:

الشيخ محمد الحافظ

الشيخ أحمدُ

محمدسعيد	محمدُ المتوفي سنة1907 م أثناء الحج بعد مروره بفاس	محمد	أحمد	عبد الله	محمدحرمه	محمدالأمين الحاج المتوفى سنة 1910م
						محمد الحافظ (24 سنة)

ويوجد مخيم محمد سعيد البالغ من العمر 50 سنة تقريبا في ضواحي ساقية الجرارية على الطريق الرابط بين أبي تلميت والمذرذرة.

وأما الخليفة الثاني وهو الشيخ محمدي ولد أحمد فيرتبط بفرع إيداوعلي "الكحل" بالترارزة عن طريق شجرة النسب الآتية:

القاضي

محم

أحمد (متوفى)	محمدُ (متوفى)	الحاج (متوفى)	حرمة (متوفى)	محمد المتوفى سنة 1913م
محمدي محمد الأمين محمد مصطفى أحمد		بدي		محمدُ محمد عبد الرحمن عبد الجليل

وتتمتع هذه العائلة بنفوذ ديني كبير بسبب جدها الملقب "بدي" الذي كان أكثر تلاميذ محمد الحافظ علما وأحبهم إلية. وعندما حانت وفاة الشيخ قام بتوزيع السلطة الروحية بين ابنه أحمدُ وتلميذه بدي، ولهذا نجدها اليوم بين أيدي ممثلي العائلتين.

والشيخ محمد هو الآن في الأربعين من عمره. قام سنة 1905م برفقة أخويه محمد الأمين ومحمد والعديد من تلاميذه، بالحج المزدوج إلى فاس ومكة، وقام عند عودته بزيارة زوايا التجانية بالدار البيضاء وفاس (سي الطيب سفيان) والرباط. وعاد أحد تلاميذه الحجاج وهو محمد عبد الله ولد كتاوشي إلى شنقيط ليلتحق بعد ذلك بوقت قصير بعصابات ماء العينين، ولقي حتفه في موقعة أم آقنينة سنة 1908م. ويوجد مخيم الشيخ حاليا عند ساقية النباغية إلى الشمال الشرقي من النبطية.

أما موقف هاذين الشيخين فهو موقف مسالم[95]، لكنه مموه بشكل مقصود، ويتم عملهم الذي يصعب فهمه بوساطة بعض الشيوخ من الدرجة الثانية .

ويدور في فلك ذينك الخليفتين عدد من الشيوخ من ذوي القيمة الثقافية العالية والنفوذ المحلي الكبير . وهم من الناحية الرسمية "شيوخ" في الطريقة أي أن في مقدورهم منح الورد مباشرة وتكوين زبونية دينية خاصة بهم. وهم في العادة يحصلون على تلك المباركة من فاس أثناء زيارتهم لها، ومع ذلك يبقون خاضعين بطبيعة الحال للزعامة الروحية للخليفتين المحليين.

1- الترارزة:

أ- الشيخ السالك ولد باباه وأخواه محمد فال والتجاني من عشيرة أهل عبد الرحمن الفرعية.

شجرة نسبه:

أحمد بيبه- بابه							
محمد فال التجاني				السالك			
محمد	محمد عبد الرحمن	محمد محمود	بابه	عبد الله			أحمد

ويبلغ السالك ولد عبد عبد الله 64 عاما وهو تلميذ أحمدُ وابن محمد الحافظ، عينه كبولاني Coppolani سنة 1903م قاضيا لإيداو علي الترارزة الذين أخضعهم للسلطة الفرنسية، لكنه عزل من منصبه بعد سنوات من

95 غير معادي للسلطة الاستعمارية الفرنسية (المترجم).

ذلك التاريخ لاتهامه بسوء التسيير. عين سنة 1909م زعيما إداريا للعشيرة واستقال في سبتمبر سنة 1911م، وهو غزير العلم ولديه مكتبة مهمة.

أما محمد فال الذي يبلغ من العمر 59 سنة فهو غزير العلم.حج إلى بيت الله الحرام وعند عودته توقف بفاس سنة 1890م حيث أقام لمدة عام عند الخليفة سيدي غالي بن معزوز الذي نصبه شيخا.

أما أخواه فقد اشتهرا بحسب الأهالي بأنهما طبيبان مشهوران.ومن المؤكد،على كل حال،بأنهما يمتلكان جيدا العلم النظري المستمد من بطون كتب الطب العربية .وقد طلبا السماح لهما باستجلاب مكتبات من الشرق على نفقتهما الخاصة تتضمن كتبا حديثة في الطب الأوروبي،وهو ما يثير على الأقل فضولا معينا.

ب- محمد المختار ولد أحمد فال من أهل محم وأبناء عمومته.ويرتبطون بفرع الترارزة من إيداو علي "الكحل" عن طريق شجرة النسب الآتية:

القاضي محمدي –اتشفاغة- أحمدُ –سيدي

خيري

أحمد فال

محمد المختار سيدي عبد الله مصطفى (متوفى) محمد عبد الله محمد الحافظ الخليفة

المتوفى سنة 1903م

محمد عبد الله مصطفى أحمد فال عبد الله

الملقب "ففال"

أما محمد المختار فهو فقيه معروف،اشتهر كثيرا بالعدل. وقد رفض ممارسة القضاء لئلا يخل به وبدافع من الورع الشديد. ولأخيه وأبناء إخوته أهمية أقل.

أما محمد الحافظ ابن خيري البالغ من العمر 45 عاما، وهو من أهل محم في سهيوة الماء، فهو تلميذ ابن عمه محمد المختار. توقف بشنقيط في

طريق عودته من الحج إلى الأراضي المقدسة سنة 1910م وأكمل فيها دراساته وتزوج فيها وعاد منها إلى عشيرته الأصلية سنة 1906م. وهو الآن يستخدم ضابط اتصال بين خليفته وشيخ التجانيين السنغاليين الحاج مالك سي في تيفاوان. وقد ذهب أيضا مرات عدة في مهمة إلى أحمدُ بمبا زعيم المريدية وإلى مامادو صو الزعيم المحلي لإحدى المدن في باول.

ويدخل سائر أفراد هذه العائلة في عداد الصف الأول من تلاميذ الخليفة محمدي، وقد حصلوا على الورد مباشرة من أبيه أحمد ولد بدي.

ج- أحمد فال ابن الشيخ محمد الأمين ابن مولود فال وأخوه:

ينحدر جده مولود فال من قبيلة إيديقب. وقد ذهب إلى فاس لزيارة الشيخ أحمد التجاني، إلا أنه لسوء حظه لم يصل إلا بعد مرور أيام من وفاته ولم يتمكن من الحصول على السبحة وإبريق الشاي والوضوء، وسجادة فرو الغنم التي أوصى له الشيخ بها والذي كان يتوقع قدومه، إلا من أيدي أتباعه بالبكاء. وقد اختفت الآن هذه الأشياء المباركة بحسب ما قاله احمد فال حفيد مولود.

وعندما عاد مولود فال إلى وطنه هاجر مع بعض الأسر من أقاربه وأصدقائه إلى إيداو علي وأصبح واحدا من أوائل تلاميذ الشيخ الكبير محمد الحافظ وأكثرهم تحمسا للطريقة بل إن هذا الأخير أعطاه اخته ليتزوج بها. وقد عرف مولود فال بترأسه لبعثات الدعوة التجانية في بلاد التكرور، وبذلك أثار اهتمام الحاج عمر الذي قدم إليه بعد ذلك ببضع سنوات ليأخذ عنه الورد. وقد ورث محمد الأمين النفوذ الديني لأبيه،وكان رجلا عالما. وقد تزوج إحدى بنات بابا ولد أحمد بيبه[96]. توفي الإبن الأصغر من ولديه وهو السيد سنة 1911م عند عودته من السفر في مهمة دعوية تجارية في باسام الكبرى. أما نجله أحمد فال، وهو

[96] انظر أعلاه الفقرة (أ).

شيخ معروف، فيتمتع بنفوذ كبير لدى أولاد عايد وهي إحدى العشائر الصنهاجية في المذرذرة، ولدى التكرور في ديمار(فوتا السنغالية).

د- أما محمد المختار ابن حد أمين، ويبلغ الآن من العمر 45 سنة، وأصله من إيديقب، وتربطه صلة قرابة بمن تقدموا من جهة الأم ؛ ومحمد ولد التاه البالغ من العمر 45 سنة، وأصله من إيديقب ؛ والشيخ عبد الله ولد الحاج محمد أحمد وهو من عشيرة أهل محم الفرعية، فقد حج ثلاثتهم إلى الأراضي المقدسة حوالي سنة 1904م، وعند عودتهم أقاموا بعض الوقت في زاوية فاس، ولم يعودوا إلى عشيرتهم الأصلية إلا في عام 1906م. وهم الثلاثة علماء ممتازون، ويهتمون على وجه الخصوص بممارسة الزراعة،ولا يبدو أنهم قاموا بالدعوة جنوب النهر باستثناء عبد الله الذي يعزو إليه تلاميذه الزنوج القدرة على التنبؤ بالمستقبل.

هـ - محمود ولد أحمدُ ولد بابه:وهو من عشيرة أهل أحمدُ ولد نحيار الفرعية وهم من أبناء عمومة العشيرة، يبلغ من العمر 54 سنة. قام برحلة كبرى إلى الشرق زار خلالها بيروت واسطنبول، بعد أن أكمل شعائر الحج بمكة والمدينة، وبقي عند عودته عدة أشهر بفاس. قام بالعديد من الجولات في السنغال في مهام دعوية وتجارية.

و- محمد فال ولد اتشفاغه ولد محمد لولي، البالغ من العمر 45 سنة، وهو من عشيرة أهل محم الفرعية،حج إلى الأراضي المقدسة سنة 1892م ومر بفاس في طريق عودته سنة 1893م. ولهذا الشيخ زبونية دينية مهمة من الزنوج في سنت لويس واللوغة وتيفاوان وتييس، وهو يزورها على الدوام،لم يكن يفوته أن يتوقف عند الحاج مالك سي في تيفاوان، وله كذلك علاقات مع أحمدُ بمبا.

ز- المصطفى ولد سيدي عبد الله ولد آده البالغ من العمر 35 سنة، وهو من عشيرة أهل محم الفرعية . وصل إلى فاس سنة 1906م حيث حصل من السلطان مولاي عبد العزيز ،بوساطة الشيخ أحمد ولد محمدن

فال من إيداو الحاج، وهو ممثل ماء العينين، على المبالغ المالية الضرورية للحج إلى بيت الله الحرام. وعند عودته توجه إلى فاس وعاش في زاوية الطريقة مدة إقامته التي دامت أربع سنوات وأقام علاقات ممتازة مع الشيخ أحمد المذكور آنفا. ثم عاد إلى عشيرته الأصلية سنة 1910م.

ح- الشيخ محمد ولد الشيخ البالغ من العمر 42 سنة، وهو من عشيرة الحر الفرعية، منحدر من إيداوعلي آدرار، حج عدة مرات إلى بيت الله الحرام كانت أولاها سنة 1890م مع جماعة من تلاميذ ماء العينين عن طريق آدرار، الساقية، وفاس. وقد تزوج في مراكش خلال أسفاره تلك وأقام به عدة سنوات وكذلك في فاس. وأقام عدة مرات بشنقيط وكان غالبا ما يأتي إلى السنغال في جولات لجمع الهدايا .تربطه علاقات حميمة مع شيخ سالوم الزنجي:الحاج عبد الله نياس الذي التقاه بفاس.

ط- محمد حبيب ولد المختار ولد بيانه،ألحقه أبوه المختار بالزعامة الروحية للشيخ مولود فال[97].وكان المختار هذا قاضي الحاج عمر في سيغو ومستشاره للشؤون الإسلامية. عاد إلى عشيرته بعد وفاة ذلك الأمير.

2- تگانت:

ي- سيدي ولد الزين أحمد جدو، البالغ من العمر 45 عاما ، وهو من عشيرة تميلة الفرعية. ولهذا الرجل حاد الذكاء، والذي يمتلك الكثير من الوثائق عن تاريخ قبيلته وأحداث البلد، خصال الدبلوماسي الكامل وكياسته. ويعود تاريخ أول اتصال له بالفرنسيين إلى بداية احتلالنا للبلد. أوقف في آلاق في نهاية يناير 1904م في قافلة كانت متجهة من بودور إلى تگانت. وسرعان ما أطلق سراحه ولعب دور الوسيط بين كبولاني Coppolani وإيدوعيش، وكان مفيدا تقريبا في تلك المهمة في (1904-1905م). وبما أنه هو الذي كان يزود المركز العسكري في تجگجة

[97] انظر أعلاه.

بالحليب، فقد سبق قدومه في ليلة الثاني عشر من يونيو سنة 1905م بدقائق قتلة كبولاني، لهذا طالما اتهم بأنه هو من أدخلهم إلى المركز العسكري ووفر لهم التغطية. لكنه بعدما وقف ضدنا في معركة تجگجة الخاطفة في (مارس-ابريل سنة 1906م) انشق وذهب ليعلن ولاءه لمولاي إدريس ممثل سلطان المغرب. وعندما انتهت المغامرة سارع في إعلان خضوعه للفرنسيين في إبريل سنة 1907م، وعين في عام 1910م زعيما لعشيرة تميلة، وأصبح سلوكه مسالما منذ ذلك الحين. وفي عام 1913م توجه نحو الشمال في مهمة سرية لدى القبائل غير الخاضعة للنفوذ الفرنسي تحت ذريعة جمع تركة أخيه الإمام الذي مات منشقا وتقسيمها. وقد قدم في هذا المجال ولا يزال يقدم خدمات حقيقية. ويتمتع سيدي ولد الزين بنفوذ كبير على العشيرة بكاملها. وقد بلغ من الدهاء والشبهة مبلغا يستحق معه اهتماما خاصا.

وكان أخوه الأكبر الإمام ولد الزين، الذي مات في الساقية منذ سنتين، يعيش منذ عشرين عاما في حاشية ماء العينين. وكان هذا الأخير يستعمله مسؤولا عن الثقافة ومبعوثا وسفيرا، وكان يحظى بكامل ثقته. وفي اكتوبر -نوفمبر 1905م ،بوقت قصير بعد احتلالنا لتگانت، حمل إلى أعيان البلد رسائل من ماء العينين تحثهم على التمرد وفر عندما انكشف أمره. وقد شارك منذ ذلك التاريخ وحتى وفاته في كل المؤامرات وفي كل المعارك الموجهة ضد سلطتنا.

ولسيدي ولد الزين أخ آخر هو أحمد ولد الزين ،يقيم معه في تجگجة.

أما أبوه الزين وهو رجل طاعن في السن، فلا يزال حيا لكن لم يعد له شأن يذكر.

ك- الطالب محمد ولد محمد فال ولد الخليفة البالغ من العمر 50 سنة وهو من عشيرة أهل الإمام الفرعية وهي عائلة من أهل أغد الحاج. والطالب محمد رجل غزير العلم، شديد الذكاء والثراء، هو القاضي الأعلى في تگانت، اشتهر بأنه قاضي نزيه. ويبدو أن لديه موقفا مواليا

للفرنسيين،إن لم يكن من أول يوم من احتلالنا للبلد فعلى الأقل منذ أن عاد من شق عصا الطاعة حيث كان قد ذهب لإعلان ولائه لمولاي إدريس. وبما أنه قد انتمى في الماضي إلى الطريقة على يد الخليفة أحمدُ ابن محمد الحافظ ،فقد أصبح اليوم خليفة التجانية الرسمي لإيداو علي تگانت. ويتجاوز نفوذه الروحي عشيرته ويمتد ليشمل سائر أرجاء تگانت. وتجمع دروس التعليم العالي التي يقدمها هو وتلاميذه الأساسيون،خمسين طالبا من كل الأعمار ومن كل الجهات.

لـ – دي ولد امبارك ولد أحمد البالغ من العمر 54 عاما، وهو رجل في غاية الثراء من أهل أبوهم وكان زعيما لهم قبل أن يتم خلعه للابتزاز المفرط الذي كان يمارسه. وعبدي هو المكلف سابقا من طرف بكار ولد اسويد أحمد أمير إيدوعيش بالإشراف على زراعاته وجمع الهدايا في كيهيدي. وقد تطورت علاقاتهما إلى أن وصلت من المحبة إلى حد المصاهرة المتبادلة وإنجاب الأطفال.

وقد لقيت السلطة الفرنسية من عبدي منذ الأيام الأولى لاحتلال تگانت أكثر عون نجاعة وإخلاصا. فقد حبس نفسه مع الحامية أثناء محاصرة تجگجة في نوفمبر سنة 1906م. وبعد ذلك قام إلى جانبنا بجزء فعال من محاربة المنشقين، وبما أنه هو زعيم مقاطعة تجگجة فقد ساعد إدراتها بقوة. وهو يتمتع بنفوذ كبير في كامل المنطقة.

م– سيدي عبد الله ولد أحمدُ ولد رمضان : وهو من عشيرة أهل محم الفرعية، حاج لبيت الله الحرام ، ووجيه متنفذ .

ن– سيدي محمد ولد محمد سيدي، ومحمد دحمان ولد محمد محمود وكلاهما من أهل الإمام، ومن وجهائهم المتنفذين .

ص– محمد الشيخ ولد الشيخ، وهو من عشيرة أهل بوكة الفرعية، ووجيه متنفذ.

ض– سيدي محمود ولد محمد المختار ولد سيدي، وهو زعيم عشيرة اهل سيدي عبد الله الفرعية. انفصل عن تجگجة لينضم إلى دائرة العصابة (مندوبية كيفه). وقد أعلن سيدي محمد خضوعه لكبولاني Coppolani في إبريل سنة 1905م، ورحل بعد ذلك عن تگانت في يناير سنة 1907م هو وأفراد عشيرته واتجهوا إلى أرض الرقيبة (كيفه) حيث يعيشون هناك حاليا حياة البدو. وهو يملك واحة نخيل في تجگجة، يأتي إليها كل عام "للقيطنة" [98]. وقد تقرب إلينا سيدي محمد في بادئ الأمر في الفترة الفاصلة بين عامي 1907و 1910م، بعد أن أصبح ضحية لعمليات الغصب والنهب المتواصلة وللغارات من آدرار ومن الشمال، وبرهن لنا في العديد من المرات على حسن نواياه، إلا أنه على ما يبدو قد عدل عن ذلك فيما بعد . وقد حكمت عليه محكمة دائرة كيفة في أواخر سنة 1911م بالسجن ثلاث سنوات لاشتراكه في قتل أحد أفراد الجيش الاحتياطي الفرنسي المحلي . وقد خلفه مؤقتا في زعامة العشيرة ابنه محمد المختار المعروف باسم تارو، ولا يقل موقفه شأنا عن موقف الموالين للسلطة الفرنسية .

3- آدرار:

ع– سيدي أحمد ولد الزين وهو من عشيرة أهل عبدي، وهو شيخ من شنقيط ووجيه متنفذ.

ف– الشيخ ولد محمد فال، وهو من عشيرة أهل الشيخ الفرعية، ووجيه متنفذ.

ض– سيدي ولد عبد الله ولد المنير، وهو من عشيرة آمقاريج الفرعية، ووجيه متنفذ.

ق– الطالب ولد زروق، وهو من عشيرة أهل باب أحمد الفرعية، ووجيه متنفذ.

[98] نوع من السياحة المحلية تشد فيه الرحال إلى مناطق الواحات الزاهية للراحة والاستجمام (المترجم).

ويجب أن نضيف إلى إيداو علي الأصليين، أبناء عمومتهم المقربين الأقلال الذين يعيشون إلى جانبهم في آدرار .ومع أن ذلك التعايش لا يخلو من خصومات، إلا أنهم كالشيء الواحد من الناحية المذهبية والتصوفية، بل إن خليفة الطريقة في شنقيط قد اختير منهم .

ر- بشير ولد البخاري ولد محمد محمود البالغ من العمر 72 سنة وهو فقيه فذ، وقاضي شنقيط .

س- سيدي ولد أحمد ولد سيدي حويبات البالغ من العمر 49 سنة، والمقيم في شنقيط وهو عالم ذا قيمة عالية . ويعيش سيدي على وجه الخصوص على شهرة أبيه أحمد المتوفى سنة 1885م الذي كان لفترة طويلة خليفة الطريقة في تجانيي شنقيط . والحج معظم جدا في هذه الأسرة التي سافر معظم أفرادها إلى فاس وإلى مكة المكرمة.

ت- محمد ولد محمد ولد البخاري البالغ من العمر 81 سنة، المقيم في شنقيط، والخليفة الحالي لتجانيي آدرار، وهو رجل عالم يخفي سلطته الروحية بمظاهر حياة متواضعة هادئة . وقد أظهر على الدوام قدرا كبيرا من الحذر في علاقاته النادرة قدر الإمكان مع السلطة الفرنسية،وهو رجل ثري يملك العديد من واحات النخيل والمنازل في المدينة، وقطعان الماشية والعبيد .

ث- محمد عبد الرحمان ولد الشيخ حامويني وأخوه عبد الله، وهما من وجهاء الاقلال المتنفذين في شنقيط .

خ- الشيخ محمد الحسيني ولد باب ولد فال الخير البالغ من العمر 40 سنة وهو منحدر من إيداو علي شنقيط ويقيم في أوجفت منذ ثلاثين عاما . ويمتد نفوذه القوي ليشمل منطقة أوجفت. ويتباهى الشيخ محمد الحسيني بأنه الوحيد من إيداو علي الذي ينتمي إلى الطريقة القادرية وله علاقات دائمة مع الشيخ سيديا الذي أرسل إليه مرات عدة وخاصة سنة 1912م مواشيه وتلاميذه على إثر القلاقل والمجاعة في آدرار.

ثالثا- نفوذهم:

على الرغم من ن إيداو علي متشبثين بالطريقة التجانية لدرجة أنهم جعلوها بمثابة الديانة الوطنية،إلا أنهم لم يزدروا القيام بالدعوة من حولهم سواء ي قبائل البيظان أو في بلاد السودان. ل وأكثر من ذلك سنرى أنهم أنشأوا في القرن الماضي تجمعين من التجانيين الزنوج في السنغال يعملان وفقا لطابع الخصوصية ذاته،ويظهران على الملأ في الوقت الحالي مستقبلها المشرق.

ويجب أن نشير في بلاد البيظان أولا إلى عشيرة:

المرادين بشقيها:

- أولاد عبد الوهاب : الشيخ امبارك ولد زين الدين

- المناصير:الشيخ الجدوب ولد محمد ولد الحافظ.

والمرادين هم من آزناگه أو بالأحرى هم، إذا ما استخدمنا مصطلح الزوايا،"تلاميذ" لإيدا وعلي الترارزة. أما مصطلحي " آزناگه" (التسمية الاجتماعية) ، و"اللحمة" فهما المصطلحان المستخدمان لدى قبائل بني حسان أو القبائل المحاربة للإشارة إلى أتباعهم من دافعي الجزية . وعشيرة المرادين هي عشيرة مندمجة في إيداو علي، وترافقها في حلها وترحالها ،وتحسب معها في معظم الأحيان بعد العشائر الأصلية.

وقد جند إيداو علي أتباع طريقتهم بالأساس في ثلاث من قبائل الزوايا هي:

تاشدبيت وتاقنيت وأولاد ديمان.ومن ناحية أخرى فإن هؤلاء الأتباع وإن كانوا قليلى العدد إلا أن انتقاءهم تم بعناية.وأهم هؤلاء الأتباع:

1- لدى تاشدبيت:محمد ولد المختار ولد حميدة وهو من هل حمدان، إحدى العشائر الفرعية في قبيلة الأقلال، يبلغ من العمر 64 عاما، وهو قاضـــي القبيلة منذ ســـنة 1911م، ومعلم مدرسة. وله هو نفسه بعض الأتباع لدى لبيدات وأولاد أمبارك (في الترارزة). والمختار ولد بحمبيت، ويبلغ من العمر 40 عاما من أهل المصطفى إحدى العشائر الفرعية من قبيلة أولاد أحمد، وهو زعيم القبيلة منذ سنة 1909م، والحامد ولد محمد مولود ولد حميد البالغ من العمر 40 عاما أهل بوجداتو إحدى العشائر الفرعية من أهل محم وهو زعيم تلك العشيرة الفرعية منذ سنة 1912م، هو وأخوه عبد الله الزعيم السابق للتجمع. وترتبط هذه الأسرة الثرية المبجلة، المتنفذة بعلاقات دائمة مع عائلة أمراء الترارزة. ويتبع تجانيو تاشدبيت مباشرة للزعامة الروحية للخليفة محمد سعيد ولد أحمدُ.

2- أما تاقنيت المنتمون إلى هذه الطريقة فيتبعون بشكل عام محمد فال ولد بابا [99].

3- ولإيداو علي تلميذان مختاران من أولاد ديمان هما:

أ- بارك الله ولد محمذن ولد محنض بابا، ويبلغ حاليا من العمر 50 سنة، وهو زعيم العشيرة الفرعية أولاد يعقبان الله منذ سنة 1911م. أما جده محنض بابا فهو مؤلف أحد شروح مختصر خليل بعنوان "الميسر"، وهو معروف في موريتانيا تحت اسم "ميسر الديماني" . وبارك الله عالم فذ ورجل متنفذ.

ب- أحمد بزيد ولد محمذن ولد بزيد، ويبلغ حاليا من العمر 44 عاما وهو زعيم عشيرة أولاد سيدي الفاللي الفرعية الذين يتزعمهم أولاد سليمان من سنة 1906 م إلى سنة 1909م، وأصبحت مستقلة ابتداءا من سنة 1909م .

[99] انظر أعلاه الفقرة (أ).

وكان أبوه محمذن شيخ عشيرته، قد تزوج أرملة الأميرمحمد الحبيب المتوفى سنة 1861م،وهي أم أميرين هما أحمد سالم الأول المتوفى سنة 1873م وعمر سالم (1886 والمتوفى سنة 1891م) وبذلك نسج علاقات ممتازة مع أهل محمد الحبيب. وقد ورث ابنه ذلك التقدير والنفوذ .

ولإيداو علي خارج الترارزة بعض التلاميذ لدى أهل سيدي محمود الذين يعيشون حياة البدو في الرقيبة شمالي كيدي ماغا (سيلبابي) أشهرهم هو أحمد سالم ولد العربي ولد جدين البالغ من العمر 35 عاما، وهو من الأسرة الحاكمة لأهل عبد الله، والذي يرتبط من خلال أبيه العربي وعمه المتوفى المختار، زعيم أهل سيدي محمود بالخليفة احمدُ ابن محمد الحافظ. وقد قام أحمد سالم بزيارة فاس والحج إلى بيت الله الحرام. ويوصف بأنه عطوف، ذكي، وطموح .

وتتألق تجانية إيدوا علي شنقيط وتجكجة في آدرار وتكانت وخارجهما لكن بصفتها نفوذا ثقافيا عاما في مجال الإسلام أكثر من كونها نشاطا دعويا إلى طريقتهم. لك أن أتباع القبائل الأخرى المنتمين إلى طريقتهم، استثناء الأقلال الذيت يسيرون على منوالهم ضمن مجموعة كثيفة،لايعدون إلا بالأسر أو الأفراد.

وتجدر الإشارة فقط في دائرة گورگول مندوبية كيهيدي إلى أحد القواد الحربيين في جيش آمادو شيخو ابن الحاج عمر وهو منتقى ابن آمادو عمار أليمان المولود في نيورو حوالي سنة 1881م، وأمه امرأة بيظانية. درس في تشيت وفي الرديد، المكان الذي يقيم به حاليا، لدى إيدوعيش وأولاد طلحة. وهو شيخ يجمع الهدايا، جشع، ماكر يستغل نفوذه. جال على التوالي في ماتام وصالدى (بالسنغال) وفي آدرار وگورگول (بموريتانيا). وكان من عادة مشاييخ الزنوج، أن يضفوا من بركتهم على البلدان التي يمرون بها تاركين على آثارهم دلائل حية على بركتهم. فكان يأمر أن يأتى إليه بنساء من كل القرى التي يمر عليها فيتزوجهن في المساء ، بشكل منتظم تقريبا، ثم يتركهن في اليوم التالي دون

مهر بل دون أن يطلقهن. وقد قادته هذه التصرفات في نهاية الأمر إلى المثول أمام محكمة گورگول حيث حكم عليه بالسجن لمدة سنة عام 1913م. وهو يتبع للزعامة الروحية لمالك ولد العايدي العلوي الشنقيطي.

أما في بلاد السودان [100]: فإن نفوذ إيداو علي – ويكاد ينحصر في إيداو علي الترارزة وحدهم- فليس أقل شأنا.

ونبدأ بمنطقة شمامة بموريتانيا حيث نجدهم يمارسون نفوذهم الروحي على جزء من جيرانهم تجانية التكرور في مقاطعة انتيكان مناصفة مع بعض تلاميذ الحاج عمر. أما الجزء الآخر فيخضع لطريقة الشيخ سعد بوه [الفاضلية]. ومن الصعب الفصل بين نفوذ إيداو علي ونفوذ طريقة الحاج عمر، ولا يميز الأهالي أنفسهم بينهما. إلا أن إيداو علي بحكم منـــزلتهم المتمثلة في بياض بشرقم وبحكم جيرتهم وعلاقاتهم اليومية،هم المسيرون الروحيون الحقيقيون لهذه المقاطعة التكرورية. أما أشهر وجهاء انتيكان فهم:انجاي كانْ ابن عليون كانْ ويبلغ من العمر 37 سنة، وهو الزعيم المحلي للمقاطعة.وكان جده هو الذي أسس مقاطعة انتيكان، إثر خلافات مع زعيم المقاطعة التي كان يوجد فيها ،والذي أجبرهم على مغادرة تجمعه الإتني وإلى عبور النهر. ومنهم أيضا تييرنو إبراهيما البالغ من العمر 52 سنة ،وهو إمام مسجد ومعلم مدرسة واخوه بوكار سي البلغ من العمر 47 سنة وابن أخيهم آمامدو سي ابن عمار سي البالغ من العمر 37 سنة وهو معلم مدرسة. ومنهم تييرنو عبدول جيي (وهي تحريف لجبريل) البالغ من العمر 47 سنة وهو من قرية فاناي ، وابني أخيه : جبريل سي البالغ من العمر 34 عاما ،وبوكار سي البالغ من العمر 32 سنة، وهو ممرض قديم ،ومترجم قديم بالمذرذرة، وهو الآن زعيم قرية فاناي، وقريبه بوكار عمر البالغ من العمر 26 عاما . وقد ساهم هذا الأخير بشكل فاعل في الدعوة الدينية المتعصبة التي قادها الشيخ علي يورو ديوب سنة 1907م ومن تبعه في تمرده الذي قاده إلى الهجوم على المركز العسكري بدگانا

100 مصطلح استعمل هنا للدلالة على الدول الإفريقية بالإضافة إلى منطقة شمامة الموريتانية (المترجم).

ومقتله في الســادس عشر من مايو ســنة 1908م. فهاجر بوكار عمر نحو الشرق وهو الآن يعيش في المدينة المنورة مع آلفا الهاشمي وجماعة صغيرة من التكرور لا يستهان بها. أما أمه بندا فاتي، أخت علي يورو، فقد سافرت سنة 1910م لتلحق به في المدينة المنورة .و قد تزوجت أخت له من بوكار سي المذكور آنفا.

ويخضع كل هؤلاء التكرور للزعامة الروحية لأحمد فال ولد الشيخ ولد مولود فال [101] .أما في مقاطعة كير نور فلا يوجد من أتباع التجانية سوى رجل واحد من السكان الأصليين هو الزعيم المحلي للمقاطعة صمبا دين ديوب، وأصله من الولوف، ويبلغ من العمر 42 سنة، وينتمي إلى التجانية وكذلك عائلته، ويتبع للحاج مالك سي بتيفاوان ولا يخضع لسلطة أحمد فال إلا بشكل غير مباشر.

وينتمي إلى تجانية إيداو علي في السنغال نفسها العديد من قرى التكرور في ديمار (دائرة دگانا) عن طريق الشيخ أحمد فال[102] وبعض معلمي المدارس القرآنية في دائرة صلده ديوربيفول وهم على وجه الخصوص:تييرنو عبدول دانييدو في غالويا – الفلان، ييرنو مامادو سيسى في غالويا- التكرور، تييرنو سيرى صامبا في ديابا ليدوبي، وتييرنو مختار سي وهو مساعد في محكمة مقاطعة إرلابي –أبيابي في صلده،والعديد من تجمعات الولوف في سنت لويس، واللوگة وتيفاوان وتييس ومحطات أخرى على طريق السكة الحديدية،انخرطوا في التجانية على يد محمد فال ولد اتشفاغة [103]، وعائلة مامادو صو الزعيم المحلي لمقاطعة باول عن طريق محمد المختار ولد محمد فال [104]،وأخيرا في دائرة كولخ تجمع الحاج نياس عن طريق الشيخ محمد ولد الشيخ. والحاج نياس هو الزعيم الروحي لمريدية صغيرة لديها بعض الأتباع في مقاطعات سين وسالوم وريب.

101 انظر أعلاه الفقرة (ج).
102 انظر اعلاه.
103 انظر أعلاه.
104 انظر أعلاه.

وكان من حسن حظ تجانية إيداو علي خاصة ذلك المصير الذي عرفته في الدول الإفريقية، بأن احتضنها الحاج عمر، ونمت مع نجاحات ذلك الفاتح وأصبحت على نحو ما بمثابة الميثاق الوطني للتكرور.وكان الحاج عمر قد حصل على الورد من الشيخ مولود في الترارزة حوالي سنة 1835م إلا أنه قام فيما بعد بتأكيد ذلك الورد من جهة أخرى على يد شيخ الطريقة نفسه محمد الغالي في مكة المكرمة، وبعد ذلك أخذ استقلاله الكامل وتجاهل شيخه الأول ،وانطلق يجدف باتجاه مستقبله الزاهر بعد أن أسس طريقته ودولته . ولا سبيل إلى إنكار أنه بحث عن الطريقة التي تناسبه فوجدهافي طريقة إيدو علي الحصرية (chapelle exclusiviste). وليس لهؤلاء في الوقت الحاضر أتباع مباشرون في فوتا التكرور، لكن اسمهم يلقى فيها التكريم والترحاب.

ثمة رافد آخر نابع أيضا من إيداو علي ،وأكثر ارتباطا بهم،وهو الرافد الذي يمثله مالك سي في تيفاوان.وعلى الرغم من أن مالك سي من أصل تكروري،إلا أن هذا الشيخ زعيم لتجمع كبير من التجانيين الولوف.

ويخضع لزعامته الروحية المباشرة كل أهالي كايور والسكان المتواجدون حول السكة الحديدية الرابطة بين داكار وسنت لويس، وكذلك معظم الناخبين والمنتخبين الزنوج في البلديات الأربع العاملة بشكل كامل في السنغال. وقد أخذ الحاج مالك الورد التجاني على يد خاله مايورا أووالي، وهو بدوره تلميذ لمولود فال، لكنه تحول عنه بعد ذلك إلى طريقة الحاج عمر. وقد قام بدراساته العليا لدى إيداو علي في الترارزة، وكان يبعث إليهم في بعض الأحيان بتلاميذه لإكمال دراساتهم هناك. وهو الآن مستقل تماما ويشرف،كما يحلو له، على زاويته وجماعته الدينية، بل إنه يملك بدوره بعض الفروع مثل فرع الشريف يونس في كازامانس، وتربطه من ناحية أخرى علاقات ممتازة مع خلفاء إيداو علي ومشاييخهم ويبعث إليهم بالهدايا وهو الآن محل اهتمام شيوخ التجانية بفاس.وتعتبر دراسة "طريقة" الحاج مالك سي في غاية الأهمية وتسدعي

شروحا كبيرة جدا لا يتسع المقام هنا لبحثها. يكفي أن نشير إليها إشارة عابرة مثل طريقة الحاج عمر باعتبارها ثمرة من الثمار البعيدة لتجانية إيداو علي.

يجب أن نضيف إلى هذا الطابع الديني والوطني الذي يميز إيداو علي، الظواهر الاجتماعية الغربية التي يمثلها عندهم التنظيم الديمقراطي الكامل. فحياة القبيلة تدبرها وتسيرها الجماعات الثلاث و لا شيء غيرها، وليس الشيوخ الإداريون الذين تقترحهم مجالس الوجهاء، تعينهم السلطة الفرنسية سوى أسماء مستعارة تتنصل بواسطتهم العشيرة من العلاقة بين أفرادها وبين النصارى : فهم ينقلون أوامر "القائد العسكري" ويوقعون الردود الموجهة إليه، يجمعون الأتاوات، يقبلون الحكم عليهم عند الضرورة، بغرامة لا يؤدونها من حر مالهم بل يتم توزيعها فورا على كل الأسر لتدفع كل أسرة قسطا منها إلخ. وهم لا يتمتعون بأية سلطة خاصة لا شخصية ولا وظيفية. ويمكن للخلفاء الدينيين أنفسهم فرض بعض الأوامر بصعوبة خارج المجال الروحي. فهم ليسوا سوى رؤساء مجلس الأعيان، – الأكثر نفوذا فيه – والذي يقوم بتسوية قضايا العشيرة المدنية والجنائية والاجتماعية واليومية والعامة والخاصة، على غرار ما يحدث في جماعات "القبايل" (Kabylie) والمزاب[بالجزائر].

ويثبت هذا التنظيم الديمقراطي التمثيل الأوليغارشي بما فيه الكفاية أكثر مما تثبته الأدلة التاريخية واللغوية التي يمكن إنشاؤها، أن ادعاءات إيداو علي فضل الشرف لا تقل عن كونها غير حقيقية،فهم بكل تأكيد، حالهم حال كل عشائر الزوايا في موريتانيا، شائر بربرية أصلية تم تعريبها وأسلمتها ببطء عن طريق فتوحات القبائل الحسانية وسيطرتها.

وقد أصبح هؤلاء المغلوبين على أمرهم،بفعل انقلاب عجيب للأوضاع – بعد أن تم سحقهم في نهاية الأمر في حرب شربّه في القرن السابع عشر،وإجبارهم على دفع الجزية ،ودفعهم إلى الصلاة والدراسة والثروة الحيوانية — الممثلين الرسميين للعلوم العربية والحضارة الإسلامية والشريعة المحمدية.

ومع مرور الزمن نشأت بعض التحالفات بين هؤلاء الصنهاجيين (Zenaga) الذين يشعرون بالخزي من أصلهم،وبين حسان الفخورين بدمهم العربي.

وقد أنتجت رواياتهم،التي تناقلوها جيلا عن جيل،وتم تضخيمها إلى حد الإفراط،أشجار النسب الرائعة هذه التي ترقى،عبر أزمنة متطاولة،وأحيانا عن طريق أسماء غير عربية إلى حد بعيد،إلى الرسول (ص) أو إلى أحد أفراد آل بيته.

ويخضع إيداو علي — وقد استطعنا أن نبين ذلك — لهذه القاعدة العامة.ومن ناحية أخرى ينتشر العلم في هذه القبيلة إلى أقصى درجات الانتشار، وكذلك المكتبات الكثيرة العامرة، فلا يوجد منهم طفل تقريبا ذكرا كان أو أنثى إلا وتلقى تعليما ابتدائيا قرآنيا،كما ان معلمي المدارس القرآنية كذلك هم من الرجال والنساء ، ومن الأحرار والمحررين الحراطين أو من التلاميذ الموالي على حد سواء،بل إن الكثير من العسيان يكسبون قوتهم من التعليم.

وبناءا على هذه الاعتبارات الأخيرة لا ننسى أن نضيف الاعتبار المتعلق بالعلاقات الحميمة والدائمة التي أقامها إيداو علي منذ أكثر من قرن مع زوايا التجانية في فاس،وقد أخذوا عنها روح الريبة الأكيدة والكراهية الدفينة تجاه النصارى.وقد أدت تلك العلاقات في الوقت الحالي إلى جعل إيداو علي ضباط اتصال وهمزة وصل بين تلك الزوايا وتجمعات التجانيين في البلدان الإفريقية.

وبناءا على ذلك فإن الخلاصة التي تفرض نفسها هي أن هذه القبيلة ذات أهمية كبيرة من جوانب مختلفة،وهي تستحق ،في كل الدوائر المعنية، نشاطا دراسيا علميا متواصلا ومنسقا، ومرونة إدارية، ورقابة سياسية.

الملحق [1]:

أصول إيداو علي

أعزهم الله بجاه سيد المرسلين:

نسبة العلويين بين أعلام الله في عليين بجاه سيد المرسلين.وقد أخبرني الفقيه الصالح محمد بن بيانه أن عبد الجليل بن الحاج أخبره إيدايجر إحدى قبائل تشمشة من عند جدهم بالاحمر يلتقون مع إيداو علي عنده،وأنهم إدريسيون حسنيون.وذكر ذلك سيدي عبد الله ابن الحاج ابراهيم في "صحيحة النقل" والرواية في الأخرى في ذرية محمد بن الحنفية بن علي كرم الله وجهه.وهذه النسبة وجدتها بخط عبيد الله بن أبي جهد المدلشي أصلا اليعقوبي وطنا ووجدتها أيضا عند إيداجفغ من عند بلحمر وهي أن جدنا الطالب بن حبيب ابن محمد ابج بن حمدن الله ابن ابج ابن يحي ابن ابج ابن علي بن بلحمربن همدكغبل بن علي بن يمج بن نبداكر ابن كنانةبن جابر بن عبد الرحمان بن عبد الله ابن ابن ابراهيم ابن إدريس بن محمد بن يوسف ابن زيد ابن عبد النعيم ابن عبد الواسع بن عبد الدايم بن عمر بن زروق بن عبد الله بن عمر بن سعيد بن عبد الرحمن بن سالم ابن هارون وفي نسخة عزون ابن عبد الكريم ابن خالد ابن سعيد بن عبد المومن بن أبي زيد ابن رحمون بن زكريا بن القاسم بن يحى بن أبي علي بن عبد الله ابن محم بن إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى ابن الحسن بن علي كرم الله وجهه وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم أجمعين هذا ما وجدته بخط من نقله عن نقل محمد المختار بن سيدي عبد الله الفغ سيد أحمد بن محمد القاضي بن الطالب المذكور في أول السلسلة

انتهى

وكتب محمد بن محم المعروف ببدي بن سيدي بن ابن الفغ سيد أحمد ن محم بن القاضي المذكور فوق.

الملحق [2]:

[اتفاقية خضوع إيداو علي و الاقلال للنفوذ الفرنسي] :

الحكومة العامة لغرب إفريقيا الفرنسية   اتفاقية أبرمت مع

إيداوعلي والأقلال بشنقيط

موريتانيا

الحمد لله الذي أوصى البشر في القرآن بالمحبة والتعاون:

وقد اتفقت الحكومة الفرنسية ممثلة في المقدم غورو الذي يحكم باسمها بلاد البيظان، وإيداو علي والأقلال سكان مدينة شنقيط ممثلين في الشخصيات التالية :

أحمد ولد أحمد البشير،أهل الحنشي من الأقلال

محمد محمود ولد أحمد محمود ولد موسى من الأقلال

محمد عبد الله ولد محمد سالم إمام الأقلال

محمد عبد الرحمان ولد احمد البشير (شقيق الأول)

محمد ولد عبد الرحمان ولد الإمام ،إمام الأقلال

...

محمد ولد سيدي ولد ولد محم عاشور،آمقاريج من إيداو علي

محمد ولد محمد نافع ولد الوداعة آمقاريج إيداو علي

على ما يلي:

أن تمنح الحكومةالفرنسية الأمان لإيداو علي والأقلال سكان مدينة شنقيط.ويلتزم إيداوعلي والأقلال بشنقيط بألا يحملوا سلاحا ضد الفرنسيين تحت أي ظرف،وبأنهم لن يوفروا المأوى ولا العون للقبائل المعادية للفرنسيين.

ويلتزم الفرنسيون باحترام أفراد إيداو علي والأقلال في شنقي ومعتقداتهم وممتلكاتهم. ويلتزم الفرنسيون في اليوم الذي سيحكمون شنقيط بتعيين زعيم لكل من إيداو علي والأقلال كل من قبيلته لا قبيلة أخرى.

وأن الأراضي الفرنسية [المستعمرة] مفتوحة لقوافل إيداوعلي وأقلا شنقيط الذين يلتزمون بالتقيد فيها بالقوانين السياسية والإدارية الفرنس المتبعة في موريتانيا،وخاصة أن يتقدموا إلى الحامية الفرنسية ليسلموا م حوار المرور، وأن يدفعوا لها حق الضرائب قبل الدخول إلى الأرا الخاضعة للفرنسيين.

سنت لويس،12 ديسمبر،1907م.

المقدم

مفوض الحكومة العامة بموريتانيا

غورو

الإداري درجة أولى،

ومساعد مفوض الحكومة العامة

آدم

المترجم

أبو المقداد

الملحق [3]:

إجازة شيخ تجانية إيداو علي :

اللهم صل على النبي الأمين:

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعد فإن سيدنا ووسيلتنا إلى الله مولانا قطب الأقطاب أبا العباس بن أحمد ابن محمد التجاني الحسني رضي الله عنه ومتعنا بحبه ومقامه دنيا وآخرة ءامين أذن لتلميذه الفقيه الأريب الأنجب الأديب حبنا سيدي الحافظ بن المختار ابن حبيب الشنقيطي إعطاء أوراده لكل من طلبها من المسلمين بشرط المحافظة على الصلوات الخمس بشروطها المعلومة وبشرط إفرادها أعني لا يعطى لمن عنده ورد من أوراد الأشياخ هذا شرط فائدته وتحصيل مطلب مع ملازمة الوظيفة مرة بين الليل والنهار لكل من أخذ هذا الورد، وكذلك ذكر الهيللة بعد عصر كل يوم جمعة لمن لم تكن له حاجة تشغله في وقت الوظيفة ووقت عصر يوم الجمعة. وأما الورد فإنه يقضى لازما إلا في حالة المرض لمن لم يقدر عليه.وأما من تركه لعذر أو نسيان فإنه يقضيه دائما، وأما من فرط فيه عناوة فإنه لا ينفعه إذا رجع إليه إلا إذا تاب وجدد الإذن عن الشيخ أو عن المقدم وأذن أيضا سيدنا نحبيه المذكور أن يقدم عشرة تحته لبعد مسافة أو عذر آخر فمن أذن له منهم كأنه أذن له سيدنا رضي الله عنه وأذن له أيضا رضي الله عنه في كل ما يريد ذكره على الإطلاق من كل ذكر من غير تحجيم وكل من أخذ الورد على محبنا هذا فله مثله ما لمن أخذ عن سيدنا رضي الله عنه من الفضل والمزية سواء بسواء. والورد المذكور سابقا هو :استغفر الله مائة مرة ،وصلاة الفاتح لمن يحفظها مائة مرة، والهيللة مائة مرة بعد صلاة الصبح وبعد صلاة المغرب.

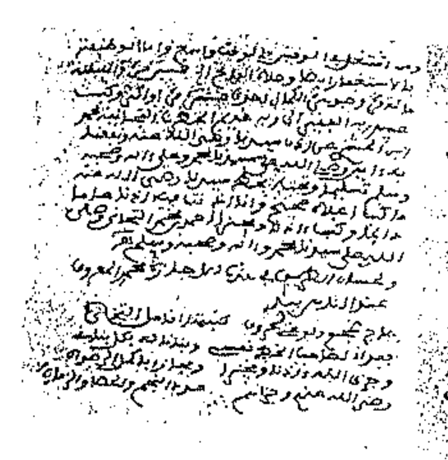
ومن اشتغل في الوقتين فالوقت واسع. وأما الوظيفة فالاستغفار أيضا وصلاة الفاتح إلخ خمسين مرة والهيللة مائة مرة وجوهرة الكمال إحدى

عشرة مرة أو أكثر.وكتب عبيد ربه الفقير إلى ربه خديم الحضرة التجانيا محمد ابن الحنشي عن إذن سيدنا رضي الله عنه ونفعنا به ءامين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما وتحته بخطه سيدنا رضي الله عنه ما كتب أعلاه صحيح وأنا أذنت فيه إذنا عاما دائما وكتب ءاذنا ومجيزا أحمد بن محمد التجاني وصلى الله على سيدنا محمد وءاله وصحب وسلم.

انتهى

ولحساب الطريق في هذه الإجازة محمد المعروف عند التلاميذ ببدي

هاج شجني ولوعتي لحروف	كتبتـــها أنامـــل التجـــاني
ففداك لصاحب الخط نفسي	وبناني له بكـــل بنـــــاني
وجزى الله آذنا ومـــــجيزا	ومجازيا بأكمل الرضـــوان
رضي الله عنهم وجزاهـــم	عدد النجم والحصى والزمان



مصادر الفصل الثالث:

1- Bulletins individuels des cercles du Trarza,du Tagant et de l'Adrar.

2-Renseignements founis par M.l'Administrateur Antonin.

فهرس الموضوعات